

أسفار السّير جون ماندڤيل ورحلاته

تأليف: السير جون ماندڤيل
ترجمة: أنس الذّهبي
رنا جزائري
تحرير وتعليق: د. أحمد إيبش

روّاد المشرق العربي

أسفار السّير جون ماندڤيل ورحلاته

1322 - 1356 م

ترجمة

أنس الذّهبي

رنا جزائري

تحرير وتعليق

د. أحمد إيبش

© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية.
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

G370 .M2512 2012

Mandeville , John , Sir

[The Voyages and travels of Sir Mandeville , Knight]

أسفار السير جون ماندفيل ورحلاته 1322-1356م / ترجمة: أنس الذهبي، رنا جزائري ؛ تحرير و تعليق: أحمد أيبش.

ط. 1.- أبو ظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2012.

ص. ؛ سم.- (رواد المشرق العربي)

ترجمة كتاب : The Voyages and travels of Sir Mandeville , Knight

تدمك : 978-9948-17-059-4

1. الرحلات. أ. ذهبي، أنس. ب. جزائري، رنا. ج. إيبش، أحمد. د. العنوان. هـ. السلسلة

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إصدارات
esdarat
دار الكتب الوطنية

الطبعة الأولى 1433هـ 2012م

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي
هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - المجمع الثقافي

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380

publication@adach.ae
www.adach.ae

أسفار السّير جون ماندڤيل

ورحلاته

سلسلة

روّاد المشرق العربي

تقدّم «**هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة**» للمكتبة العربيّة بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، كتاباً جديداً من السّلسلة الثقافيّة التّراثيّة: «**روّاد المشرق العربي**». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويّتهم الوطنيّة، وذلك من خلال الحرص على جمع كافّة المصادر المتعلّقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشر التّراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسّساتنا الثقافيّة على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التّراث ونشر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تُراثيّة عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربيّة في مجالات شتّى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشّعر، النّحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطبّ وهندسة ورياضيّات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرّحلات.

وما دُمنا بصدد ذكر تُراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نوكّد على أنّ ثمّة تيّاراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تُراث العروبة، ألا وهو:

أدب رحلات الأوروپيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتمّ التّركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقّفي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسّياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلة آناباسيس لزينوفون الأثيني، ورحلة هيرودوتوس)، والرّومان (كرحلة إيليوس غالوس). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصّليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها ارتدّت على أعقابها.

فلمّا أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافيّة والحضاريّة من علاقات الشرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروپيّين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشائقة الشيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقُراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تقوم «هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة» اليوم بنشر نص جديد منه بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة

هذا الكتاب

جون ماندڤيل أشـهر وأظـرف رحّالي القرن الرّابع عشـر، معاصـر الرّحالة البندقي الشّـهير ماركـو پولـو ورحّالتنا الكبيـر ابن بطّوطـة الطّنجـي، يعرّفنا بنفسـه بقوله: «أنا جـون ماندڤيـل الفارس.. المولود في إنكلترا.. ركبتُ البحر في سـنة 1322 م، في يوم القدّيـس ميخائيـل.. وزرتُ بلاداً مختلفـةً وجُزراً كثيرة.. واجتزتُ بـلاد التّتار وفارس وأرمينيـا الصّغـرى والكُبرى، وليبيا والعراق، وجزءاً كبيراً مـن أمازونيا والهند الكبرى والصّغرى، وجزراً كثيرة حول الهند.. حيث تقطن شـعوب متباينة الأعراف والعادات والأشكال البشرية»[1].

يـرد في المصـادر الإنكليزية، كما فـي الموسـوعة البريطانية مثلاً[2]: السّـير «جون ماندڤيـل» Sir John Mandeville مؤلّف إنكليزي، له مجموعة من روايات الرّحلات حول العالم، تُعرف بعنوان: «أسفار الفارس جون ماندڤيل ورحلاته»:

The Voyages and Travels of Sir John Mandeville, Knight.

وهي تضمّ مجموعة مختارات من روايات لرحّالين أصليين، قام بتحريرها وتزويقها ماندڤيل نفسه، ثم نسبها إليه كما لو كانت رحلاته الشّخصية.

وكلّ ما نعرفه عنه، هو ما جاء بقلمه في رحلاته، المكتوبة بلهجة أنكلوفرنسية كانت

---

(1) راجع رحلته، نشرة رايت بلندن:

Wright, T.: *Early Travels in Palestine*, p. 129.

(2) راجع:

Encyclopaedia Britannica, *(Micropaedia)*, 1980 print, vol. VI, p. 559.

شائعة في إنكلترا في القرن الرّابع عشر للميلاد. وأن اسمه جون ماندڤيل الفارس، ولد في بلدة سَنت آلبانز St. Albans التابعة لمقاطعة هِرتفوردشاير Hertfordshire وتعلّم بها. ولقد باشـر رحلاته، كما يقول، في يوم 29 سبتمبر من عام 1322 م، ثم يروي أنه بعد 34 عاماً من التّرحال أرغمه داء النّقرس (التهاب المفاصل) على إلقاء عصا التّسيار مُرغماً، فمكث في موطنه عام 1356 م ليدوّن أخبار رحلاته من الذّاكرة.

ورغم أن ماندڤيل (أو موندڤيل Maundeville بصيغته الأنكلوفرنسية) كان اسـماً شـائعاً بإنكلترا في القرن الرّابع عشر، فلا شيء آخر يمكن لنا معرفته عن المؤلّف. غير أن هنالـك روايةً مـن ابتداع الخيال، تقول إنه أضحى طبيباً، مـارس المهنة بمدينة لييج (فـي بلجيكا اليوم)، تحت اسـم «جان دى بُورغونْـيْ» Jean de Bourgogne وأنه قام بتدوين أخبار رحلاته هناك، حيث مات ودُفن.

يذكـر هذه الرّواية جان دُوترُمـوز Jean d'Outremeuse de Liège أحد أبناء لييج، وهو مؤلف روايات رومانسـية شـعرية، وله تاريخ خيالي للعالـم بعنوان: *Ly Myreur des histors* «مـرآة التّواريخ»، مبني علـى روايات رحلات ماندڤيل. ويدّعي دوترُموز أن الطّبيب جان دى بورغونْيْ، وهو أصلاً شخصية معروفة تاريخياً، قد أقرّ على فراش موته بأنه كان هو بالفعل السّـير جـون ماندڤيل إيرل مونتفورت Earl of Montfort في إنكلترا. غير أن الوقائع تتضادّ مع مزاعمه تلك، على اعتبار أن نسخة لييج من رحلات ماندڤيل المكتوبة بالأنكلوفرنسـية يعتورِها تحريفٌ بالـغ، وبالتالي فإن رواية دوترُموز تُعدّ زائفة بشكل شبه أكيد، كما خلُص جمهور الباحثين.

وليـس مـن المؤكد أن ماندڤيل نفسـه قد قام بأيّة أسـفار أصلاً، ذلـك لأنه عمد إلى اسـتقاء موادّه - بالكامل تقريباً - من الموسـوعات وكتب الرّحلات المتوفّرة بين يديه آنذاك. فالقسم الأول من كتاب رحلاته، والذي يختصّ بذكر طرقات السّفر والعجائب الموجـودة فـي كل مـن القسـطنطينية وفلسـطين ومصر، يتّبـع بالواقع خط سـير رحلة الرّحّالة الألماني ڤلهلم فون بُولدِنزيلِه Wilhelm von Boldensele. أما القسم الآخر الأطـول، فهو يأخذ القارئ صوب آسـيا وأفريقيا، متّبعاً خط مسـير رحلـة أوديريكو دا

پوردينونه[1] Oderico da Pordenone، الموسومة باللاتينية بعنوان: *Itinerarius de rebus incognitis*، الذي يعني: «الرّحلة إلى الأشياء المجهولة».

ثم طفق ماندڤيل يزوّق نصوص هذه الرّحلات ويطعّمها، بأخبار تاريخية ومعلومات حول التقاليد والأديان والأساطير المتعلّقة بالمناطق المذكورة في رحلته المزعومة، ممّا استقاه من قراءاته واطّلاعاته الواسعة، فقام بتحوير النّصوص الأصلية وزيادة رونقها بمهارته الأدبية ومخيّلته الثّرّة المُبدعة. ثم قولَبَ هذه المواد بصيغة الرّواية الشّخصية، مصوّراً نفسه رحّالةً بسيطاً صادقاً مُنفتح الذّهن ذا تفهّم وتقبّل للشعوب المختلفة وعاداتها الغريبة، وذا ميل للبحث عن التفسيرات الطّبيعية للظواهر الغريبة بدلاً من عَزوها للمُعجزات.

على أنه برغم اشتهاره كأعظم رحّالي زمانه في عصر الاستكشاف بالقرون الوسطى، فإن ماندڤيل فيما بعد فَقَدَ سُمعته كراوية صادق، ونال محلّها صيت «أفّاق من الدّرجة الأولى». ولكن برغم ذلك كلّه، تبقى لكتابه شعبيّة كبيرة وما زال ينال حظاً وافراً من إقبال القرّاء. وإنّ جاز لنا التعبير، فإنّ كتابه كان في عصره بمثابة Best Seller وتمتّع بشهرة فائقة.

في عام 1954، قامت الكاتبة البريطانية جوزفين ووتَرْز بِنِت بدراسة مخطوطات الكتاب، مع طبعاته العائدة للقرنين الخامس عشر والسّادس عشر، كما حلّلت مصداقيّة النّصّ، وفنّدت أسطورة لييج، فضلاً عن القيمة الأدبية والتاريخية لكتاب رحلات ماندڤيل. وذلك في كتابها:

Josephine Waters Bennett: *The Rediscovery of Sir John Mandeville*, London, 1954.

* * *

وأقدم نشرات الكتاب المعروفة كانت باللاتينية والفرنسية، ثم بالإيطالية، صدرت

(1) مبشّر فرنسيسكاني ورحّالة إيطالي (1286-1331 م)، جال في بعض أنحاء آسيا كالهند.

إحداها في البندقية بطبعة جديدة ومصحّحة عام 1567:

Ioanne de Mandevilla, nel quale si contengono di molte cose marvigliose, con la tavola di tutti I capitoli che nella presente opera si contengono, novamente stampate & ricorretto. Venetia, 1567.

وبعدها، صدرت طبعة مترجمة بالألمانية عن أصل قديم مطبوع باللاتينية والفرنسية في كولن، ونُشرت بألمانيا (دون ذكر مكان الطّبع) في عام 1692:

Deß vortrefflich-Welt-erfahrnen, auch Hochweitberühmten Engelländischen Ritters Johannis de Montevilla curieuse Reiß-Besschreibung, wie derselbe ins gelobte Land Palästinam, Jerusalem, Egypten, Türckey, Judaeam, Indien, Chinam, Persien und andere... Von ihme selbst in latein und französischer Sprach beschrieben; nunmehr allen Teutschen... zu gutem übersetzt. Ehmals gedruckt zu Cölln, jetzt von neuem aufgelegt... im Jahr 1692.

أمـا أول طبعة باللغة الإنكليزية، فصـدرت في لندن عام 1725، تلتها أخرى في عام 1727:

The voiage and travaile of Sir John Maundeville, Kt. which treateth of the way to Hierusalem and of marvayles of Inde, with other Ilands and countryes, now publish'd entire from an original MS. in the Cotton Library. London, Woodman and Lyon, and C. Davis, 1727.

ثم تلتها طبعة هولندية، نشرها إرڤيه فان دِر پوتِه Erve van der Putte في أمستردام عام 1779:

De wonderlyke Reize van Jan Mandevyl, beschrivende eerst de Reize en Geschiedenigze van den L. Lande van Belosten, te voet, te Paard of ter Zee ende de Gestaltensze, ende Gelegenheid van den zelven Landen... Te Amsterdam, 1779.

وفـي عام 1864، صدرت بلندن طبعة. وتلتها أخرى عام 1883 مع مقدّمة وحواش

وفهـرس، أعدّها ج. هاليويل J. O. Halliwell، وصدرت عن دار نشـر Reeves and Turner. وهي تضمّ رسوماً ونُقيشات محفورة.

وفي عام 1887، صدرت أيضاً بلندن طبعة جديدة محقّقة ومصوّرة بطريقة النّقيشات المحفورة على الخشـب، بعناية جون آشـتون John Ashton، نشرتها دار Pickering and Chatto. ولم يصدر من هذه الطّبعة سوى 100 نسخة.

وفي عام 1888، صدرت طبعة ألمانية جديدة، بعناية آلبرت بوڤنشـن، عن دار نشـر ف. پورميتر في برلين:

Die Quellen für die Reisebeschreiben des Johann von Mandeville... Vorgelegt von Albert Bovenschen, Berlin, W. Pormetter, 1888.

كمـا نُشـرت الرّحلـة في لندن عـام 1848 ضمن مجموعـة: «الرّحـلات الباكرة في فلسطين»، بعناية توماس رايت، ص 282-127:

Thomas Wright *Early Travels in Palestine*, London, 1848.

* * *

أما السّبب في صدور طبعات عديدة للكتاب، وبلغات مختلفة، فهو عدا عن شهرته، أن مؤلفه نفسه كتبه أولاً باللاتينية، ثم قام بترجمته إلى الفرنسية والإنكليزية، كما يقول في كتابه[1]:

«وقـد نقلـتُ هذا الكتاب مـن اللاتينية إلى الفرنسـية، ثـم من هذه إلـى الإنكليزية، ليفهمه كل فرد من بني قومي.. وليتمكن كل سـيّد وفارس وغيرهـم من النّبلاء الذين لا يعرفون إلا القليل من اللاتينية من فهمه. وإذا أوقعني ضعف الذّاكرة في خطأ، استطاع كلّ الذين زاروا البلاد الواقعة وراء البحار أن يصحّحوا ذلك».

شـغلت أسـفار ماندڤيل ورواياته اهتمام معاصريه، ففيها أوصاف لبلاد الشّرق التي

---

(1) راجع رحلته، نشرة توماس رايت بلندن:
Wright, T.: *Early Travels in Palestine*, p. 129.

زارها: سوريا ومصر والعراق وفلسطين. هذا رغم أن الأساطير التي يحويها الكتاب، وأصناف البشر العجيبة التي يزعم أنه رآها ليس لها وجود. وبرغم ذلك، فثمّة من الباحثين من يحاول تقرير مسألتين هامتين حوله[1]:

الأولى: أن ماندڤيل وصل الشّرق العربي بالفعل في سياحاته، ووصف سوريا ومصر وجزءاً من العراق، وَصْف من رأى وسمع، لا كمن ينقل. وقد لاحظ توماس رايت أن المؤلّف كان بمصر حقاً سنة 1341 م (742 هـ)، بدليل ذكره السُّلطان الأشرف (الصغير)، أي علاء الدّين كُجُك ابن النّاصر محمّد[2]. وهذا هو التاريخ الوحيد الذي يدلّنا على أي شيء صحيح عن جون ماندڤيل.

والثانية: أنه نقل عن مصادر مختلفة أخباراً وقصصاً متنوعة حشاها بكتابه. فقد أخذ عن ڤلهلم فون بُولدنزيلِه، والأمير هَيْتون الأرمني، وعن غِيّوم آدم[3] Guillaume Adam، وعن أوديريكو دا پوردينونِه[4]، وعن جُوڤانّي كارپيني Giovanni Carpini، وپْلينيوس Plinius وسُولّينوس[5] Sollinus.

ولذا، فإن أستاذنا د. نقولا زيادة في كتابه «روّاد الشّرق العربي»، يُعلن باطمئنان أننا نستطيع أن نعتمد الصّور التي أعطانا إياها عن مشرقنا العربي إلى درجة كبيرة! وأن نضمّ المؤلف إلى زُمرة الدُّعاة الذين حاولوا إيقاظ أوروپا لإعداد حملة صليبية جديدة لاسترجاع الأرض المقدّسة.

---

(1) راجع كتاب زيادة: روّاد الشّرق العربي، طبعة القاهرة 1943، ص 107.

(2) غير أن هناك شبهة في ذلك، والمرجّح أن ماندڤيل زار مصر في زمن الملك المظفّر حاجي 1346-1347 م / 747-748 هـ، بدليل ذكره: Melechmadabron الذي كان سلطاناً عندما غادرتُ هذه البلاد. والتسمية هذه تدلّ غالباً على المظفّر لا الأشرف.

(3) راجع كتاب الحروب الصّليبية لعزيز سوريال عطيّة: Atiya: *Crusades*, p. 162.

(4) الظاهر أن أخبار الهند وما إليها أخذها عن الرّاهب أوديريكو (ذكرناه فيما تقدّم)، ثم حشاها بالقصص المختلفة. راجع رحلات أوديريكو في طبعة Everyman's.

(5) يرى الباحث نيوتون أنه أخذ عن المؤرخين الرّومانيين پلينيوس وسولّينوس، عبر أعمال الأسقف الفرنسي ڤنسان دي بوڤيه Vincent de Beauvais. انظر:
Newton, P.: *Travels and Travellers in the Middle Ages*, London 1926, p. 160.

يبدأ ماندڤيل كتابه بذكر الطّريق من الغرب إلى القسطنطينية، مارّاً بألمانيا وهنغاريا وبلغاريا، ثم ينقلنا إلى القدس بطريقين: البرّي، مخترقاً آسيا الصّغرى مارّاً بنيقية. والبحري، ومراكزه رودُس وقبرص إلى صُور. ثم يتناول الطّرق المُوصلة من سوريا إلى مصر، ويحدّثنا عن المدن المصرية وعادات السّكّان وأخلاقهم، وقوّة المماليك الحربية[1].

وفي كتاب رحلات جون ماندڤيل وصفٌ ممتع لدمشق، التي زارها - كما يقول - أثناء حكم دولة المماليك البحرية، كما يبدو بأواخر بأيام السُّلطان النّاصر محمّد ابن قلاوون (1294-1341 م)، أو ربما بُعيده بقليل؟ وكانت دمشق تمرّ بأزهى عهودها خلال حكم نائب الشّام سيف الدّين تِنكِز[2]، فصارت في عهده من بعد القاهرة أرقى مدن الشّرق وأبهاها.

* * *

هذا ولم يُترجم من رحلات ماندڤيل إلى العربية أيّ شيء. ولقد رجعنا في ترجمتنا ودراستنا للنصّ إلى طبعة آرثر لايارد Arthur Layard الصّادرة عن دار نشر آپلتون Appleton بنيويورك عام 1901، وراجعتُها على طبعة رايت المذكورة أعلاه والصّادرة بلندن عام 1848، وطبعة جون آشتون John Ashton الصّادرة عن دار پيكرينغ أند چاتو Pickering & Chatto بلندن عام 1887، وطبعة داڤيد پرايس David Price الصّادرة عن دار مكميلان Mcmillan في نيويورك عام 1900.

ومؤخراً ظفرتُ في المكتبة الباڤاريّة الحكوميّة في ميونيخ بألمانيا Bayerische Staatsbibliothek بالرّجوع إلى نسخة نفيسة من الكتاب مزوّقة بنُقيشات بديعة منفذة على الخشب، وقد صدرت باللغة الألمانيّة مترجمة عن الفرنسيّة بقلم ميشيل ڤيلسر Michel Velser وطبعت بمدينة آوغسبورغ Augsburg عام 1481 م، وهي نادرة للغاية.

---

(1) راجع رحلته، نشرة رايت بلندن:
Wright, T.: *Early Travels in Palestine*, p. 144.

(2) اختتم عهده بإعدامه عام 740 هـ / 1340 م. ومن أجل المقارنة، راجع نصوص الرّحالين العربيين المعاصرين: ابن فضل الله العمري وابن بطّوطة الطّنجي.

في الختام، أشير إلى أنّ الانطباع الإجمالي الذي يخرج به القارئ هو أنّ ماندڤيل قد جمع في كتابه بين ثلاثة أمور: الأول السّفر بنفسه وكونه في بعض فصوله شاهد عيان، والثاني نقله عن مؤلفاته غيره من الرّحّالين الأوروپيين، والثالث جنوحه إلى تلفيق بعض الرّوايات الغريبة والمثيرة ليشدّ خيال القارئ. ويبدو الأمر الأول جليّاً عند ذكره لسلاطين مصر من المماليك، وخانات التّتار في غربي الصّين، وروايته حول حشيشيّة قلعة ألموت دون أن يسمّيها.

وستكون لنا عودة أكيدة إلى هذا الرّحّالة المهم والمثير للجدل، خاصة عندما نتناول رحلة رائدنا العربي الكبير أحمد بن فضلان إلى بلاد التّرك والخزر والرّوس والصّقالبة في عام 922 م، وكذلك لدى تقديم رحلات معاصر ماندڤيل الرّحّالة البندقي الكبير ماركو پولو في كتابه «المليون»، الذي أنجز ترجمته صديقي الباحث منذر نزهة عن أوسع طبعاته الإيطاليّة القديمة.

كان البحث في الكتاب صعباً، وضبط عباراته العتيقة وتسمياته الغريبة عملاً شاقاً أشبه ما يكون بالتّرحال مع المؤلف في مجاهله الوعرة. لكنني أعتقد أن الحصيلة تفي بالمطلوب إلى حدّ كافٍ، وقد بذلتُ ما أمكن من الجهد لتبيان غوامض النصّ في الحواشي.

والحمد لله على ما وفّق وأعان.

جبيل، *1* ديسمبر *2011*

د. أحمد إيبش

* * *

المصادر:

خبايا الزّوايا من تاريخ صيدنايا، حبيب زيّات، 35، 62، 88.

روّاد الشّرق العربي، د. نقولا زيادة، 106-107.

Sir John Mandeville: *Voyages and Travels,* edited by Arthur Layard, D. Appleton & Co., New York 1901.

The Voiage and Travayle of Sir John Maundeville, Knight, edited, annotated and illustrated by John Ashton, Pickering & Chatto, London 1887.

Encyclopaedia Britannica, (Micropaedia), vol. VI, p. 559.

Grand Larousse Encyclopédique, tome 7.

Waters Bennett, Josephine: *The Rediscovery of Sir John Mandeville*.

Weber, S.H.: *Voyages and Travels in the Near East, etc.*, p. 19.

Wright, Thomas: *Early Travels in Palestine*, p. 190.

* * *

نقاط حول الترجمة

عند ترجمة الحروف والأسماء الأجنبيّة، يواجه القارئُ العربي دوماً خللاً كبيراً لم تتمكن مجامعنا اللغويّة من حسمه إلى اليوم. لكن بما أنّ هذا الأمر يحتاج إلى بحث مستفيض، أقتصر هنا على ذكر ثلاث نقاط:

1- بخصوص حرف الجرّ الفرنسي de أو du لا أتّبع أبداً طريقة مثقفينا بلبنان بتعريبه: دو، ولا طريقة مثقفينا بمصر بتعريبه: دي. إنما الأفضل برأيي اتّباع طريقة اللغة التركيّة العثمانيّة القديمة: (دى) بالمطلق. هذا في الأسماء الفرنسيّة، أمّا في الأسماء الإيطاليّة والإسپانيّة فأتركه: دي.

2- الحرف (چ) يُلفظ: تش، كما في اسم: چركس، لاچين، سلچوق. وهو ليس بحرف عربي، ويماثله في الإنكليزيّة ch كقولك: chuck, church. وأيضاً ch في الإسپانيّة كقولك: chica, leche, mucho. وكذلك يماثله في الإيطاليّة حرف c المتبوع بحرفي العلة e أو i كقولك: Cesare, ciao, macinare. ويماثله في التركيّة حرف ç كقولك: çay, çok, çınar. لكن مع أنني أكتب بعض الأسماء الإنكليزيّة: چِستر، چِقرون، بحرف (چ) فثمّة أسماء تستعصي لشهرتها بصيغة (تش)، مثلاً: تشارلز، تشرشل، تشيلي. وحرف (چ) ما زال يستخدم في العراق، كقولك: أحبّچ، شلونچ، پاچة. لكنه يُستخدم في مصر بشكل مغلوط جداً (فيكتبون: چورچ) لترجمة الجيم المُعطشة المرقّقة، التي يُعبّر عنها في التركيّة العثمانيّة والفارسيّة والأورديّة بحرف: ژ، ويماثلها في الفرنسيّة والپرتغاليّة j والإنكليزيّة zh والرّوسيّة ж والپولونيّة ż.

3- أمّـا عقـدة الترجمة الكبرى فهي حـرف G الذي أعجز مجامعنا اللغويّة، فاسـم Google يُكتـب بمصـر: جوجـل، وفـي الشّـام: غوغـل، وفـي العراق: گـوگل، وفي السّـعوديّة: قوقل، وفي المغرب بكاف موسـومة بثلاث نقاط، وفي تونس: ڨوڨل، وفي فلسـطين: چوچـل، ويعرّبون لوحات الطـرق: چلعاد، چدعون، چَـدُول، رامات چان (علمـاً أن גן هـي ذاتها جَنّة بالعربيّة أي حديقة). المجموع: 7 طرق لكتابة الحرف G! ومنذ مدّة قرأتُ على شـبكة الإنترنت نزاعاً طريفاً حول كتابة اسـم Lady Gaga: أهي ليدي غاغا أم جاجا أم قاقا؟

هذا الحرف تصنّفه اللسـانيّات العربيّة باسـم (الجيم اللهويّـة) تمييزاً له عن (الجيم الشّـجريّة) المُشبعة، ويقع لفظياً بين الجيم والكاف والقاف. وعلى الرّغم من أنّ أصله في لهجات العربيّة القديمة جيم (وبقي بلفظه في اليَمَن ومصر) فأرى الأجدى والأدق في الوقت الحاضر اتّباع أسـلوب أجدادنا العرب في الأندلس بترجمته غيناً، كمبدئهم في تعريب أسماء: غرناطة، البرتغال، بُرغُش، أراغون. لكن على أن نَسِمَه بثلاث نقاط: ڠ تمييزاً له عن الغين العربيّة.

لكن مع ذلك، علينا أن نبتدع لهذه الأزمة حرفاً جديداً لا يلتبس: جيم موسومة برمز مميّز: ولتكن جيماً كنعانيّة أو بقلم المُسند العربي الجنوبي، تحتها أو فوقها على طريقة حـروف لغـة الأُردو. لكن متى ترانا نفعل؟! الواقع أنّ الفرنسـيين كانـوا أكثر حذقاً منا عندما حلّوا مشكلة لفظ حرف G بين جيم شجرية وجيم لهويّة، بأن أضافوا إليه ببساطة حرف u كقولهم: guérir (ڠيرير) أو كما في اسـم: Guillaume (ڠيّوم). وكذلك حلّ الطليان المشـكلة بإضافـة حرف h كقولهـم: Ghibellini (ڠيبيلّينـي). وهذا طبعاً في الأسـماء التـي يتبـع الحرف G بها حرفـا العلّـة e أو i، أما عندما يتبعه حرف سـاكن أو حرفا العلّة a أو o فلا مشكلة، ويُلفظ جيماً لهويّة. والأمر ذاته مع حرف C في الإيطاليّة فأضافوا إليه h حتى لا يُلفظ (تش)، كقولهم: chiaro (كيارو)، Chievo (كييڤو).

وأمّا الأتراك، فأيضاً حلّوا الأزمة بشـكل حاسـم قديماً وحديثاً: فبالعثمانيّة القديمة تُكتـب الجيم الشـجريّة كالعربيّـة ج، وأمّا اللهويّة فاسـتعاروها من الفارسـيّة گـ. وفي

التركيّـة الحديثة بالأبجديّة اللاتينيّة جاء الحل بشـكل سـهل وذكـي، فخصصوا حرف g للجيـم اللهويّة، كقولهـم: gerçek (غِرچك)، وحرف c للجيم الشـجريّة، كقولهم: geceler (غِجِلار)، Avcı (آوجي)، Cem (جم).

أمّـا الألمان فقد ارتاحوا من عناء هذه المشـكلة، إذ ليس لديهم جيم شـجريّة أصلاً بل لهويّة فحسـب، كما في: Gewehr (غيڤير)، وإن أرادوا رسم الأسماء الأجنبيّة لقوا فـي ذلك التباريـح، كقولهم في نقل عبارة «جبل» العربيّـة: Dschebel حيث أن حرف J (يوت) هنا لن يفيد، فهو يُلفظ ياءً بالمُطلق. وأمّا لدى الإسـپان، فحرف G له أحكام واسـعة يطول شـرحها، فالأصل في القشـتاليّة أن يُلفظ جيماً لهوية (غ)، وفي حالات معيّنـة يلفظ خاءً، ومن الناحية الصّوتيّة اللفظيّة ثمّة مناطق تلفظه غيناً لهويّة، وسـمعتُ بأذني في غرناطة مَن يلفظ اسم Aragon هكذا: «آراغون»، وليس آراخون.

* * *

أمـا التعبيـر في العربيّـة عن حرف الجيـم اللهوي بكتابتـه جيماً (كما فـي مصر) أو بقاف (كما في السّعوديّة) فيمكن حسم بُطلانه بلحظة واحدة: احتكِموا إلى لغة القرآن الكريم، ففيها الجيم حرف شـجري مُشـبع لا يحتمل تأويلاً ولا تفسيراً، والقاف حرف لهـوي مُشـبع، وكلاهما من حروف القلقلة. وبالطبع حتـى في مصر لا يمكن لأحد أن يكتـب: جرناطة، البرتجال، بلجاريـا، مجنطيس.. أم هل نسـمّى البُرغُل مثلاً: بُرجُل؟ (وهي كلمة معرّبة عن التركيّة bulgur).

وللبحث صلة..

* * *

Voyages and Travels

By

Sir John Mandeville

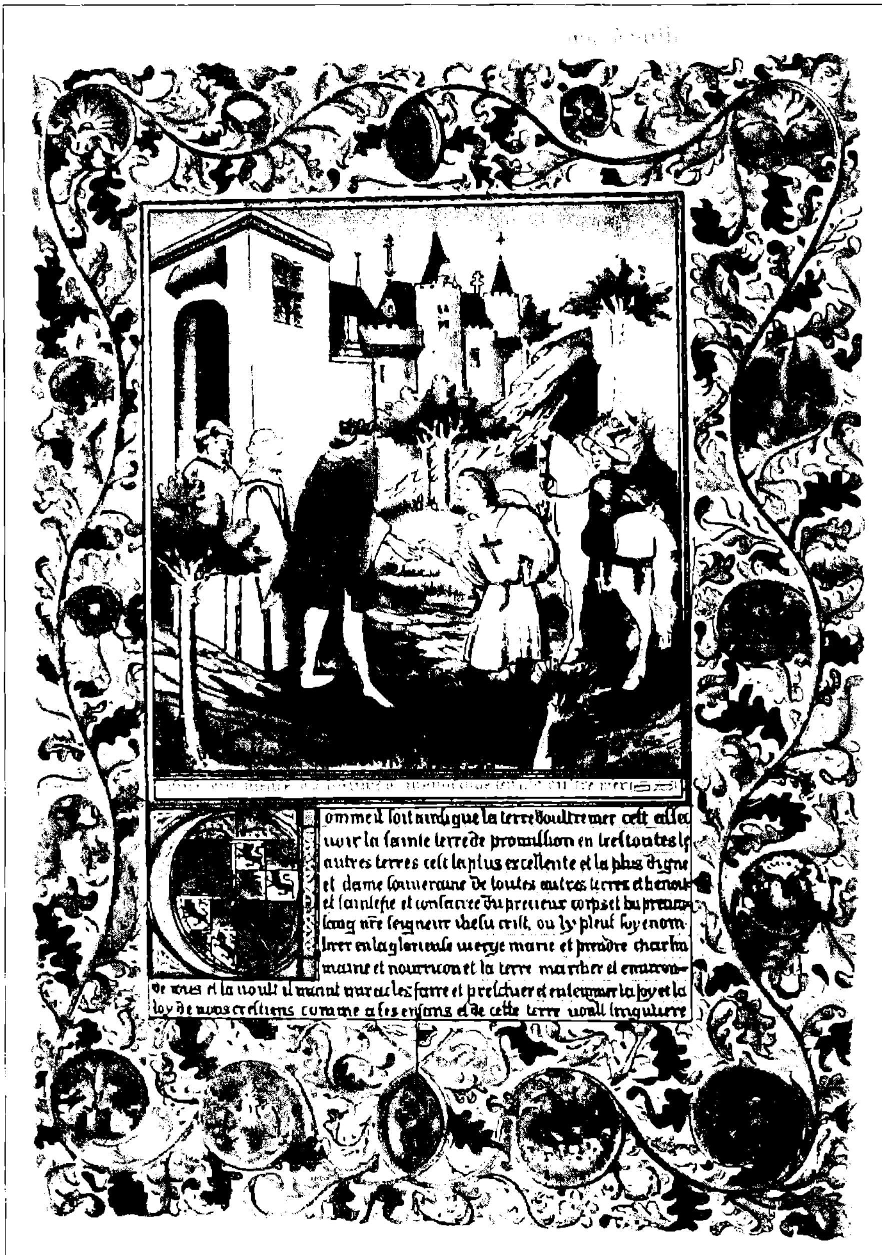
Edited by Arthur Layard

With a Critical and Biographical Introduction
by Jacques W. Redway

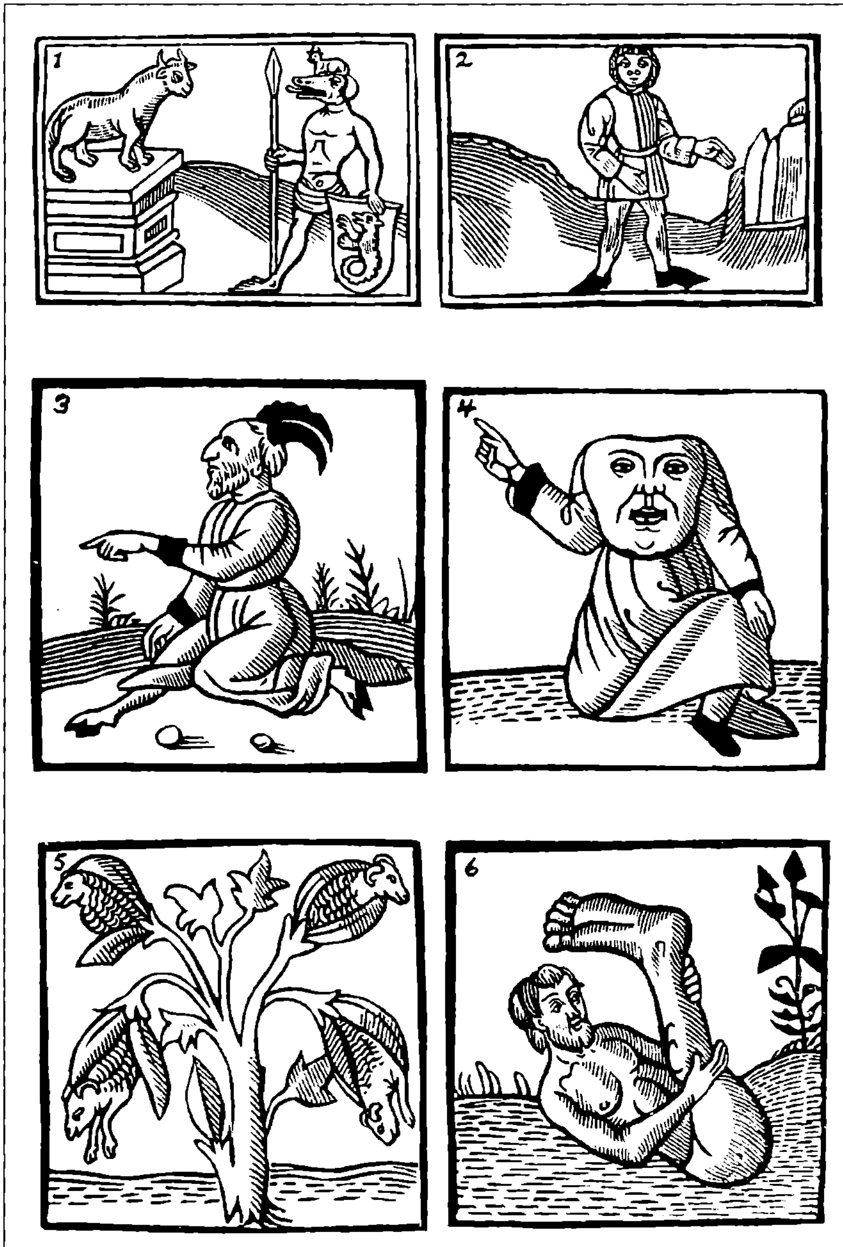
Illustrated

New York
D. Appleton and Company
1901

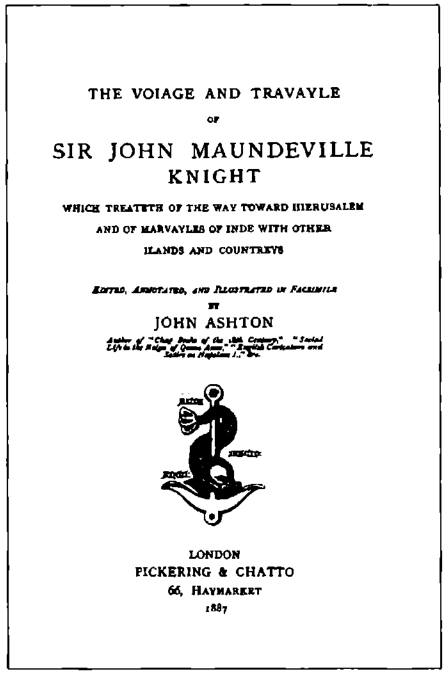
عنوان طبعة آبلتون، نيويورك 1901



رسم افتتاحيّة طبعة آپلتون، نيويورك 1901



بعض رسوم الكتاب من طبعة آبلتون، نيويورك 1901


THE VOIAGE AND TRAVAYLE

OF

SIR JOHN MAUNDEVILLE

KNIGHT

WHICH TREATETH OF THE WAY TOWARD HIERUSALEM

AND OF MARVAYLES OF INDE WITH OTHER

ILANDS AND COUNTREYS

Edited, Annotated, and Illustrated in Facsimile

BY

JOHN ASHTON

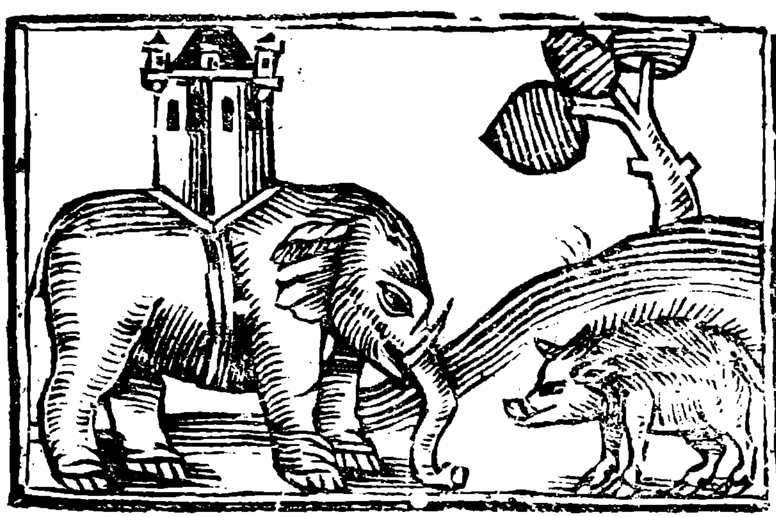
LONDON

PICKERING & CHATTO

66, HAYMARKET

1887

عنوان طبعة جون آشتون الصّادرة بلندن 1887



بعض رسوم طبعة جون آشتون



رسم يبيّن صناعة الزّجاج قديماً من طبعة فرنسيّة للرحلة، ليون 1508



الرّحالة السّير جون ماندڤيل، رسم مؤرخ عام 1459 م



رسم من مخطوط لرحلات ماندفيل يعود إلى القرن الرابع عشر

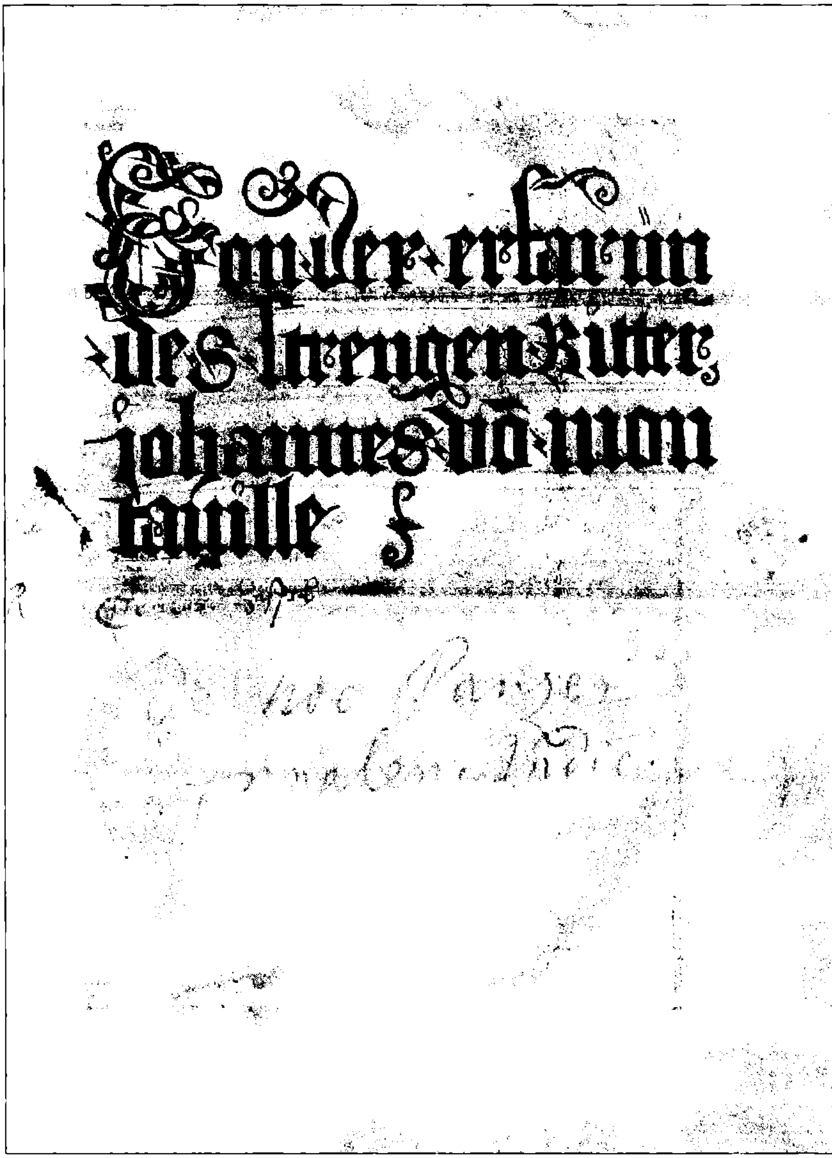


خارطة قديمة تبيّن حدود مملكة الملك الأسطوري يوحنّا الكاهن

(بريستر جون)، رسمها ماركيتّي Marchetti عام 1598 م



انطلاقة ماندفيل في رحلته، مخطوطة بالمتحف البريطاني رقم 24189



Von der erfarũg des strengen Ritters johannes võ montauille

نموذج من طبعة ألمانيّة نفيسة بمدينة آوغسبورغ عام 1481 م

¶ Hie hebt sich an das büch des ritters
herr hannsen von monte villa.

Ich Johanns von monte villa
ritter geboren in Engellantt in
einer statt heyßt sannt Alban.
Für auß über mör do man zalt
von Cristi geputt tausent drew
hundert vnd zweyundzweyn-
tzig jar an sant Michels abent
Vnd darnach pin ich gewesen
über mör manig jar vnnd zeyt
vnd pin vmbgefaren vñ hab gesehen manig wunder
lich inseln. vñ manig wunderlich stat vñ künigreich.
vnnd pin gefaren durch türggen durch armenia das
groß vnd das klein.durch tartari.durch persia.durch
syria durch arabia oben vñ vnden.durch libia.durch
candia.durch ethiopia.das ist der moren land.durch
amasones daz ist d frawen land.durch kriechē.durch
jnndia das groß vnd das klein.durch manig insel do
manig wunderlich volck jnn wonet vñ manigē wun
derlichen gelaubē habent als jr hernach werdent hörē
Vnd von den lewten vnd inseln wil ich sagen wie sye
gestalt seind nach dem als mir czewissen ist getan vnd
ich von jnen vernōmen vnd gesehen hab. vnd das wil
ich thün von der wegen die do habent müt die lanndt
zü versüchen vnd besunderlichen Jherusalem vnd die
heyligen stet die dar vmbligen. vnd wil in sagen wel
lich weg sy ziehen söllen wan ich die fart oft versücht
hab mit manigem güten gesellen des ich got danck/vñ
hab das büch in frantzosischer sprach gemacht/darūb
das nit yederman teütsch redet noch yederman latein
verstat. Vnnd ob etliche ding yetz vālent die ich hie
sag darūb das sich nach langer zeit vil ding verkerent
die vor langer zeit gewesen seind. Bit ich die leüt das
sy das gerecht machen/ wān einer alle ding nicht als

نموذج من طبعة ألمانية نفيسة بمدينة آوغسبورغ عام 1481 م



نموذج من طبعة ألمانية نفيسة بمدينة آوغسبورغ عام 1481 م

altar/wann die selb stat was vormals der cristen dye
habend die türcken yetz jnn vnd das gantz Asia ·vnd
dauon ist wol halbes asia türcken genannt· Wissendt
auch dz sant Johannes d ewangelist machet sein grab
bey lebendigem leib vñ gieng lebendiger darein/dauon
maint man das er noch nit tod sey vnnd beleib piß an
den jungsten tag/vnd man sicht das erdtreich ob seinē
grab zittern als ob sich etwas lebendigs darīn rür ·da
uon sich manig mensch wüdert dz es gesehen hat Dar
nach vert man von ephesi durch manig insel/so komt
man dann zů einer stat die heyst patras/do ward sant
Niclaus geborē. darnach kompt man zů einer stat die
heyßt mirea· do ward er zů einē bischoff erwelt· Vnd
die selben stat wechst als gůt wein als man in vinden
mag/vnnd den hayssent sy mach wein· Von der selben
stat kompt man in libia vñ komt zů einer stat die heis
set Tholas vnd eine heißt langedes/do was ypocras
herre jnn·

¶ Von einer junckfrawen die wirt zů einē schlangen·



¶ Man spricht daz in d insel langedes sey noch ypocras tocht in eines grossen tracken weyß d ist wol ·xl· klaffter lanng· als man do saget. ich hab in aber nit gesehen/ vñ die in d insel seind die sprechent sy sey fraw uber das selb land/vñ ist in einer alten purg vñ erzaigt sich zweymal od dreymale in de jar· vñ thůt niemand kein laid· Vñ man sprichtt das ein apgöttin die hieß Dyana hab sy dahin verflůcht

نموذج من طبعة ألمانية نفيسة بمدينة آوغسبورغ عام 1481 م

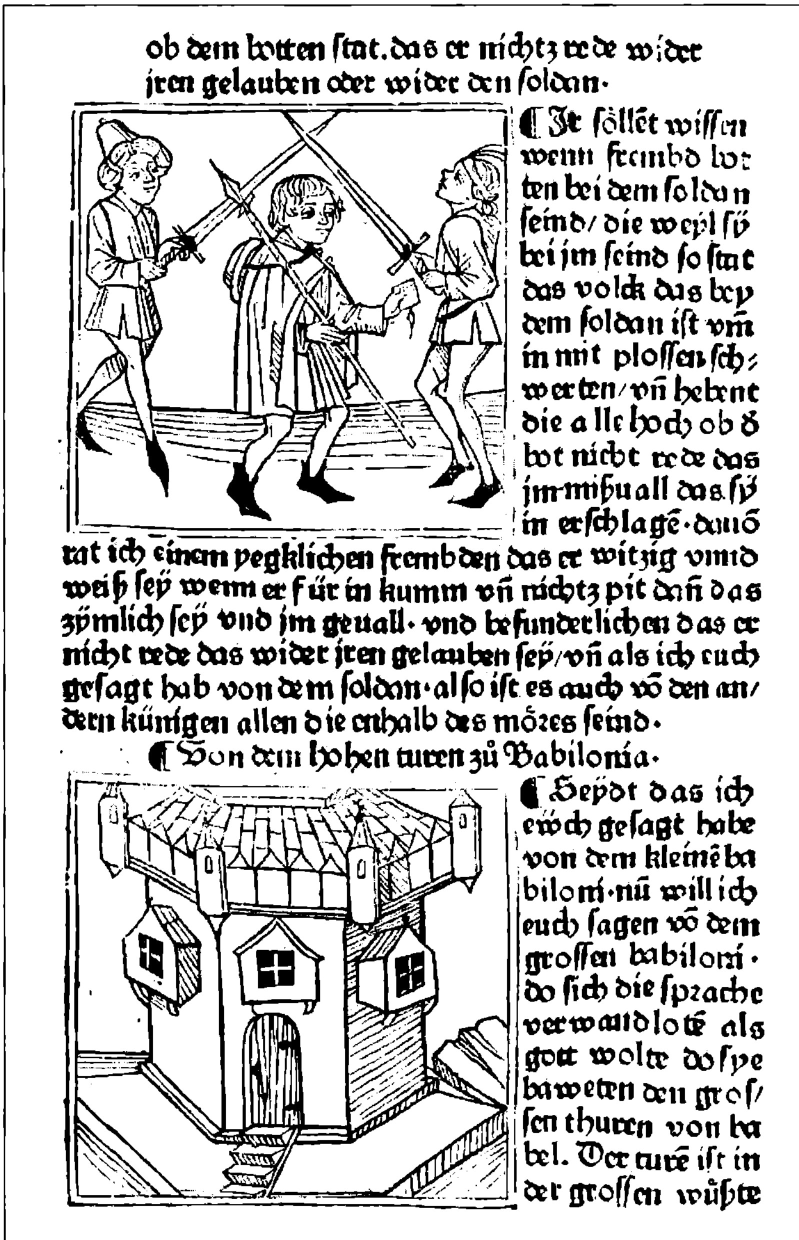
Wie der ſoldan gebeüt in allem ſeinē land das
man all junckfrawen für in müß pringen vnd
auß den ſelbē erwelt er eine vñ gibt jr dē ring



Jr ſölt wiſſen dz
der ſoldan hat vier
weib ein criſtin vñ
dreÿ heÿdnin.vnd
eine wonet zů Jhe
ruſalem· vnd eine
zů damaſcg·allſo
dz ſy nit beÿ einan
der ſeind·vñ wenn
er wil ſo vert er zů
jnen·aber kebswei
ber vnd zůweiber
hatte er als vil er
wil.wann er gebeüttet durch ſeine land das all junck-
frawen für in müſſen kommen edel vnd vnedel·vnnd
welliche jm dann geuelt die heÿſt er jm dann behalten
vnd jr wol hütten in groſſen eren· vnd wenn er eÿne
wil haben do er beÿ wil ſchlaffen·ſo heiſt er ſÿ all kom
men für in vnd beſchauet ſÿ/vnd welliche jm dañ ge-
uelt der würfft er ein fingerlin dar von ſeiner handt/ſo
fürt man ſÿ bald in ſein kamer vnd do badet man ſÿe
vnd legt jr koſpere kleÿder an.Vnd als offt der ſoldan
ſeiner ſchlafweiber eine wil haben der thůt er alſo als
ich ÿetz geſagt hab.Für den ſoldan getar nÿemant kō
men er hab dann koſpere kleider von ſammat vō gold
vnnd ſeÿden oder in ſöllicher maß als die heÿden do be
kleÿdet ſeind Vnd als bald ſÿ den ſoldan ſehent·er ſeÿ
an dem venſter oder wo er iſt ſo knÿen ſÿ gegen jm nÿ
der vnd küſſen die erd/das iſt jr gewonheit·vnnd das
müß ein ÿegklicher thůn der mit jm reden wil·

Hie wil ich ſagen wenn frembd boten kōmen
zů dē ſoldan wie man mit ploſſen ſchwerten

نموذج من طبعة ألمانيّة نفيسة بمدينة آوغسبورغ عام 1481 م



ob dem botten stat. das er nichtz rede wider
jren gelauben oder wider den soldan.

Jr söllet wissen wenn frembd boten bei dem soldan seind/ die weyl sy bei im seind so stat das volck das bey dem soldan ist vñ in mit plossen schwerten/ vñ hebent die alle hoch ob d bot nicht rede das im mißuall das sy in erschlagen. darumb rat ich einem yegklichen frembden das er witzig vnnd weiß sey wenn er für in kumm vñ nichtz pit dann das zymlich sey vnd im geuall. vnd besunderlichen das er nicht rede das wider jren gelauben sey/ vñ als ich euch gesagt hab von dem soldan. also ist es auch võ den andern künigen allen die enhalb des mores seind.

Von dem hohen turen zů Babilonia.

Seydt das ich ewch gesagt habe von dem kleinẽ babiloni. nũ will ich euch sagen võ dem grossen babiloni. do sich die sprache verwandlotẽ als gott wolte do sye baweten den grossen thuren von babel. Der turẽ ist in der grossen wůste

نموذج من طبعة ألمانية نفيسة بمدينة آوغسبورغ عام 1481 م

dann gen kriechen an ein port die heyßt voloneo oder
an ein port gen duras in die stat/vñ darnach gen Con
stantinopel vnd gen rodis· vñ durch ein insel die heiß-
set Creto vnd gen cippern· vñ also vert man auch von
venedig gen Constantinopel· Der aller rechtest võ ve-
nedig gen Constantinopel wil faren über möre so hat
er tausent achthundert vñ achtzig lampartischer meil
Von Constantinopel gen rodis ist hundert vnd dreis
sig meil· Von rodis gen cippern ist fünffhundert meyl
vnd von cippern vert man denn über mör vnd laßt ihe
rusalem auff die glincken handt vnd vert in Egipten
vnd man kompt dann zů einer stat die heyßt dameth
do wachsent gar starck wein· vnnd ist die erst statt so
man in Egipten vert. Von dameth so vert man dann
gen allexandria vnd die stat ligt auff dem möre·

¶ Hie ist sant Katherina enthauptet worden.



¶ Zů Alexandria
do ward sant Ka
therinen jr haupt
abgeschlagen · vñ
sannt Marcus der
ewägelist d ward
gemartert vnd be-
grabē/seyn gebain
pracht ein keyser
über möre gen ve-
nedige · Sanctus
Marcus hat zů al-
lexandria eyn gar
schöne kirchen vnd die ist alle weyß vnd kein gemäl
darjnnen· als die kirchen all in der heydenschafft seind
wān sy lassend kein hystori in kein kirchen nit malen
Die stat zů allexandria ist on massen groß vnd langk
aber sy ist nit vast weyt/vñ do selben velt das wasser
nilus in dz mör· auch heyßt man das selb wasser gyon

نموذج من طبعة ألمانية نفيسة بمدينة آوغسبورغ عام 1481 م

darjnn faren. darumb heyst man es das rot möre· vnd
das möre stosset an arabia. Vnd von der stat die do heis
set Palestin mag man faren auff dem selben möre wol
vierhundert tagwaid. vnnd wenn man über das selbe
möre kompt das ist nit prait als ich ewch vor gesagt
hab So geet man durch die wüst biß an das tal helim
vnd dann auff den berg synai. Ir sölt wissen das nye-
mant mag gereyten durch die wüst mit pferdē. wann
die pferd vinden nichtz zů trinken noch zů essen vnnd
dauon mag man nit anders kummen durch die wüst
syna denn mit kemeltieren wann sy essend die rinden
von den bäumen vnd beleiben wol zwen tag oder drey
vntrunken das mag kein roß nit gethůn·

¶ Sant Katherinen grab·



¶ Ir sölt wissen das von Babiloni vntz auff den berg synai seind zwelff tagwaid vnnd ist not das sich eyner bewar mit speyse· Den berg Synai heyssen sy die wüste von syna Sina ist als vil gesprochen als eyn prinnender berg· dauō das vnser herr Moysi auff dem selbigen berg in eynem prinnenden pusch erschyne vnnd auch mit jm redete· Ir sölt auch wissen dz vnden an dem berg ist ein aptey do seind münich jnn die seind gar vest vñ tragent all waffen von der wilden tier wegen wann der ist gar vil do· vñ die selben münich seind von arabia oder võ kriechen vnd das ist ein grosser Conuent vnd seind als ob sy einsidel seyen· vnd trinckent nymer kein wein dann

نموذج من طبعة ألمانية نفيسة بمدينة آوغسبورغ عام 1481 م

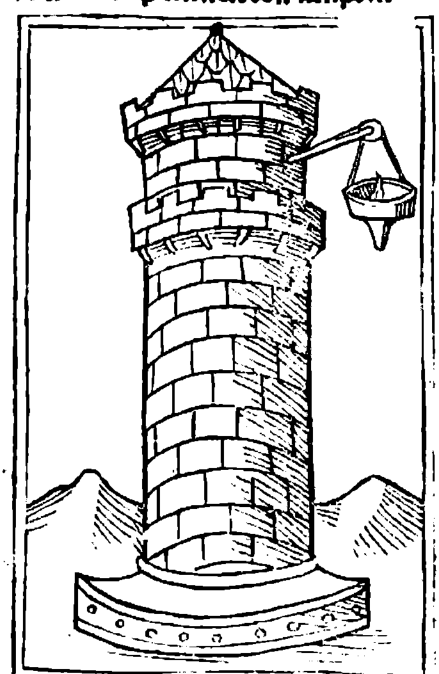


¶ Darnach so zey
get er das haupte
von sant Katheri-
nen · vnd das tůch
das vmb sÿ ge wũ
den ward do jr daz
haupte warde ab-
geschlagen vñ das
ist aller ding plůt-
tig/vnd in dem sel-
ben trůgen sye die
engel auff den berg
synai vnd begrůbē
sÿ do · Darnach so zeÿget man den pusch der do prane
do got mit moysi redt vnnd auch ander heyltumb · Jr
sölt wissen ein ander wunder als manger münch in dē
kloster ist als mange ampel ist do · vnd hat yeglicher
münich ein besundere ampel · vnnd darbeÿ mügent sye
wissen wenn sÿ sterben söllen · wenn einer söl sterben so
vacht sein ampel an vinster ze werden/vñ wenn er stir
bet so erlischt sÿ gar · vñ wenn der apt do stirbt als ich
vernommē hab · wer das ampt do singet oder list nach
dem als er das ampt volpracht hat. so vindt er ein ge
schriben zedel auff dem altar · vnd in dem selben zedel so
vindt er geschriben des namen der do Apt vnder jnen
söll sein. vnd des selbē ampel entzündet sich selb võ den
genaden gots · vnd des geleichen einem yeglichen der
an ein ampt erwölt wirt · ist er des ampts wirdig so
entzündet sich die ampel selb. Jr sölt wissen das ich die
münch darūb fraget ob es also wär do woltē sy mirs
nit verjehen biß dz ich im für håb vnsers herrn zeügk-
nuß wär wunderlich vñ manger leÿ · Als in dē psalter
stat · Mirabilia testimonia tua domine · vñ do sprachē
sy es wär geschehen · kein and̄ antwurt mocht ich võ
jnen gehaben · Vnnd in der selben apteÿ so mag weder

نموذج من طبعة ألمانية نفيسة بمدينة آوغسبورغ عام 1481 م

Iherusalem vndertänig gewesen · vnd das ist der vol-
ckes schuld die do waren vnd noch do seind · Es ist ge
wesen der juden vnnd der von chanaan. der von persia
der von syria · der von meden. der von bethania · der von
kriechen · der römer der cristen. der heyden. der barbari
en vñ vil volcks dz got nit wil dz sy lang herren do sey
en von jr sünd wegē · Nun haben laider die vngelaubi
gen iherusalem jnn gehebt mer deñ hundert vñ zwein-
tzig jar · ich getraw aber got das sy es nit beheben ·

¶ Hie wil ich sagen von dem heyligen grab
wie es gestalt sey. vñ von etlichen zeichen
vñ wie das heylig grab gemacht sey. vñ
von einer prinnenden ampeln ·



¶ Item wer in pilge
rins weiß komt gen
iherusalē der gert vō
ersten zů dem heyligē
grab dz ist vor d' statt
zwischen orient vnd
occident auff die glin
ckē hand vñ ist schön
vmb mauret vnd ist
ein schöne simbele kir
ch vnnd ist mit pley
gedeckt vnd hat star
ck türen do man wol
glocken eyn möchte
hencken · in der selben
kirchen ist das heylig
grab · in der mitte do
ist ein tabernackel vñ
der ist nit weit vnnd
gar adenlich gmacht
mit silber vnd mit gold vnnd mit edlem gestein vnnd
lasur schon gemalet · Der tabernackel der ist eylff füß

نموذج من طبعة ألمانية نفيسة بمدينة آوغسبورغ عام 1481 م

auch vil des geschlechts zabulon vnd neptalim.dreis/
sig leg von saphat da ist ein stat die heyst cedan .etlich
die heyssent sy selm an vñ lygt vnder dem berg libano
vñ do selbs hebt sich an dz globt land vñ weret nach
der leng biß gen japha bersabe vnnd ÿst hundert vnnd
neüntzig leg lang nach der prait von jericho byß gen
japha das ist xl.leg prait ein leg ist ei wälsche meil .dz
heylig land heyst die geschrifft terra promissionis vñ
das ist in dem künigreich von syria das wert von der
wüste von arabia vncz biß gen tiberia vnnd stoßt an
das groß armenia vñ an dz grösser möre.Das künig
reich von syria das hatt vyl künigreich vnder jm .es
hatt palestin·galilea vnd iudea vnd andere land einē
grossen teyl

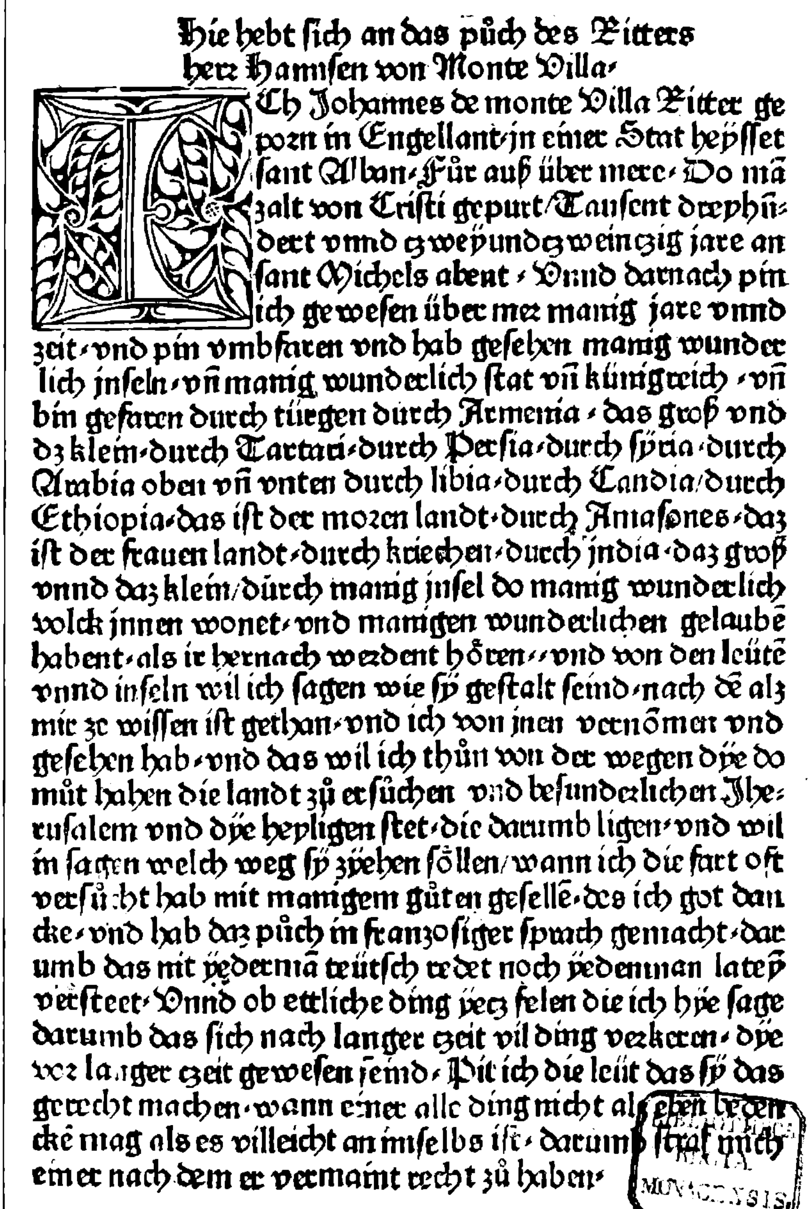
¶ In dem land ist gewonheyt dz man taubē schick
et mit prieffen in botes weiß in verre land



¶ In dem land als ich yecz gesagt hab so yst gewonheyte wann sy bald bottschaft wöllent haben so habē sy tauben die seind gewenet vnd seind darzü erzogen vnd gefürt. so schreibent sy dann prief vnd bindent die mit einem faden der taubē an den halß vnd lassent sy fliegē vnd weñ sy dañ dört hinkömpt so man des priefs gewar wirdt so vachet man dann die tauben vnd vernympt die botschafte.

¶ Von der heyden beicht

نموذج من طبعة ألمانية نفيسة بمدينة آوغسبورغ عام 1481 م



Hie hebt sich an das pu̍ch des Ritters
herr Hannsen von Monte Villa.

ICh Johannes de monte Villa Ritter ge
porn in Engellant/jn einer Stat heÿsset
sant Alban. Für auß über mere. Do mā
zalt von Cristi gepurt/Tausent dreyhū-
dert vnnd zweÿundzweinzig jare an
sant Michels abent. Vnnd darnach pin
ich gewesen über mer manig jare vnnd
zeit. vnd pin vmbfaren vnd hab gesehen manig wunder
lich inseln. vñ manig wunderlich stat vñ künigreich. vñ
bin gefaren durch türgen durch Armenia. das groß vnd
dz klein. durch Tartari. durch Persia. durch syria. durch
Arabia oben vñ vnten durch libia. durch Candia/durch
Ethiopia. das ist der moren landt. durch Amasones. daz
ist der frauen landt. durch kriechen. durch india. daz groß
vnnd daz klein/durch manig insel do manig wunderlich
volck innen wonet. vnd manigen wunderlichen gelaubē
habent. als ir hernach werdent hören. vnd von den leütē
vnnd inseln wil ich sagen wie sÿ gestalt seind. nach dē alz
mir ze wissen ist gethan. vnd ich von inen vernōmen vnd
gesehen hab. vnd das wil ich thu̍n von der wegen dÿe do
mu̍t haben die landt zu̍ ersu̍chen vnd besunderlichen Jhe-
rusalem vnd dÿe heyligen stet. die darumb ligen. vnd wil
in sagen welch weg sÿ züehen söllen/wann ich die fart oft
versu̍cht hab mit manigem gu̍ten gesellē. des ich got dan
cke. vnd hab daz pu̍ch in franzosiger sprach gemacht. dar
umb das mit yedermā teütsch redet noch yedenman lateÿ
versteet. Vnnd ob etliche ding yetz felen die ich hÿe sage
darumb das sich nach langer zeit vil ding verkeren. dÿe
vor langer zeit gewesen seind. Bit ich die leüt das sÿ das
gerecht machen. wann einer alle ding nicht als eben beden
ckē mag als es villeicht an im selbs ist. darumb straf mich
einer nach dem er vermaint recht zu̍ haben.

نموذج من طبعة ألمانية نفيسة بمدينة آوغسبورغ عام 1482 م

مقدمة المؤلف[1]

من بين جميع الأراضي ما وراء البحار، لا شك أن الأراضي المقدّسة، التي يسمّيها النّاس أرض الميعاد، وبما يفوق جميع الأراضي الأخرى، هي الأرض الأكثر شأناً وقيمة، وذات السّيادة الرّفيعة بين جميع البلدان، والمباركة والمقدّسة بجسد سيّدنا يسوع المسيح ودمه الثّمينين؛ هذه الأرض التي قُدّر له فيها أن يتجسّد باللحم والدّم من مريم العذراء، ويطأ الأراضي المقدّسة بقدميه المباركتين؛ وهناك قُدّر له ببركته أن يولد من مريم العذراء المجيدة المباركة، وأن يغدو إنساناً، ويفعل العديد من المعجزات، ويعظ ويعلّم الدّين وشريعة المسيحيين لأبنائه، وهناك قُدّر له أن يعاني من الكثير من التجارب والازدراء من أجلنا؛ ومَن كان ملك السّماء، والهواء والأرض والبحر وجميع الأشياء التي توجد ضمنها، سوف يُسمّى فقط ملك تلك الأرض، عندما قال: *Rex sum Judeorum*، أي ما معناه: «أنا ملك اليهود»، وهذه الأرض اختارها قبل كل الأراضي الأخرى، على اعتبارها الأرض الأفضل والأرفع شأناً، وأكثر الأراضي فضلاً في العالم أجمع: ذلك لأنها بمثابة القلب ووسط كل العالم، فتقف شاهدة على مقولة الفيلسوف الذي قال: *Virtus rerum in medio consistit* وهذا يعني: «فضل الأشياء إنما يكمن في وسطها».

وفي تلك الأرض سوف يعيش حياته، ويعاني من العذاب والموت على أيدي اليهود، من أجلنا نحن، لشرائنا وتخليصنا من آلام الجحيم، ومن الموت المخلّد،

(1) قمتُ بترجمة مقدمة ماندڤيل هذه، إذ فات المترجمين تعريبها سهواً. وألفت الانتباه إلى أن ذكره لتاريخ انطلاقه في عام 1322 م يقابله في خاتمة كتابه ذكر تدوينه لأحداث الرّحلة في عام 1356 م، وإن كان لم يذكر تاريخ توقفه عن الترحال.

الـذي كان مقـدّراً علينا، عن خطيئة أبينـا آدم، وعن ذنوبنا نحن أيضا. وأما بالنسـبة إليه هو، فلم يكن لديه أيّ إثم يُذكر، لأنه لم يفكّر بالشّر ولا اقترف شيئاً من الشّر أبداً. وهو الـذي كان ملـك المجد والفرح، قد يكون من الحريّ أن يلاقي الموت في هذا المكان بالذات، لأنه اختار في تلك الأرض وليس في أيّ أرض أخرى، أن يعاني آلامه وموته. وذلـك لأن مَـن يذيع أي شـيء ليجعلـه معروفاً علنـاً، فعليه أن يصيح بـه على رؤوس الأشـهاد في المكان الأوسـط من المدينة؛ بحيث ينتشر الشّـيء المُصرّح به والمُعلن، بشـكل متساوٍ على جميع الجهات. وهكذا فإنّ مَن كان يشغل منصب العالم، قد عانى من أجلنا في القدس، التي هي وسـط العالم، لهـذه الغاية والقصد، وحتى يكون عذابه وموته، اللذان أُعلنا هناك، قد ذاع خبرهما بشكل متساوٍ في جميع أنحاء العالم.

فانظروا الآن، كم كان غالياً الثمن الذي به اشترى الإنسان، الذي صُنع على صورته، وكم كان غالياً الثمن الذي به اشـترانا مرة أخرى، من أجل الحب الكبير الذي يكنّه لنا، ونحن لا نستحقه منه. حيث أنه ليس ثمّة مُلك أغلى ولا فدية أكبر كان يمكن له بذلهما من أجلنا، من جسـده المبارك ودمه الثّمين، وحياته المقدّسـة، اللواتي بذلها من أجلنا، وكلّ ما قدّمه لنا لم يقترف ذنباً ولا خطيئة على الإطلاق.

يا سُبحان الله! يا له من حبّ كان لديه تجاهنا نحن رعاياه، فإنه هو الذي لم يأتِ إثماً قـد بـادر من أجل الخاطئين إلى الموت! ولذا ينبغي لنا أيضا لوجه المحبّة والعبادة، أن نخشى ونعبد مثل هذا الرّب وأنّ نجل ونوقّر مثل هذه الأراضي المقدّسة، التي أنجبت هذه الثّمرة، التي من خلال تم خلاص كل إنسان، ولكن على أن يكون ذلك دأبه. ومن الجديـر أيضـا بتلـك الأرض أن تُدعى أرضاً طيّبـة ومثمرة، وقد جُبلـت وخُضّبت بدم المسـيح الغالـي؛ وهـي الأرض ذاتها التي وعدنـا ربنا بها في العهـد القديم. وفي تلك الأرض سوف يموت الفادي، كما هو مُقدّر، ليتركها لنا نحن أبناءه.

ولهـذا السّـبب ينبغي لكل رجل مسـيحي صالـح، إن كان ذا سـلطة واقتـدار، ولديه موارد، فعليه أن يبذل كلّ قواه لاسترداد تراثنا الحق، وطرد جميع الرّجال غير المؤمنين. وذلك لنكون مسيحيين أحقاء، نسبة إلى أبينا المسيح. وإذا كنا حقاً أبناء المسيح، فعلينا

استرجاع التراث الذي تركه لنا أبونا، وانتزاعه من أيدي الوثنيين. ولكن نوازع الكبرياء، والشهوات، والحسد، تلهب الآن كثيراً قلوب حكّام العالم، لدرجة أنهم أكثر انشغالاً في الطمع بميراث جيرانهم، من بذل الجهود لاسترجاع تراثهم المذكور آنفاً. وعامة النّاس، الذين من شأنهم أن يبذلوا نفوسهم وما يملكون لاسترداد تراثنا، قد لا يفعلون ذلك من دون الحكّام. وإنّ جمعاً من النّاس من غير زعيم أو رئيس حاكم، لهو أشبه بقطيع من الغنم بلا راعٍ؛ وإن انطلق لتفرّق شذر مذر بلا طائل. ولكن إن شاء الله، يبادر الحكّام الزّمنيون والدّنيويون إلى الاتفاق، وبركابهم يمضي عامّة النّاس في هذه الرّحلة المقدّسة عبر البحر! وساعتها فأنا واثق أنه في غضون وقت قصير يتمّ لنا استرداد ميراثنا المذكور، ويوضع في أيدي ورثة المسيح الأحقاء.

وبقدر ما مضى من زمن طويل لم يجرِ فيه عبور عام للبحر ولا رحلة، ولكثرة الرّجال الرّاغبين في الاستماع إلى الحديث عن الأرض المقدّسة، وما فيه من كبير عزاء وراحة للصّدور، فإنني أنا، جون ماندڤيل الفارس، وقد لا أكون جديراً، المولود في إنكلترا، في بلدة سانت ألبانز، قد ركبتُ البحر في سنة 1322 للمسيح، في يوم القدّيس ميخائيل، ومنذ ذلك الحين مضى عليّ وقت طويل في البحر، وقد رأيتُ وعبرتُ بلاداً مختلفةً كثيرة، وعديداً من الأقاليم والممالك والجزر واجتزتُ في جميع أنحاء تركية، وأرمينيا الصّغرى والكبرى، واجتزتُ بلاد التّتار، وفارس، وسوريا، وجزيرة العرب، ومصر العليا والدّنيا، وعبر ليبيا وبلاد الكلدان، وجزءاً كبيراً من أمازونيا والهند الصّغرى والكبرى، بأجزاء كبيرة منها، وعبر العديد من الجزر حول الهند؛ حيث تقطن شعوب متباينة كثيرة، تختلف في أعرافها وعاداتها وأشكالها البشرية. وعن هذه البلدان والجزر سأتكلم بجلاء فيما يلي أدناه، وأقدّم لكم نبذاً عن الاشياء التي توجد هناك، في حينها، كما ترد قدر الإمكان في ذاكرتي. وخاصة بالنسبة لمَن ينوون الآن أو في المستقبل زيارة مدينة القدس الشّريف والأماكن المقدّسة التي حولها. وسأذكر الطّرق التي ينبغي سلوكها هناك. إذ أنني مراراً ما اجتزتُ وعبرتُ بتلك الجهة، مع صحبة طيبة لعديد من الأمراء، ولله الحمد!

وستدركون أنني قد نقلتُ هذا الكتاب من اللاتينية إلى الفرنسية، ثم منها إلى الإنكليزية، ليفهمه كل فرد من بني قومي. وليتمكن كل سيّد وفارس وغيرهم من النّبلاء الذين لا يعرفون إلا القليل من اللاتينية من فهمه. وإذا أوقعني ضعف الذّاكرة في خطأ، استطاع كلّ الذين زاروا البلاد الواقعة وراء البحار أن يعدّلوا ذلك. وذلك لأنّ الأشياء التي يمرّ عليها وقت طويل بعيداً عن عقل الإنسان أو بصره، يكون مصيرها أن تتلاشى في غياهب النّسيان، هذا لأنّ عقل الإنسان لا يمكن الحفاظ عليه ولا بقاؤه إلى ختام حياة البشرية.

* * *

الفصل الأول

لتعليمكم الطّريق للذهاب من إنكلترا إلى القسطنطينيّة

باسم الله المجيد والقادر!

هذا الطّريق الذي يعبر فوق البرّ والبحر (ويذهب الى مدينة القدس، من الممكن أن يسلك عدة طرق على البحر وعلى البرّ)، وفقاً للبلد الذي يأتي منه، والكثير منها تنتهي في مكان واحد، ولكني لن أذكر كل أسماء المدن أو القلاع التي سيمرّ بها الرّجال، لكي لا أجعل الحكاية طويلة جداً، باستثناء بعض البلاد والأماكن المهمة التي سيعبرها الرّجال على الطّريق الصّحيحة.

أولاً: إذا جاء أحدٌ من غرب العالم مثل إنكلترا أو ويلز أو إيرلندا أو اسكتلندا أو النّروج، فمن الممكن أن يعبر ألمانيا وعبر مملكة هنغاريا التي تصل إلى أرض پولاين Polayne وإلى أرض پانونيا Pannonia وصولاً الى سيليسيا Silesia.

وملك هنغاريا العظيم والقوي يملك الكثير من الأراضي التي من ضمنها مملكة هنغاريا، وسكلافونيا وجزء كبير من كومونيا وأيضاً بلغاريا التي يدعوها النّاس أرض البورجير Bourgiers وأيضاً جزء كبير من مملكة روسيا حيث أسّس دوقيّة تمتد حتى أرض نيفلاند Nyfland وصولاً إلى پروسيا.

يمرّ الرّجال عبر أراضي هذا العاهل مروراً بمدينة تدعى سيپرون Cypron ومروراً بقلعة نيسبورغ Neasburghe وبالمدينة الرّديئة التي تقع على نهاية حدود هنغاريا،

ويمـرّ الرّجـال أيضـاً بنهـر الدّانـوب العظيـم الـذي يذهب إلـى ألمانيا تحـت هضاب لومبارديا والذي يردفه أربعون نهراً أخرى. يقطع هنغاريا ويعبر اليونان من خلال تراقيا ويصـب شـرقاً في البحر بشـكل عنيف وضيق، بحيـث يكون ماء البحـر عذباً ويحتفظ بهذه العذوبة بحدود عشرين ميلاً داخل البحر.

وبعـد ذلك يجتـاز الرّجال ببلغراد ومن ثـم بأرض البورجير ويعبرون فوق الجسـر الحجري المشيّد على نهر ماروك Marrok.

كذلـك يمـرّ الرّجـال بـأرض پينسـمارتز Pyncemartz وصـولاً إلـى مدينـة Nye فـي اليونان ومن ثـم إلى مدينة فينپـاپ Fynepape، وبعد ذلك إلى مدينـة داندرينوبل Dandrenoble ومـن ثـم إلى القسـطنطينية التي كانـت تدعى بيزانـزون Bezanzon، حيـث يعيـش إمبراطـور اليونـان. حيث توجد كنيسـة القدّيسـة صوفيا، وهـي من أكثر الكنائس نُبلاً وجمالاً في العالم.

وأمام هذه الكنيسة توجد صورة الإمبراطور جوستنيان المغطاة بالذهب وهو يمتطي فرساً متوّجاً. والمفترض أن يحمل في يده تفاحة ذهبية ولكنها قد سقطت منه.

يقـول النّاس هنا إنها عبارة عن رمـز فقدان الإمبراطور لجزء كبير من أرضه وملكه، حيث أنه كان إمبراطور رومانيا واليونان وكل آسـيا الصّغرى وأيضاً أرض سوريا وبريّة اليهوديّـة التي فيهـا القدس وأيضاً أرض مصر وفارس وجزيـرة العرب، ولكنه فقد كل شـيء عـدا اليونان. ولقـد وضع الرّجـال التفاحة على يـد الصّورة عدة مـرات لكنها لم تثبـت. هذه التفاحة تـدلّ على ملكيته القديمة حول العالم الذي له شـكل دائري، وفي يـده الأخـرى المرفوعة نحـو الغرب، ترمز إلى التهديد لسـوء التصرف. هـذه الصّورة توجد فوق عمود من المرمر في القسطنطينيّة.

* * *

الفصل الثّاني

عن صليب وتاج سيّدنا المسيح

في القسطنطينية يوجد صليب سيّدنا المسيح ورداؤه الذي بغير خياطات والذي يسمّى *Tunica inconsutilis* والإسفنجة والقصبة اللتين استخدمه اليهود ليذيقوا مخلّصنا أنواع العذاب والمرارة على الصّليب. كما ويوجد واحد من المسامير التي ثُبّت بها المسيح على الصّليب.

يعتقد بعض النّاس أن نصف الصّليب الذي صُلب عليه المسيح موجود في قبرص، في دير للرهبان، على هضبة يدعونها هضبة الصّليب المقدّس، ولكن الأمر ليس كذلك، فالصّليب الموجود في قبرص ليس إلا الصّليب الذي عُلّق عليه ديسماس Dismas. ولكن لا أحد يعلم بذلك، إنما بنيّة سيئة تمّ الإدعاء بأن هذا هو صليب المسيح لجمع التبرعات والهبات.

من المهم أن تعرفوا بأن صليب مخلّصنا كان مصنوعاً من أربعة أنواع من الأشجار، كما هو وارد في هذه الآية:

In cruce fit palma, cedrus, cypressus, oliva.

فلتلك القطعة التي كانت متجهة مباشرة من الأرض إلى الأعلى كانت من السّرو، والقطعة التي كانت بالاتجاه المعاكس، والتي كانت يداه مسمّرتين عليها كانت من النّخيل، والجذع المنصوب في الأرض كان من شجر الأرز، والقطعة التي كان طولها

قدماً ونصف فوق رأسه والتي كتب عليها بالعبريّة واليونانيّة واللاتينيّة كانت مصنوعة من خشب الزّيتون.

فاليهود صنعوا الصّليب من أنواع الشّجر الأربعة هذه، لأنهم كانوا يعتقدون بأن سيّدنا المسيح كان يجب أن يبقى معلقاً على الصّليب بقدر ما بقي الصّليب موجوداً، ولذلك صنعوا قاعدة الصّليب من الأرز، لأن الأرز لا يتعفن بسهولة بوجود التراب والماء ولهذا كان ينبغي أن يبقى طويلاً، ولأنهم أرادوا أن يتفسّخ جسد المسيح على الصّليب فقد صنعوا القطعة من الخشب المتجهة من الأرض إلى الأعلى من السّرو وذلك لكي لا تفوح رائحة جسده ويحزن النّاس المارّون بالقرب منه، أما القطعة المتجهة بالاتجاه المعاكس فكانت مصنوعة من النّخيل لأنه كان مذكوراً في العهد القديم أنه عندما يحقق أحد النّصر يتم تتويجه بالنخيل، وبما أنهم كانوا يعتقدون بأنهم قد انتصروا على السّيد المسيح فقد قرّروا أن يجعلوا هذه القطعة من النّخيل، والقطعة التي كانت فوق رأسه كانت مصنوعة من خشب الزّيتون لأن الزّيتون يدلّ على السّلام، وكما في قصة نوح عندما أتت الحمامة بغصن زيتون كان هذا يدل على السّلام بين الرّب والإنسان، وكذلك اعتقدوا بأن يحل السّلام عند موت المسيح، لأنهم قالوا بأنه جعل الفتنة والاقتتال فيما بينهم.

كما يجب أن تعلموا بأنه عندما ثُبّت المسيح على الصّليب كان الصّليب ممدّداً على الأرض، ولهذا عانى أقسى أنواع العذاب.

والناس المسيحيون في اليونان الذين يسكنون ما وراء البحر، يقولون بأن شجرة الصّليب التي ندعوها شجرة السّرو كانت نفس الشّجرة التي أكل آدم منها التفاحة من قبل، كما أنهم كانوا يقولون بأنه مكتوب عندهم أن آدم كان مريضاً وقال لابنه شيث Seth بأنه يجب أن يذهب إلى ملاك الجنة ويجلب من عنده زيت الرّحمة، ليمسح به أعضاء جسده، حيث من الممكن أن يجلب له الصّحة، وبالفعل ذهب شيث، لكن الملاك لم يسمح له بالدخول وقال له إنه ليس لديه من زيت الرّحمة هذا، ولكنه أعطاه ثلاث بذور من نفس الشّجرة التي أكل أبوه منها التفاحة، وطلب منه أن يضع هذه

البـذور الثّـلاث تحت لسـان أبيه فـور وفاته ثم يدفنـه، وعندما يفعل سـتخرج من هذه البذور الثّلاث شجرة وتطرح ثمرة مثل التي كان على آدم أن يحافظ عليها.

وعندمـا عاد شـيث Seth إلى والده وجده على وشـك المـوت، وعندما مات فعل تمامـاً كمـا قال له الملاك، ومن هذه الشـجرات الثّلاث التي نبتت كان الخشـب الذي صُنع منه الصّليب، والتي هي نفسـها كانت قد طرحت الثّمرة الطّيبة والمباركة وسـيّدنا يسـوع المسـيح، التي كان يجب على آدم وعلى كل النّاس المنحدرين منه أن يحافظوا على هذه الثّمرات من رهبة الموت وإلى الأبد، ولكنها كانت غلطتهم.

وقد أخفى اليهود هذا الصّليب المقدّس في الأرض، تحت صخرة من جبل الجُلجُلة Calvary علـى مـا يزيد عـن المئتي عام، حتى زمن القدّيسـة هيلينا، التـي كانت والدة إمبراطور روما قسـطنيطين، وابنة الملك Coel، الذي ولد في كلوچسـتر Colchester وكان ملـك إنكلتـرا التي كانت تدعـى بريطانيا العظمى، وكان الإمبراطور كونسـتانس Constance قـد اقتـرن بزوجته لجمالهـا، وأنجب منها قسـطنطين، والذي أصبح فيما بعد إمبراطور روما وملك إنكلترا.

كمـا يجـب أن تعلموا بأن صليب سـيّدنا المسـيح كان طوله ثمانيـة أذرع، والقطعة العرضيـة كان طولهـا ثلاثة أذرع ونصف، وأن جزءاً من تاج سـيّدنا المسـيح الذي كان قد توِّج به ومسمار من المسامير ورأس الحربة والعديد من الآثار الأخرى موجودة في فرنسا في معبد الملك، وقد وضع هذا التاج في وعاء فاخر من الكريستال.

وكانت هذه الآثار قد ابتيعت في وقت مضى من اليهود من قبل ملك فرنسـا، حيث استبدلها آنذاك الإمبراطور بمبلغ كبير من الفضة.

وإذا كان الأمـر كمـا يقول النّاس بأن هـذا التاج كان مصنوعاً من الشّـوك فيجب أن تعرفـوا بأنـه كان مصنوعاً مـن مخلّفات البحـر، وهي الأغصان التي تندفـع من البحر، والتـي تنخـز تماماً كالأشـواك، ذلك لأني كنت قـد رأيت جزئي التاج هـذا عدة مرات فـي باريس والقسـطنطينيّة، حيث كانا في الماضي يشـكلان قطعة واحـدة صُنعت من

مخلفات البحر.

ولكـن النّـاس قسـموها إلى جزئيـن أحدهما في باريـس والثّاني في القسـطنطينية، وعندي واحدة من هذه الأشواك الثّمينة التي تبدو كشوكة بيضاء وقد أعطيت لي سابقاً وهي باقتنائي لها جعلتني أتميّز تميزاً كبيراً، حيث أنه لم يعد العديد منها سليماً، فأغلب هذه الأشـواك كانت قد كُسـرت ورست في أسفل الإناء بسـبب الجفاف ولأنهم كانوا يحركونها ليعرضوها على اللوردات والأمراء الذين يأتون إلى هناك.

وسـوف تعرفون بأن سـيّدنا المسـيح في تلك الليلة التي أُخذ فيها كان قد اقتيد إلى حديقـة وهنـاك عُـذِّب لأول مرة بشـدّة، وهناك سـخر منه اليهـود وجعلوا لـه تاجاً من أغصان عوسـج albespine التي فيها أشـواك بيضاء كانت قد نمت في نفس الحديقة، ووضعوها فوق رأسـه، بشـكل ضيّق وقاسـي، وبسـببها جرى الدم على أماكن عديدة في وجهه ورقبته وكتفيه، ولذلك لهذه الشّـوكة البيضاء الكثير من الفضائل لأنه حملها علـى رأسـه، فلا رعد ولا أي نوع من العواصف يمكـن أن تؤذي البيت التي تكون فيه، ولا حتى من الممكن أن تدخل الى المكان التي هي فيه. وبنفس الحديقة أنكر القدّيس بطرس سيّدنا ثلاث مرات.

وبعدهـا ومـن هنالك اقتيد سـيّدنا أمام الأسـاقفة وأسـياد الأمر إلـى حديقة أخرى Annas وهنـاك حُكِـم وشُـتم وازدري وتُـوّج بالشـوكة الجميلـة، التي يسـميها النّاس barbarines والتي كانت قد نمت في تلك الحديقة، ولها الكثير من الفضائل أيضاً.

وبعد ذلك كان قد اقتيد الى حديقة قيافا Caiphas وهناك تُوِّج بالشوك eglantine.

وبعدها اقتيد الى غرفة بيلاطس Pilate وهناك حُكم وتوِّج، ثم أجلسـه اليهود على كرسـي وألبسـوه قطعة قماش وهناك صنعوا له تاجاً من مخلّفات البحر، وهناك ركعوا له بسخرية قائلين:

Ave, Rex Judeorum!

وهذا يعني: السّلام يا ملك اليهود!

وهـذا هـو التاج الذي نصفه فـي باريس ونصفه الآخـر في القسـطنطينية وهو التاج الذي كان على رأس سيّدنا المسيح عندما عُلّق على الصّليب، ولهذا وَجَب على النّاس أن يقدِّسوه ويحافظوا عليه دون أي شيء من الأشياء الأخرى.

أما الرّمح فيمتلكه إمبراطور ألمانيا ولكن سِنانه في باريس، بالرغم من أن إمبراطور القسـطنطينية قال بأنه يمتلك سِنان الرّمح، وقد رأيتُه عدّة مرات ولكن الذي في باريس أكبر.

* * *

الفصل الثّالث

عن مدينة القسطنطينيّة وعن إيمان شعب اليونان

في القسطنطينيّة ترقد القدّيسة حنّة والدة السّيدة العذراء، وقد جلبت جثمانها القدّيسة هيلينـا مـن القدس. وهناك يرقد أيضـاً جثمان يوحنّا فم الذّهـب John Chrisostome الـذي كان بطريـرك القسـطنطينيّة، وهنـاك أيضـاً يرقـد القدّيـس لوقـا الإنجيلـي the Evangelist الـذي جُلِبـت عظامه من بيـت عَنيا Bethany حيـث كان دُفن. وكثير من الرّفات كان موجوداً هناك، كما يوجد إناء من حجر وكأنه كان من الرّخام حيث يسمّيه النّـاس enydros وهـو ينقط ماء دائماً ويعبئ نفسـه كل عام حتى يمتلـئ تماماً ويفيض دون أن يأخذ النّاس منه أبداً.

والقسـطنطينية مدينة جميلة ومليئة ومسـورة بشـكل جيد جداً مـن جوانبها الثّلاثة، كمـا يوجـد فيها امتداد من بحر Hellespont وبعض النّاس يسـمّونه فم القسـطنطينية، وبعضهم يسـمّونها طـوق القدّيس جورج (جرجـس)Brace of Saint George وهذا الامتـداد يقرِّب جزئـي المدينة، وفوق هذا البحـر كانت توجد مدينة طـروادة الكبيرة، هـذه المدينة كانت قـد دُمّرت من قبل الإغريق ولذلك لا تظهـر كثيراً لأنها خُرّبت منذ زمن طويل.

في اليونان يوجد الكثير من الجزر مثل:
Calliste, Calcas, Oertige, Tesbria, Mynia, Flaxon, Melo, Carpate, and Lemnos.

وفي هذه الجزيرة يوجد جبل آثوس Athos الذي يخترق الغيوم، وهناك يوجد لغات مختلفة وبلدان مختلفة وكلها تحت سلطة الإمبراطور مثل ,Turcople Pyncynard ,Comange وغيرها الكثير مثل تراقيا Thrace ومقدونيا Macedonia وكانت في مُلك الإسكندر. وفي هذه البلد ولد أرسطو في مدينة كانت تدعى ستاغيرا Stagyra وهي ليست ببعيدة عن تراقيا Thrace. وفي ستاغيرا Stagyra يرقد أرسطو ويوجد عند قبره مذبح، وهناك يقيم النّاس أعياداً كل سنة حيث يظنّون أنه كان قدّيساً، وعند مذبحه تقام الاجتماعات والمجالس حيث أنهم يأملون أن يستفيدوا من تجلّيات الرّب عليه وأن يصلوا إلى أفضل القرارات والنّتائج.

في هذا البلد يوجد هضاب عالية، حتى نهاية مقدونيا، ويوجد هضبة ضخمة يدعونها أولمپوس، تخرج من مقدونيا وتراقيا Thrace وهي عالية جداً لدرجة أنها تعبر الغيوم. كما يوجد هضبة أخرى تدعى آثوس Athos هي الأخرى عالية جداً حتى أن ظلّها يصل الى لِمنوس Lemne والتي هي جزيرة تبعد ستة وسبعين ميلاً، والهواء على قمة هذه الهضبة نقي جداً حتى أنه لا يوجد أي ريح هناك، ولذلك من غير الممكن لأي من الحيوانات أن يعيش هناك وذلك بسبب جفاف الهواء.

يقول النّاس في هذه البلدان إن الفلاسفة في أحد الأوقات كانوا يذهبون فوق هذه الهضاب ويضعون على أنوفهم إسفنجة مرطبة بالماء لكي يستطيعوا تنشّق بعض الهواء لأن الهواء فوق هذه الهضاب جاف جداً. كما أنهم كانوا يكتبون على الغبار والتراب المتناثر من هذه الهضاب أحرفاً ورموزاً بأصابعهم، وعند نهاية السّنة يأتون مرة أخرى فيجدون نفس الأحرف والرّموز التي كانوا قد كتبوها في السّنة الماضية دون أي نقص. وذلك على ما يبدو بسبب علوّها ومرورها عبر الغيوم، ووجود الهواء النّقي فيها.

في القسطنطينية يوجد قصر الإمبراطور، وهو بديع جداً ومزخرف بشكل جميل جداً، وفي هذا القصر يوجد فسحة للمبارزة أو للاعبي الرّياضات أخرى. وكانت قد أنشئت من عدة منصات، وحولها درجات ترى جيداً من جميع الجوانب. وتحت هذه المنصات يوجد إصطبلات لأحصنة الإمبراطور جميع أعمدتها من المرمر.

وفي كنيسـة القدّيسـة صوفيا دَفَنَ إمبراطورٌ والده عندما مات. وعندما صنعوا القبر وجـدوا جثة فـي الأرض وفوق الجثة طبق كبير مـن الذهب كُتبت عليـه باللغة العبرية واليونانية واللاتينة حروفٌ تقول:

Jesu Christus nascetur de Virgine Maria, et ego credo in eum.

وهذا يعني: «ولد يسـوع المسـيح من مريم العذراء وأنا أؤمن به»، وقد وُضع تحت الأرض منـذ ألفـي سـنة قبل ميلاد سـيّدنا المسـيح. ومـا زال الطّبق الذهبـي في خزينة الكنيسة، ويقول النّاس بأنه كان هرمس Hermogenes الرّجل الحكيم.

وإذا كان هـذا كلـه فعلاً قد حدث، فـإن عقيدة النّاس الإغريـق الآن ما تزال مختلفة عـن عقيدتنـا، بمـا يقولون بـأن روح القدس لم تكن مـن الابن ولكنهـا كانت فقط من الآب، كما إنهم لا يتبعون كنيسة روما ولا البابا. كما يقولون بأن بطريركهم له قوة كبيرة ليسـيطر على البحر، كما البابا له القوة علـى الطّرف الآخر من البحر. ولهذا بعث البابا يوحنا الثّاني والعشـرون John XXII برسـائل لهم تشـرح كيف أن العقيدة المسـيحية يجـب أن تكـون واحدة، وبأن جميعهم ينبغي أن يطيعوا البابا، وبأنه هو راعي الكنيسـة مـن قبـل اللـه، وهو من أعطاه اللـه الكثير من القـوة للرّبط والحل ولهـذا يجب عليهم طاعته.

وأعادوا إرسال رسائل تحمل عدة أجوبة، ومن بينها قالوا:

Potentiam tuam summam circa tuos subjectos, firmiter credimus. Superbiam tuam summam tolerare non possumus. Avaritiam tuam summam satiare non intendimus. Dominus tecum; quia Dominus nobiscum est.

وهذا يعني: «نحن نؤمن جيداً بأن القوة والسّلطة فوق الأشياء. على الأرجح أننا لن نسـتطيع أن نتحمل فخرك بنفسـك، كما أننا لسنا بصدد إشباع أطماعك. كان الله معك ومعنا. وداعاً» وبعض الأجوبة الأخرى لم تصل اليه.

كما أنهم جعلوا سرّهم للمذبح المقدّس من خبز Therf لأن سيّدنا كان قد صنعه من

هـذا الخبـز، يوم خميس العهد، فإنهم في يوم خميس العهد يصنعون خبز Thref الذي يعتبرونـه رمزاً لخميس العهد ويجففونه في الشّـمس ويحفظونه طوال السّـنة ويعطونه للنـاس المرضى بدلاً من جسـد المخلّـص. وأصبحوا عندما يريـدون تعميد أولادهم يمسـحونهم بالزيت المقدّس فقـط مرة واحدة، ولم يعودوا يدهنـون النّاس المرضى. وهـم يقولـون بأنه لا يوجـد مَطهَر Purgatory، وبـأن الأرواح لا تكون لا في نعيم ولا في عذاب حتى يوم القيامة. كما يقولون بأن الزّنا ليس بالخطيئة العظيمة، ولكنه شـيء مقبـول، وبأن الرّجل والمرأة يجب ألا يتزوّجا إلا مرة واحدة. ومن يتزوّج أكثر من مرة يكون أولاده أولاد زنا وصاحبي خطيئة. كما أنه من الممكن لرهبانهم أن يتزوجوا.

كما قالوا بأن الرِّبا ليس بالخطيئة الكبيرة، كما أنهم باعوا ممتلكات الكنيسة المقدّسة وكذلك فعل النّاس في أماكن أخرى. الله يصلحها عنما يشـاء، وهذا فعلاً افتراء كبير. والآن أصبـح الملـك المسـتفيد من هذه الأموال يتـوّج في هذه الكنيسـة. والله يصلح الوضع برحمته!

ويقولـون إنه في لِنت Lent يجب على النّـاس ألا يصوموا ولا يرتّلوا في القداديس إلا في أيام السّـبت والأحد، وألا يصوموا يوم السّبت في أي وقت من أوقات السّنة إلا في أيام الميلاد والفصح. وهم لا يقبلون أن يرتّل أي أحد باللغة اللاتينية أمام المذبح، وإذا غامر أحد وفعل هذا، فإنهم يغسلون كل المذبح فيما بعد بالماء المقدّس، ويقولون بأنه يجب أن يُعقد قداس واحد فقط يقال في مذبح واحد وفي يوم واحد.

ويقولون أيضاً بأن سيّدنا لم يأكل لحماً أبداً ولكنه صنع رمزاً للأكل. وأيضاً يقولون بأننا نخطئ خطيئة كبرى بحلاقة لحانا، لأن اللحية هي رمز الرّجولة وهي هبة من الله. كمـا قالـوا بأننا نخطئ خطيئة كبيرة بـأكل الحيوانات التي كان ممنوعـاً أكلها في العهد القديـم وفي الدين القديم كالأوز والأرانب البريـة وحيوانات أخرى تجترّ طعاماً ليس بطعامهـا. ويقولون بأننا نخطئ عندما نأكل لحماً في الأيام التي قبل أربعاء الرّماد Ash Wednesday وبذلك يجب أن نأكل اللحم يوم الأربعاء والبيض والجبن ابتداءً من يوم الجمعة، كما أنهم يدينون كل الذين يمنعونهم من أكل اللحم يوم السّبت.

كما أن إمبراطور القسطنطينيّة هو الذي كان ينصّب البطريرك والأساقفة ورئيس الأساقفة، كما كان يعطي الكرامات والمناصب للكنيسة ويحرمهم من مناصبهم إذا وجدوهم غير جديرين أو عندما يستدعي ذلك أي سبب آخر، وبهذا أصبح رئيساً روحياً ودنيوياً في بلده.

وإذا كنتم تريدون أن تعلموا أحرفهم الأبجدية، فهنا أذكر لكم إياها مع أسمائها التي يسمّونها بها:

Alpha, Betha, Gama, Deltha, e longe, e brevis, Epilmon, Thetha, Iota, Kapda, Lapda, Mi, Ni, Xi, o brevis, Pi, Coph, Ro, Summa, Tau, Vi, Fy, Chi, Psi, Othomega, Diacosyn.

ورغم أن كل هذه الأشياء لا تمسّ موضوعاً واحداً، فإنني أردتُ أن أعرضها عليكم، لأريكم كيف أنه يوجد عادات وتقاليد وبلدان مختلفة، ولأنها البلد الأولى المختلفة باعتقادها وإيمانها ممّا نحن نؤمن به ونعتقد، على نصف البحر هذا ولهذا عرضتها هنا، لعلكم تريدون أن تعرفوا الاختلاف الذي بين إيماننا وإيمانهم. ولأنه يوجد الكثير من النّاس يروق لهم سماع أشياء غريبة ومختلفة عن بلدان متنوعة.

* * *

الفصل الرّابع

[عن الطّريق من القسطنطينية إلى القدس]
وعن القدّيس يوحنا الإنجيلي
وابنة إيپوكراس التي تحولت من امرأة إلى تنين

أعـود مـرة أخرى لأخبركم عـن الطّريق من القسـطنطينيّة إلى القدس، التي سـتعبر مـن خلال تركية باتجـاه مدينة Nyke وتعبـر بوابة Chienetout، وطـوال الطّريق يرى النّـاس دائمـاً أمامهم هضبـة Chienetout التي هي عالية فعلاً وعلـى بعد ميل ونصف من Nyke.

والذي سـيذهب عبـر الماء بجانـب قوس القدّيس جـورج وفي البحـر حيث يرقد القدّيـس نيكولا وسـيذهب باتجاه عـدة أماكن أخرى. يذهـب الرّجـال أولاً إلى جزيرة تدعى Sylo في هذه الجزيرة ينمو المِسك على أشجار صغيرة، ومنها تأتي المصطكاء، كما يوجد كذلك شجر البرقوق أو الكرز.

وبعد ذهاب الرّجال عبر جزيرة پاتموس Patmos حيث كتب هناك: القدّيس يوحنا مبشّـر الرّؤيا. ويجـب أن تعلموا بأن القدّيس يوحنا كان فـي الثّانية والثّلاثين من العمر عندما عُذِّب سـيّدنا المسـيح، وبعدها عاش سبعاً وستين سنة ومات في السّنة المئة من عمره.

يذهـب الرّجـال مـن پاتمـوس Patmos حتـى إفسُـس Ephesus المدينـة الجميلة

والقريبـة من البحـر، هنالك مات القدّيـس يوحنا ودُفن في قبر خلـف المذبح العالي، ويوجد هناك كنيسـة جميلة للناس المسـيحيين الذين اعتادوا علـى البقاء دائماً في هذا المكان، ولا يوجد شـيء في قبر القدّيس يوحنا سـوى المَن، وهو يدعى لحم الملائكة لكي يتم تحويل جسده إلى الجنة.

والأتراك يسـيطرون على كل الأماكن الآن، وعلى المدينة وعلى الكنيسة وكل آسيا الصّغرى التي تُدعى الآن تركية[1].

يجب أن تعلموا بأن القدّيس يوحنا سمح بأن يكون قبره في هذا المكان أثناء حياته، وتمدّد فيه بسرعة، ولذلك فبعض النّاس يقولون بأنه لم يمت ولكنه استراح هناك حتى يوم القيامة.

ولهذا، يوجد معجزة عظيمة، حيث كان النّاس يرون أن أرض القبر تتقسم وتتحرّك عدة مرات، وكأنه يوجد شيء يتحرك تحت الأرض.

ومـن إفسُـس Ephesus يعبر الرّجـال الى عدة جـزر أخرى في البحـر، حتى مدينة باتيـرا Patera حيـث ولد القدّيـس نيكولا وكذلـك مارتا Martha وحيث تـم اختياره ليكون أسقفاً، وهناك أيضاً ينمو النّبيذ الجيد والقوي وبعدها أصبح النّاس يدعونه بنبيذ مارثـا، وبعدها يذهـب الرّجال الى جزيرة Crete التي منحها الإمبراطور لبعض الوقت للجنويين.

وبعدها يعبر الرّجال من خلال جزر كولكوس Colcos ولانغو Lango وإيبوكراس Ypocras التي كانت أكبرها.

بعـض النّـاس يقولون بأن في جزيرة لانغو Lango ما تزال ابنة إيبوكراس Ypocras متشكلة بشكل تنين كبير، وقد استمر هذا المعتقد لفترة مئة عام، كما يقول النّاس حيث أنني لم أرها بعيني.

---

(1) وهذا طبعاً كان إبّان بداية الفتح العثماني لآسيا الصّغرى (بلاد الرّوم) ما قبل فتح القسطنطينية الذي تم بعد قرن من رحلة ماندڤيل، أي في عام 1453 م.

يدعوها سكان الجزيرة سيدة الأرض، وهي موجودة في قلعة قديمة داخل كهف وتظهر مرتين أو ثلاثة كل عام ولا تؤذي أحداً، إلا إذا آذاها النّاس، وكانت قد تحولت من فتاة عذراء إلى هيئة التنين بقدرة الآلهة ديانا كما قال النّاس بأنها ستبقى بهيئة تنين حتى يأتي الفارس الشّجاع الذي يجرؤ على تقبيلها من فمها وبعدها ستعود مرة أخرى إلى أصلها الحقيقي وتصبح امرأة مرة أخرى، ولكنها لن تعيش طويلاً بعد ذلك.

وبعد فترة ليست بطويلة قال فارس رودُس Rhodes الشّجاع والمدجّج بالسّلاح بأنه سوف يقبّلها، وعندما كان على جواده ذهب إلى القصر ودخل إلى الكهف فرفعت التّنينة رأسها باتجاهه، وعندما رآها على هذا الشّكل البشع والمرعب هرب بعيداً، ولكن التنينة أمسكت به وجرّدته من ملابسه على صخرة من الصّخور رغماً عنه ورمت به في البحر من على هذه الصّخرة، وبهذا فُقِد الفارس والفرس.

وثمّة شاب آخر لم يعلم بوجود التنينة، خرج من سفينته وذهب خلال الجزيرة إلى أن وصل إلى القلعة، ودخل بعيداً داخل الكهف، إلى أن وجد غرفة وهناك رأى فتاة عذراء تمشط شعرها وتنظر في المرآة، وكان لها كنز، ولقد ظن بأنها امرأة عادية قد اتخذت من هذا الكهف مسكناً لتوقع بالرجال، فبقي الشّاب ينظر إليها إلى أن لاحظت الفتاة ظله في المرآة فالتفت إليه وسألته ماذا يريد؟ فأجاب بأنه يريد أن يكون لها محباً وعشيقاً، فسألته فيما إذا كان فارساً فاجاب نافياً، فعندها قالت بأنه ربما لن يكون عشيقها، ولكنها طلبت منه أن يعود ثانية إلى رفاقه ويصبح فارساً ويعود في الغد، وأنها ستخرج من الكهف أمامه، وعندها يأتي ويقبّلها من فمها بدون أي خوف. وقالت: سأبادلك القبله بدون أي أذى حتى لو رأيتني على هيئة تنين، وحتى لو رأيتني بشعة وقبيحة، أنا أفعل هذا لأبطل سحراً قد صُنِع لي، ودون شك أنا لا شيء غير الذي ترى الآن، امرأة، ولذلك لا تشعرنّ بأي نوع من الخوف وقبّلني وسوف تحصل على كل هذا الكنز وتكون مَلِكي ومَلِك الجزيرة بأكملها.

بعد ذلك تركها وذهب إلى رفاقه على السّفينة، وساعدوه على أن يكون فارساً وعاد في اليوم التالي ليقبّل الفتاة العذراء وعندما رآها خارجة من الكهف على هيئة تنّين

بشـع وقبيح، تملّكته الرّهبة وهرب عائداً إلى السّـفينة، فلحقته وعندما رأت بأنه لـم يعد بدأت تبكي، الأمر الذي كان محزناً للغاية وبعدها عادت إلى كهفها، وفي وقت لاحق مـات الفارس، ومن ذلك الحين لـم يعد يراها أي فارس بعد ذلك الفارس الذي مات، ولكن عندما يأتي فارس شجاع كفاية ليقبّلها فلن يموت لكنه سيعيد العذراء إلى شكلها الحقيقي الجميل وسوف يكون ملكاً لكل البلدان والجزر المذكورة آنفاً.

ثمّ يصل الرّجال من هناك إلى جزيرة رودُس Rhodes التي حكمت واستولت على وقـت كبير مـن وقت الإمبراطـور، والتي اعتاد النّـاس على تسـميتها كولّوس Collos وكذلك سـمّاها الترك لاحقـاً، والقدّيس بولس كتب لهم في رسـالته عن هذه الجزيرة *ad Colossenses* هذه الجزيرة تبعد حوالي ثمانمئة ميل من القسطنطينية.

* * *

الفصل الخامس

عن التنوّع في قبرص
وعن الطّريق من قبرص إلى القدس
ومعجزة الحفرة المليئة بالرّمل

يذهب الرّجال من جزيرة رودُس Rhodes إلى قبرص، حيث يوجد الكثير من كروم العنب التي تكون في البداية حمراء، وبعد مرور سنة واحدة تصبح بيضاء، والخمور التي تكون أكثر بياضاً تكون الأكثر صفاءً والأجمل رائحة.

يمرّ الرّجال في هذه الطّريق عبر أرض كانت جميلة ومدينة مزدهرة، كانت هذه المدينة تدعى كاثاليليه Cathalilye ولقد بادت بسبب حماقة أحد الشّباب، حيث كان لهذا الشّاب عشيقة جميلة، أحبها حباً جماً، ولكنها في يوم من الأيام ماتت فجأة ودُفنت في قبر من رخام، ولشدّة الهيام الذي كان يجيش في قلب هذا الشّاب لهذه الفتاة فقد ذهب إلى قبرها في ليلة من الليالي وفتحه وتمدّد بجانبها بعض الوقت وعاد.

وبعد حوالي تسعة أشهر جاءه صوت يقول: «اذهب إلى قبر هذه الفتاة وافتحه وخُذ ما تجده عليها، وإن لم تفعل أصابك أذى كبير»، فذهب الشّاب فعلاً إلى القبر وفتحه، وإذا بثعبان كبير بشع يخرج من القبر ويطير باتجاه المدينة وبعد مدّة ليست بالطويلة غرقت المدينة كلها وبقيت عدة ممرات خطرة لم تسقط.

تبعد رودُس Rhodes عن قبرص أكثر من خمسمئة ميل، ولكن من الممكن للناس

أن يذهبـوا إلى قبرص ويعودوا من غير طريـق رودُس. وقبرص جزيرة جميلة وعظيمة ويوجد فيها أربع مدن رئيسـية كما يوجد فيها رئيس الأساقفة في نيقوسيا وأربع أساقفة أُخَر في أماكن أخرى من الجزيرة.

وفـي فاماغوسـتا Famagost يوجـد أحد المرافئ الأساسـية في العالـم، ومن هذا المرفـأ يدخل المسـيحيون والمسـلمون والنّاس مـن مختلف الجنسـيات. في قبرص توجـد هضبـة الصّليب المقـدّس، كما يوجد دير الرّهبان السّـود ويوجـد أيضاً صليب ديسـماس Dismas اللص الشّـريف كما ذكرت سـابقاً بـأن بعض الرّجـال يظنون بأنه نصـف صليب سـيّدنا المسـيح ولكن الحقيقة ليسـت كذلـك، بل هـم يحاولـون إقناع النّاس بذلك لغايات شريرة في أنفسهم.

يرقـد القدّيس زينونيمـوس Zenonimus في قبرص والذي يكنّ لـه أهل هذا البلد تكريمـاً كبيراً، وفي قلعة آمورس Amours يرقد جثمـان القدّيس هيلاريون Hilarion الذي يقدّسه النّاس، وبجانب فاماغوستا Famagost ولد القدّيس بارنَبا Barnabas.

فـي قبرص يأخـذ الرّجال معهم إلى الصّيـد البابون، وهو نوع من الحيوانات يشـبه النّمـر، كمـا يأخذون الوحوش البرّية أيضاً، والتي هي تقريباً أكثر من أسـود، حتى أنهم يفضلون الوحوش كونها تبلي خيراً من كلاب الصّيد.

يأكل النّاس في قبرص على الأرض سواءٌ كانوا ملوكاً أو ناساً عاديين، ولهذه الغاية يعملـون قنوات فـي أرض البيت بعمـق الرّكبة ويبلّطونهـا، وعندما يريـدون أن يأكلوا يجلسون فيها، والفكرة في هذا على الأغلب أن يجعلوا الأرض أكثر برودة وذلك لأن الأرض هناك أكثر حرارة ممّا هي عليه هنا.

وعند الولائم الكبيرة وللغرباء يجعلون طاولات ولكن لديهم مقاعد مرتفعة في الأرض.

يذهب الرّجال من قبرص إلى فلسـطين عبر البحـر، وتأخذ الرّحلة يوماً وليلة، ومع القليل من الرّياح يصلون إلى ميناء صور Tyre، التي تسمى الآن سورية[1] Surrye. في

(1) يلفظ ماندڤيل اسم سوريا بالصيغة التّركية: سورِية، على اعتبار أنها كانت آنذاك تحت حكم

وقت مضى كانت مدينة عظيمة وكان فيها بعض الرّجال المسيحيين الطّيبين، ولكن المسلمين دمّروا معظم أجزائها وأبقوا على هذا المرفأ لخوفهم من المسيحيين.

يذهب النّاس غالباً مباشرة إلى المرفأ ولا يذهبون إلى قبرص، ولكنهم يرغبون بالذهاب إلى قبرص ليرتاحوا على اليابسة أو ليشتروا بعض الاشياء الضرورية لحياتهم اليومية.

من الممكن للنّاس أن يجدوا كثيراً من الياقوت على شاطئ البحر، كما يوجد النّبع الذي كُتبت عليه كتابة مقدّسة تقول:

Fons ortorum, et puteus aquarum viventium.

ما يعني: «نبع الحدائق ومجرى ماء الحياة».

وفي مدينة صور قالت المرأة لسيّدنا المسيح:

Beatus venter qui te portavit, et ubera que succisti.

وهذا يعني: «تبارك البطن الذي يحملك والثديان اللذان ترضعهما». وهنالك غفر سيّدنا للمرأة الكنعانية خطاياها. وقبل صور عادة كان يوجد حجر جلس عليه المسيح ووعظ النّاس، وعلى هذا الحجر أقيمت كنيسة القدّيس المخلّص St. Saviour.

وعلى بعد ثمانية أميال من صور شرقاً تطل على البحر مدينة Sarphen الصّرفند من مدن الصّيدونيين، وهناك كان يسكن النّبي إيليا وهناك بعث يوناه (يونس) Joans أرملة ابنه، من الموت إلى الحياة، وعلى بعد خمسة أميال من Sarphen توجد مدينة صيدا، التي فيها كانت السّيدة ديدو Dido زوجة Aeneas وبعدها تم تدمير طروادة وأنشئت مدينة قرطاج في أفريقيا والآن تدعى Sidonsayete. وفي مدينة صور حكم أغينور Agenor والد ديدو Dido، وعلى بعد ستة عشر ميلاً من صيدا تقع بيروت، ومن بيروت إلى صيدنايا Sardenare رحلة ثلاثة أيام، وعلى بعد خمسة أميال من

دولة المماليك البحريّة، الذين كانت التركيّة لغتهم.

صيدنايا Sardenare تقع دمشق.

ومـن يسـافر وقتـاً طويلاً في البحـر ويقترب من القـدس يجب عليـه أن يذهب من قبـرص عبر البحر إلـى ميناء يافا، وهي الجنـة التي بقرب القدس، وتبعد مسـافة رحلة يـوم ونصـف من القـدس، وهذه المدينة التي تدعـى يافا كان قد أنشـأها يافث Japhet أحـد أبناء نـوح والآن تدعى Joppa، ومـن المهم أن تعرفوا بأنها أحـد أقدم المدن في العالم والتي أُنشأت قبل طوفان نوح، وحتى الآن توجد منحوتة في الصّخر، كما توجد سلاسل حديدية تم تثبيتها وكانت أندروميدا Andromeda العملاقة الكبيرة مثبتةً بها، وكانت حُبسـت قبل طوفان نوح، وهذه العملاقة يبلغ ضلع واحد من ضلوعها أربعين قدماً طولاً.

ومـن يصـل إلى ميناء صور أو Surrye الذي ذكرته سـابقاً بإمكانه أن يذهب براً إلى القـدس، والنّـاس عـادة يذهبون من صـور إلى مدينة عـكّا Akon في يـوم واحد، وقد كانـت تدعـى قديمـاً Ptolemais وكانت فـي يوم من الأيـام مدينة النّاس المسـيحيين المليئـة بالعـدل ولكنها دُمّرت بالكامـل الآن، كما أنها تطل على البحـر. ومن البندقية إلى عكّا Akon في البحر ألفان وأربعة أميال ومن لومبارديا Lombardy ومن كالابريا Calabria أو صقلية إلى عكّا Akon عبر البحر حوالي الف وثلاثمئة ميل من لومبارديا Lombardy حيث تقع جزيرة كريت Crete تماماً في منتصف الطّريق.

وبجـوار مدينة عكّا Akon من جهة البحر وعلى بعد سـتة فرلنغات[1] على الجانب الأيمـن جنوباً، تقع هضبة الكرمل حيث عاش النّبي إيليا لبعض الوقت وهناك تأسـس سلك الرّهبان الكرمليين Order of Friars Carmelites. وهذه التلة ليست كبيرة جداً ولا عالية جداً، وعند أسفلها كان يوجد في أحد الأيام مدينة جميلة للمسيحيين، وكانت تدعى حيفا Caiffa لأن قيافا Caiaphas أول من أسّسها ولكنها ضاعت كلها الآن.

وعلى الطّرف الأيسـر من هضبـة الكرمل توجد مدينة كان اسـمها صفّورية Saffre

---

(1) الفرلنغ مقياس قديم يعادل ثُمن الميل.

وتوجد على هضبة أخرى وهناك ولد القدّيسان يعقوب ويوحنا، ولكي يقوم النّاس بالعبادة أنشأوا كنيسة جميلة، ومن Ptolemais التي دعاها النّاس عكّا Akon إلى الهضبة العظيمة التي تدعى صور مسافة مئة فرلنغ، وبجانب مدينة عكّا Akon يجري نهر صغير يدعى Belon.

وقريباً من هناك توجد حفرة مينون Foss of Mennon التي لها شكل دائري وتبلغ مساحتها مئة ذراع، كما أنها مفروشة بالحصى المشرقة والبراقة والذي منها يصنع النّاس أوانيَ شفافة وبراقة. وقد كان النّاس يأتون من أماكن بعيدة ليأخذوا منها الحصى، إما في السّفن عبر الماء أو في العربات براً، ومهما أخذوا كميات كبيرة منها في يوم واحد، تعود في اليوم التالي لتمتلئ مرة أخرى وكأنها لم تنقص أبداً، وهذه معجزة عظيمة. كما أنه يوجد فيها رياح قوية دائماً، تحرّك الحصى بشكل دائم، وتجعله مضطرباً، وبواسطة بعض المعادن يمكن تحويل هذا الحصى إلى زجاج، وأيضاً الزّجاج المصنوع من تلك الحصى إذا أرادوا أعادته كحصى، فإنه يعود فوراً كما كان، ولهذا قال بعض النّاس بأن هذا هو بالع حصى البحر.

كما يذهب النّاس من عكّا Akon من الطّريق العلوية بمسيرة أربعة أيام إلى مدينة فلسطين، وذلك نسبة إلى الفلسطينيين والتي تدعى الآن غزّة، وهي مدينة سعيدة وغنيّة وجميلة ومليئة بالناس وليست بعيدة عن البحر، وفي هذه المدينة نصب شمشون Samson القوي البوابات على أرض عالية، وعندما كان يستولي على هذه المدينة قتل الملك في القصر كما قتل نفسه وعدداً كبيراً من أشجع الفلسطينين، وكان الملك قلع عينيه وحلق شعره ثم سجنه، جرّاء خيانة عشيقته دليلة، ولهذا فقد هدم عليهم قاعة كبيرة عندما كانوا يأكلون.

ومن هناك يذهب النّاس إلى مدينة قيصريّة Caesarea حيث يوجد حصن الحجيج Castle of Pilgrims، ومن ثمّ إلى عسقلان Ascalon، ومن ثم إلى حيفا ثم إلى القدس.

ومن يريد الذهاب عبر البرّ يمرّ عبر أرض بابل حيث يسكن السُّلطان عادة، حيث

ينبغي على للمارّ من هناك أن يحصل على التبريك منه، ومن ثم يغادر ليذهب أكثر أمناً عبر هذه البلاد والأراضي.

وللذهـاب إلـى جبـل سـيناء، قبل الذهـاب إلى القدس يجـب عليهم المـرور بغزة إلـى قلعة Daire وبعدهـا يخرجون من سـوريا ويدخلون إلى البـراري وهناك الطّريق مليئة بالرمال وهذه البراري والصّحارى تسـتغرق رحلة ثمانية أيام، ولكن النّاس دائماً كانـوا يجـدون مؤى وما يحتاجون من مؤن. وأطلق النّاس اسـم Achelleke على هذه الصّحارى والقفار، وعندما يخرج أحد من هذه الصّحراء يدخل إلى مصر التي يسمّيها النّـاس Egypt Canopac وفـي لغـة أخرى يسـمّيها النّـاس Belethe والتـي هي نهاية مملكة حلب، ومن هناك يذهب النّاس إلى بابل[1] وإلى القاهرة.

* * *

(1) تسمية بابل أو بابليون Babylon كان يطلقها الرّحالون الغربيّون في القرون الوسطى على الفسطاط في القاهرة.

الفصل السّادس

عن أسماء السُّلطان الكثيرة وبرج بابل

في بابل يوجد كنيسة جميلة لسيدتنا العذراء، حيث سكنت سبع سنوات، عندما تمكنت من الفرار من أرض اليهود لخوفها من الملك هيرودوس، وهناك أيضاً يرقد جثمان القدّيسة بربارة العذراء الشّهيدة، وهناك سكن يوسف بعدما باعه إخوته، وهناك طرح الملك نبوخذ نصر ثلاثة أطفال في لهيب النّار، لأنهم كانوا يؤمنون بالاعتقاد الصّحيح، هؤلاء الأطفال التي كانت أسمائهم: أنانيا، أزاريا، ميتشيل. كما مزمور *Benedicite* يقول: لكن نبوخذ نصر سمّاهم: شدرخ Shadrach، وميشخ Meshach، وعبدنغو Abednego، وهذا يعني: «الله قادر، الله مجيد، الله فوق الأشياء والممالك». وقد قيل هذا عندما رأى ابن الله يذهب إلى النّار مع الأولاد.

وهناك يسكن السُّلطان في Calahelyke[1] (حيث عادة هناك يكون كرسيه) في قلعة جميلة، قوية وعظيمة، شيّدت فوق الصّخر، يسكن في هذه القلعة دائماً أكثر من 6000 شخص لحماية القلعة وخدمة السُّلطان ويأخذون كل احتياجاتهم من قصر السُّلطان، أعرف هذا جيداً ذلك لأني بقيتُ معه كجندي لمدّة طويلة في حربه ضد البدو[2]، وكان من الممكن أن يزوّجني بنت أحد كبار الأمراء لو كنتُ تخليت عن إيماني واعتقادي،

(1) المفترض أنه يعني قلعة الجبل، حيث قصر حكّام مصر. ولكني لم أفهم المقطع الثاني من العبارة التي يستعملها: Calahelyke، فهل هي: القلعة العليّة مثلاً؟

(2) هذه إشارة مهمّة من المؤلف، فهل يعني بالمدّة الطويلة أنه مكث بمصر بضعة شهور أم أكثر يا ترى؟

ولكني والحمد لله لم تكن لي أيّة نيّة في هذا، ولا شيء يمكن أن يغريني.

كما يجب عليكم أن تعرفوا بأن السُّلطان هو الملك على خمسة ممالك، وقد حصل عليها كلها بالقوة والاقتدار، وأسماؤها: مملكة Canapac وتقع في مصر، ومملكة فلسطين حيث كان داود وسليمان ملكين، ومملكة سوريا وأكبر المدن فيها دمشق، ومملكة حلب في أرض Math، والمملكة العربية التي كانت لواحد من ثلاثة ملوك عُرضوا على سيّدنا عندما ولد، وكثير من الأراضي تقع تحت سيطرته، وفوق ذلك كله كان تحت إمرته خلفاء، وهذا يعني في لغتهم أشخاصاً ذوي رفعة وشأن، أي تقريباً مثل الملك.

وقد كانت العادة بأن يكون خمسة سلاطين، ولكن الآن لا يوجد غير سلطان مصر، وأول سلطان كان Zarocon وهو كان من ميديا Media كما كان والد صلاح الدين الذي كان خليفة مصر، وقتله وأصبح سلطاناً بالقوة، بعدها كان السُّلطان صلاح الدين في وقت كان الملك ريتشارد الأول ملك إنكلترا، وآخرون كُثر اعتقدوا بأن صلاح الدين لن يبقى. وبعدها أورث صلاح الدين الملك لابنه Boradine وبعده لأبن أخيه. وبعد ذلك شعر الكومان[1] Comanians الذين كانوا عبيداً في مصر بأن لهم قوة عظيمة، فاختاروا لانفسهم سلطاناً منهم لقب نفسه «الملك الصّالح»[2] Melechsalan وفي وقته دخل إلى البلد ملك فرنسا القدّيس لويس Saint Louis، وقاتله ثم أخذه السُّلطان أسيراً، وبعدها قُتل هذا السُّلطان على يد خدمه، وبعد ذلك اختاروا سلطاناً

(1) شعب الكومان قوم رُحّل من الأرومة التركيّة في سهوب آسيا الوسطى يؤلفون الفرع الغربي من حلف الكومان والقبچاق. بعد الغزو التّتري عام 1237 م التجأوا إلى هنغاريا ثم بلغاريا. وماندڤيل هنا يقصد بهم المماليك البحريّة الذين كان بعضهم فعلاً من والقبچاق، مثل بَيبَرس نفسه.

(2) يخطئ ماندڤيل بذكر الملك لصّالح كأول سلاطين المماليك، والواقع أنه أحد أواخر الملوك الأيوبيين، واسمه الملك الصّالح نجم الدّين أيّوب، وفي أواخر أيامه كانت بداية الحملة الصليبيّة السابعة بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع Louis IX. ولكنه يعني عزّ الدّين أيبك الذي تزوّجته أرملة الصّالح شجر الدُّرّ ليدير حكم البلاد، وقتله خدمها.

آخر أسموه «تورانشاه»[1] Tympieman الذي أخرج القدّيس لويس Saint Louis من السّجن مقابل فدية، وبعد ذلك تسلّم واحد من هؤلاء المماليك Comanians الحكم ويدعى «قُطُز» Cachas وقتل «تورانشاه» Tympieman ليصبح سلطاناً وأسموه «الملك المظفّر» Melechmenes.

وبعد ذلك أتى الذي دعي «البُندقداري» Bendochdare الذي قتل «الملك المظفّر» Melechmenes ليصبح سلطاناً، وأسمى نفسه «الملك الظاهر» Melechdare وفي عهده دخل الملك إدوارد ملك إنكلترا إلى سوريا وسبّب أذى كبيراً للمسلمين، وبعد ذلك سُمّم السُّلطان في دمشق وظن ابنه بأنه سيلي الحكم بعده بالوراثة، وأن يسمّى «الملك السّعيد»[2] Melechsache، ولكن شخص آخر يدعى «الألفي»[3] Elphy طرده خارج البلاد وعيّن نفسه سلطاناً.

هذا الرّجل أخذ مدينة طرابلس ودمّر كثيراً من المسيحيين، في سنة العفو 1289، وبعدها سجن من قبل سلطان آخر، وبعد فترة قصيرة من سجنه قتله، وبعد ذلك كان ابن «الألفي» Elphy قد اختير ليكون سلطان ودعي «الملك الأشرف»[4] Melechasseraff وأخذ مدينة عكّا Akon وطرد المسيحيين خارجاً وهذا أيضاً سجن ولاحقاً أصبح أخوه السُّلطان وكان يدعى «الملك النّاصر»[5] Melechnasser، وبعد ذلك تولّى الحكم ذاك الذي يدعى «كتبُغا» Guytoga ووضعه في السّجن في قلعة Mountroyal ونصب نفسه سلطاناً بالقوة، وكان يدعى «الملك العادل» Melechadel وقد كان من

(1) كذلك لم يكن تورانشاه واحداً من سلاطين المماليك، بل هو ابن الملك الصّالح نجم الدّين، وأول سلاطين المماليك كان عزّ الدّين أيبك ثم المظفّر قُطُز، غير أنّ المؤسس الفعلي للسلطنة المملوكية بالقاهرة كان الظاهر بَيبَرس البُندُقداري.

(2) أي الملك السّعيد بركة خان ابن بَيبَرس، الذي تلاه في الحكم أخوه الملك العادل بدر الدّين سلامش، وبعدهما قلاوون.

(3) يقصد ماندڤيل الملك المنصور سيف الدّين قلاوون، وكان لقبه الألفي نسبة إلى الثّمن الذي اشتراه به الملك الصّالح نجم الدّين، أي ألف دينار.

(4) أي الملك الأشرف خليل بن قلاوون.

(5) أي الملك النّاصر محمّد بن قلاوون.

بلاد التّتار Tartary ولكن المماليك Comanians طردوه خارج البلد، وأذاقوه صنوف العذاب ونصّبوا واحداً منهم سلطاناً كان اسمه «لاچين» Lachin وقد سمّي «الملك المنصور» Melechmanser، وكان يوماً ما كان يلعب الشّطرنج وسيفه بجانبه، فحدث أن أحداً غضب منه غضباً شديداً وقتله بسيفه.

وبعد ذلك حدث خلاف كبير حول من سيكون السُّلطان، وأخيراً اتفقوا على «الملك النّاصر» Melechnasser الذي كان «كتبُغا» Guytoga قد وضعه في السّجن في Mountroyal، وبقي في الحكم فترة طويلة إلى أن استلم ابنه الأكبر «الملك المنصور» Melechmader الحكم من بعده، ثمّ ذُبح سراً من قبل أخيه ليستولي على السّلطنة، وليلقب نفسه بعد ذلك «الملك المظفّر» Melechmadabron وقد كان سلطاناً عندما غادرتُ هذه البلاد[1].

* * *

كما ألفت انتباهكم إلى أن السُّلطان يمكن أن يخرج من مصر على رأس أكثر من 200,000 جندي، كذلك الأمر في سوريا وتركية وكل البلاد التي له سلطة عليها، يمكن له أن يحشد أكثر من 50,000 وكل هؤلاء يكونون تحت تصرفه، ويكونون دائماً له بغضّ النّظر عن بقية القوم الذين يسكنون في البلاد والذين لا يعدّون ولا يحصون، وكل واحد منهم يرتفع مرتبه سنوياً بما يعادل ستة فلورنتينات، ولكن يتوجب عليه أن يكون مسؤولاً عن ثلاثة أحصنة وجمل. وعندما يكون مسؤولاً عن مدن يكون برتبة أدميرال كما يكون حاكماً على النّاس أيضاً، من الممكن أن يحكم أربع مدن أو خمسة أو أكثر، وبقدر ما يحكم الأدميرال من مدن يكون له جنود تحت إمرته، ولذلك عندما

(1) هذا تحديد مهمّ ودقيق، يدلّ على أن ماندڤيل زار مصر في زمن الملك المظفّر حاجي ابن النّاصر محمّد بن قلاوون 1346-1347 م / 747-748 هـ. غير أن الملك المظفّر لم يلِ بعد أخيه الملك المنصور أبي بكر، بل تلاه الأشرف كُجُك، ثم النّاصر أحمد، وبعده المظفّر حَاجي (والأربعة أبناء النّاصر محمّد من أصل ثمانية من أولاده تولّوا السّلطنة). وهذا ما دعا توماس رايت إلى الظنّ بأن ماندڤيل كان بمصر في زمن الملك الأشرف (الصغير) علاء الدّين كُجُك عام 1341 م.

يرقي السُّـلطان أياً من الفرسـان يجعله أدميرالاً، وعند حـدوث أيّة مجاعة، وإذا أصبح هؤلاء الفرسان فقراء فإنهما يبيعون فرسانهم وعتادهم.

للسـلطان أربع زوجات، واحدة مسيحية وثلاث مسلمات، واحدة منهن تسكن في القدس والأخرى في دمشـق وواحدة في عسـقلان، وعندما يتـم اختيارهن ينتقلن إلى مـدن أخـرى حيث يمكن للسـلطان أن يزورهن. كما له من العشـيقات مـا أراد، حيث كان يجلـب المواليـد الجديـدة ذوات الاصـول النّبيلـة والبنات الجميـلات ويبقيهن عنـده ليخدمنه بإخـلاص. وعندما يريد إحداهن لتنام معـه، يجلبهن جميعاً وينتقي من بينهـن من تشـبع رغباته أكثر، ويرسـل لها فيما بعـد خاتماً من إصبعه. وبعدها تغتسـل وتتحلّى بأفخر أنواع الملابس والحلي وتتعطر بأحلى أنواع العطور ثم تؤخذ إلى غرفة السُّلطان، ويفعل كذلك كلما أراد أن ينتقي واحدة من هؤلاء النّساء.

لا أحـد مـن الغربـاء يأتي إلـى حضـرة السُّـلطان إلا إذا كان مرتدياً قماشـاً ذهبياً أو تتريّـاًTartary أو مـن الكمخـة Camaka ومرتديـاً بنفـس الطّريقـة التـي يرتـدي بهـا المسـلمون. وفيما بعد يتوجب على من رأى السُّـلطان عندما يطلّ من نافذة أو من أي مكان آخر أن يركع ويقبّل الأرض، وهذا تعبير عن التبجيل والامتنان للسلطان بأنه تكلّم معهـم. وعندما تأتي رُسـل بلاد أخرى لمقابلة السُّـلطان فهم يتجرّدون من أسـلحتهم ويضعونهـا أرضاً، وتُرفع هذه الأسـلحة بعيداً لتُضرب بها رؤوسـهم في حال فعلوا أو قالوا شيئاً يغضب السُّلطان، كما أن لا أحد من الغرباء يقابل السُّلطان، ولكنه يلبّي لهم طلباتهم ويعطيهم الهدايا، إذا ما طلبوا شـيئاً معقولاً وغير مخالف لدينه، وكذلك يفعل الأمراء في البلاد الأخرى، فلا يجوز لأيّ غريب أن يقابل الأمير، ولكنه ينبغي أن يكون مسروراً ويخرج أسعد ممّا أتى، وذلك لكثرة الهدايا التي يأخذها.

وللعلم بأن بابل هذه التي تكلمت عنها حيث يقيم السُّلطان، ليست هي بابل العظيمة حيث كان تعدّد اللغات معجزة الله وانتقامه، حيث كان برج بابل العظيم قد بُدئ العمل فيه وكان طول جدرانه أربعة وستين فرلنغاً[1]، وهو يوجد في الصّحراء العربية الكبرى،

(1) الفرلنغ مقياس قديم يعادل ثُمن الميل.

حيث الطّريق التي يذهب فيها النّاس باتجاه المملكة الكلدانية. ولكنها طويلة جداً حيث أن أي رجل لا يجرؤ على الخروج من البرج لأن كل الصّحراء مليئة بالوحوش والأفاعي الضخمة، ومليئة بالحيوانات السّامة. وهذا البرج مع المدينة عبارة عن دائرة من الجدران على امتداد خمسة وعشرين ميلاً كما يقول النّاس، وهذا الاعتقاد على الأغلب هو تقديري ولكن النّاس تناقلته من بعضها.

وبالرغم من أنه يدعى برج بابل فإنه مؤلف من عدة منازل وعدة أماكن للسكن على الطّول والعرض. وهذا البرج يحتوي على بلدة كبيرة بشكل دائري، أما البرج وحده فمساحته الدّاخلية ميل مربع.

ولقد بنى البرج الملك نمرود Nimord وهو كان ملك هذه البلد، وقد كان ملك العالم الأول. وقد أمر برسم صورة على هيئة والده وقد ألزم كل رعاياه بعبادتها، ومن بعده اعتاد الملوك أيضاً فعل الشّيء ذاته وهكذا بدأت أول الأصنام والتماثيل.

كانت المدينة والبلدة مليئتين وموجودتين في بلد جميل يسمّيه النّاس بلد السّمر، وكانت جدران المدينة فيه بارتفاع مئتي ذراع وعمقها خمسون ذراعاً، ونهر الفرات يجري من خلال المدينة وقريباً من البرج أيضاً. ولكن قورش ملك الفرس أخذ منهم النّهر ودمّر كل المدينة والبرج أيضاً، وقسم النّهر إلى 360 نهراً صغيراً، لأنه كان قد أقسم بأن يصنع النّهر بهذا الشّكل وذلك لكي تتمكن النّسوة من المرور دون خلع ملابسهن، وذلك لأنه خسر الكثير من الرّجال المعتبرين أثناء عبورهم هذا النّهر سباحة.

تستغرق الرّحلة من بابل حيث يسكن السُّلطان مباشرة بين الشّرق والشّمال باتجاه بابل العظيمة أربعين يوماً حيث يعبر خلالها الصّحراء. ولكنها ليست جزءاً من أرض بابل العظيمة التي هي تحت سلطة السُّلطان Soldan المذكور سابقاً ولكنها تحت سيطرة الحاكم الفارسي، غير أنه يحافظ عليها لصالح الخان Chan الأعظم، الذي هو أكبر إمبراطور وأعظم حاكم في كل الأراضي التي وراء ذلك. كما أنه الملك على جزر كاثاي Cathay وعدة جزر أخرى وجزء كبير من الهند Ind. كما أن أرضه تمتدّ حتى

أرض يوحنّا الكاهن[1] Prester John الذي هو بدوره يمتلك الكثير من الأراضي حتى أنه لا يعرف أيّة نهاية لها، كما أنه أقوى وأعظم ولا مجال للمقارنة بينه وبين السُّلطان، من حيث ممتلكاته الملكية وسلطته، وخاصة سلطته الكاملة على بلاد الهند Ind.

كما أن مدينة مكّة حيث دفن محمّد هي إحدى أقدس الأماكن في الصّحراء العربية وهناك يرقد جثمانه[2]، ويحظى هذا المكان بكثير من التبجيل التشريف من قبل المسلمين ويدعونه المسجد[3] Musketh، وهو يستغرق رحلة اثنين وثلاثين يوماً من بابيلون[4] حيث يسكن السُّلطان حتى أرض مكة.

ومن الطّريف أن حكم جزيرة العرب يمتدّ على رقعة كبيرة من الأرض، ولكن هذا المكان مليء بالصحارى ولا يوجد أحد يسكن هذه الصّحارى وذلك لعدم وجود الماء ولأن هذه الأرض مليئة بالحصى والرّمال. كما أنها جافة ولا يوجد أي شيء مثمر فيها وهذا لعدم وجود رطوبة ولذلك يوجد الكثير من الصّحارى. ولو كانت توجد أنهار وآبار كما هي الحال في الأجزاء الأخرى من البلاد لكانت مليئة بالناس والسّكان، وهذا ما يجعل المناطق الأخرى القابلة للسكن مكتظة بالناس.

---

(1) يوحنّا الكاهن ملك مسيحي أسطوري، يُزعم أنه كان يحكم آسيا الوسطى أو إثيوبيا في القرون الوسطى. ترجع هذه الحكاية الأسطوريّة إلى القرن الثاني عشر الميلادي، ويُعتقد أنها وضعت من قبل الصليبيين المعزولين عن بلادهم في المشرق، وكانوا يرتقبون أي دعم من تلك الأراضي الغامضة في آسيا. وظلّ رحّالو الغرب، وأولهم ماركو پولو، يبحثون عن بلاد هذا الملك الأسطوري دون جدوى. ويُعتقد أنّ أصل نسبة هذا الملك تعود غالباً إلى بعض الغزاة المغول الذين أفاد الصليبيّون من غزواتهم في المشرق الإسلامي، فربما حرّف بعض النّساطرة الحكاية على هذا النحو.

(2) يشيع هذا الاعتقاد الخاطئ لدى الكثير من الرّحّالين الغربيين في القرون الوسطى، فالرّسول عليه أطيب الصّلاة والسّلام مدفون كما هو معلوم بالمدينة المنوّرة.

(3) يذكر ماندڤيل كثيراً من التسميات العربية بصورة ركيكة، لكن على اعتباره واحداً من الرّحالين الباكرين يبقى ذلك أمراً مقبولاً. إنما عند ذكره لسلاطين المماليك في القاهرة يثبت لنا أنه زار مصر فعلاً وكان شاهد عيان لا مجرّد ناقل عن بُعد كما اتُّهم. أيضاً نلاحظ أنه يلفظ تسمية المسجد Musketh بجيم مصريّة، ممّا يدلّ على أنه استقى معلوماته هذه عن الحجاز في القاهرة.

(4) يقصد القاهرة كما ذكر أعلاه.

تمتدّ جزيرة العرب ابتداء من أطراف مملكة الكلدان حتى نهاية أفريقيا، وتصل حتى جزيرة Idumea حتى نهاية Botron، والمدينة الرّئيسية في الأراضي الكلدانية هي بغداد والمدينة الرّئيسية في أفريقيا هي قرطاج والتي أنشأتها ديدو Dido زوجة إنياس Eneas الذي كان في مدينة طروادة والذي هو كان بعد ملك إيطاليا.

تمتدّ بلاد ما بين النّهرين حتى صحراء جزيرة العرب وهي بلاد كبيرة، وفي هذه البلد توجد مدينة حرّان Haran حيث سكن والد إبراهيم وهناك حنث بالتزامه وصية الملاك. ومن هذه المدينة كان إفرايم Ephraim الذي كان كاتباً كبيراً وطبيباً عظيماً كما أن ثيوفيلوس Theophilus كان منها، وأيضاً هناك نجت سيدتنا العذراء من عدوّنا. وتمتدّ أرض ما بين النّهرين من نهر الفرات حتى نهر دجلة على كل الأرض الممتدة ما بين هذين النّهرين.

وما وراء نهر دجلة تقع أراضي كلدان وهي مملكة عظيمة، وفي هذه المملكة عند بغداد التي ذكرتها سابقاً اعتاد أن يسكن الخليفة، الذي يُعدّ بمثابة الإمبراطور والبابا للبلاد العربية، وكذلك أصبح الرّئيس الرّوحي والديني وخليفة محمّد، ومن سلالته. وكانت قد جرت العادة أن تسمّى مدينة بغداد هذه باسم Sutis والذي كان أنشأها نبوخذ نصر. وهناك أيضاً سكن دانيال الرّسول الكريم، وهناك رأى صوراً للجنة وهنالك شاهد الأحلام.

وفي الماضي كانت العادة وجود ثلاثة خلفاء فقط، واحد في الأراضي العربية والكلدانية يسكن في مدينة بغداد المذكورة سابقاً، وواحد يسكن في القاهرة بجانب بابل وهو خليفة مصر[1]، وفي المغرب على البحر الغربي يسكن خليفة شعب البربر والأفارقة. والسّبب بعدم وجود أي من الخلفاء منذ ذلك الحين هو أنّه منذ عصر السُّلطان صلاح الدين جرت العادة للسّلطان بأن يسمّي نفسه خليفة أيضاً[2]، وهكذا فقد الخلفاء لقبهم.

---

(1) يقصد ماندڤيل بذلك الخلفاء الفاطميين في القاهرة.

(2) هذا كلام غير صحيح بالطبع، فقد كان ملوك بني أيّوب ومن بعدهم المماليك يتخذون لقب السّلطان أو الملك، ويدعون للخليفة العباسي الموجود في بغداد، وذلك على اعتبار شرافة بني

والطريـف أيضاً أن بابل الدنيا حيث يسـكن السُّـلطان وحيث مدينـة القاهرة قريبة، يوجـد الكثير من المدن الجميلة والكبيرة وتقع الواحدة بقرب الأخرى، تقع بابل على نهر قيشون Gyson الذي يسمّى أحياناً نهر النّيل والذي خرج من الجنة الموجودة على الأرض.

نهر النّيل هذا خلال السّـنة عندما تدخل الشّمس برج السّرطان يبدأ بالازدياد ويبقى بازدياد ما دامت الشّـمس في برج السّرطان، وعندما تدخل الشّمس برج الأسد إذا بقي يـزداد بنفـس الطّريقـة يصبح كبيراً جـداً بعمق حوالي عشـرين ذراعاً أو أكثـر، وبعدها يسـبّب ضـرراً كبيراً للأراضي التي حوله، وعندها لا يتمكـن أحد من النّاس من العمل في الأرض أو حراثتها وذلك بسـبب المياه الكثيرة، ولهذا يكون فعلاً وقتاً عصيباً على البلاد.

وأيضـاً عندمـا يقلّ النّهـر يكون وقتـاً عصيباً على البـلاد وذلك لعدم وجـود المياه الكافيـة، وعندمـا تدخل الشّـمس برج العذراء يبدأ النّهر بالنقصان شـيئاً فشـيئاً وهكذا وعند دخول الشّمس برج الميزان تنحسر مياه النّهر. هذا النّهر يخرج من الجنة الأرضية بيـن صحـارى الهند Ind ثم يندفع عبر الأرض ويجـري وقتاً طويلاً عبر عدة بلاد كبيرة تحـت الأرض وبعدها يخرج من تحت هضبة عالية يسـمّيها االناس Alothe وهي بين الهنـد Ind وإثيوبيـا على ارتفاع رحلة خمس أشـهر بعد دخول إثيوبيـا، وبعدها يحيط بكامل إثيوبيا وموريتانيا، ويسـتمرّ بالمسـير من أرض مصر مروراً بمدينة الإسـكندرية حتى نهاية مصر وهناك يصبّ في البحر. وحول هذا النّهر الكثير من العصافير والطّيور مثل اللّقلق sikonies الذي يدعونه Ibes.

* * *

العبّاس وقرابتهم للرّسول عليه الصّلاة والسّلام.

الفصل السّابع

عن مصر وعن طائر العنقاء في البلاد العربية
وعن مدينة القاهرة
وعن الطّريقة التي تعرف بها البَلسَم وتثبت نقاءه
وعن أهراء يوسف

مصـر بلد طويل ولكنه مسـتقيم، وبذلـك يمكنك القول بأنه ضيّـق وذلك لأنهم لم يتوسـعوا باتجـاه الصّحـراء لقلة المـاء. يمتدّ البلد علـى طول نهر النّيل، وبسـبب كثرة المصـادر التـي تغذي هذا النّهر من الفيضانات والمصـادر الأخرى، فهو يفيض خارج مجـراه علـى طـول البلاد. لا تمطر كثيراً في هـذا البلد، ولهذا فليـس لديهم ماء إلا من طوفـان هـذا النّهر، وبسـبب قلـة الأمطار في هـذا البلد فإن الجـو دائماً صـافٍ ونقي، ولهذا ازدهر في هذا البلد علـم الفلك، لعدم وجود غيوم تحجب السّماء، وأيضاً مدينة القاهرة مدينة حقاً جميلة وكبيرة، حتى أنها أكبر من بابل الدّنيا التي تقع في الجهة العليا للصحراء السّورية وفوق النّهر المذكور آنفاً بقليل.

فـي مصر هناك إقليمـان: الإقليم الأعلى الذي هو باتجاه إثيوبيا، والإقليم الأسـفل الذي هو باتجاه جزيرة العرب. ومصر هي أرض رعمسيس وأرض جاسان Goshen. ومصر بلد قوي وذلك لأن فيها مآمن صلبة وذلك بسبب الصّخور الكبيرة والقوية التي يعتبـر المرور فيما بينها خطراً. وفي شـرق مصر يوجد البحـر الأحمر، الذي يمتدّ على طـول مدينـة Coston، وفي غربهـا تقع ليبيا التي تكثـر بها الأراضي الجافـة وبها قليل

من الفواكه، وذلك بسبب الحرارة الشّديدة، وسمّيت هذه الأرض Fusthe، وباتجاه الجنوب تقع إثيوبيا. أما باتجاه الشّمال فتكون الصّحراء التي تمتد في سوريا، وكذلك نرى بأن البلد محصّن من جميع أطرافه. وهو خمسة عشر يوماً من السّفر وأكثر من ضعفي ذلك من الصّحراء، ولكن لا يتجاوز اتساعها غير مسافة رحلتين. وبين مصر والنّوبة Nubia يوجد صحراء على مساحة أحد عشر يوماً من السّفر، وأهل النّوبة مسيحيون ولكنهم سود مثل المغاربة Moors من شدة حرارة الشّمس.

يوجد في مصر خمسة مقاطعات: إحداها الصَّعيد Sahythe، والأخرى Demeseer، والأخرى رَشيد Resith، التي هي جزيرة في نهر النّيل، والأخرى الإسكندريّة Alexandria، والأخرى أرض دمياط Damietta.

كانت هذه المدينة (دمياط) قوية ومحصّنة، ولكن غنمها المسيحيون مرتين، ولذلك فيما بعد هدم المسلمون أسوارها، ومع الأسوار هدموا البرج، وبنوا مدينة أخرى أكثر بعداً عن البحر وأسموها دمياط الجديدة، ولهذا الآن لا يوجد أحد يسكن في دمياط القديمة التي تقع أسفل دمياط الجديدة. وفي مدينة دمياط هذه واحد من أهم المرافئ في مصر وفي الإسكندرية واحد أخر. وهي بلد مليئة بالمدن الحصينة، ولكن لا يوجد ماء للشرب بل يؤتى بالماء من النّيل الذي يدخلونه إلى مدنهم حيث لا يمكن لهم البقاء هناك إذا قطعت هذه الماء عنهم. وفي مصر يوجد القليل من الحصون forcelets، لأن هذه البلد منيعة بذاتها.

في صحراء مصر كان يوجد رجل جدير بالاهتمام، وكان ناسكاً مقدّساً، قابل يوماً وحشاً (المقصود بالوحش هنا مخلوق مزيج من الجنس البشري والحيواني، ومن الممكن أن يكون من جنس آخر وهذا هو الذي يسمّى وحشاً) فهذا الوحش الذي التقاه النّاسك المقدّس كان كرجل له قرنان حادّان على جبهته وله جسم كجسم الإنسان حتى السّرّة، وتحت السّرّة له جسم ماعز.

سأله النّاسك عما كان عنه قبل ذلك، فاجاب الوحش بأنه كان مخلوقاً مميتاً حيث أن الله جعل هيئته كذلك وسكن في هذه الصّحارى ليصطاد ويحصّل رزقه. وتوسّل

إلى النّاسك بأن يصلّي لله من أجله، وبالذي أتى من الجنة لينقذ الجنس البشري كله، وكان ولد من عذراء وقاسى من العذاب والموت (كما نعرف جيداً) اللذين بهما نعيش ونكون. ومازال الرّأس مع قرني هذا الوحش في الإسكندرية كمعجزة.

في مصر توجد مدينة هليوپوليس التي يقال إنها مدينة الشّمس، وفي هذه المدينة يوجد معبد دائري الشّكل على هيئة معبد القدس. وأحبار هذا المعبد لديهم كل كتاباتهم المؤرخة بتاريخ الطّير الذي يسمّى العنقاء، والذي لا يوجد غير طير واحد منه في العالم. والذي أتى ليحرق نفسه على المذبح في هذا المعبد في نهاية الخمسمئة عام التي عاشها. وعند نهاية هذه الخمسمئة سنة رتب القدّيسون مذبحهم بإخلاص، ووضعوا عليه البخور والكبريت وأشياء أخرى تحترق شيئاً فشيئاً وبعدها أتى طائر العنقاء وأحرق نفسه حتى أصبح رماداً.

وفي اليوم الأول بعدها وجد النّاس في الرّماد دودة وفي اليوم الثّاني وجدوا طائراً كاملاً وسريعاً وفي اليوم الثّالث طار بعيداً. ولهذا لا يوجد في العالم كله طيور أخرى من هذا النّوع، وفعلاً كانت معجزة كبيرة من الله، حتى أن النّاس ينسبون هذا الطّير إلى الله، لأنه في ذاك الوقت كان لا يوجد غير إله واحد، وكذلك كان سيّدنا قد أفاق من الموت إلى الحياة في اليوم الثّالث. يرى النّاس هذا الطّير غالباً يطير في هذه البلدان وأنه ليس أكثر من نسر، كما أن لديه عرفاً من الرّيش فوق رأسه أكبر من الذي على رأس الطّاووس، كما يوجد لون أصفر زاهٍ على رقبته يلتمع بشكل كبير، ومنقاره ملوّن باللون الأزرق وأجنحته باللون الأرجواني، وذنبه مائل وملون باللون الأخضر والأصفر والأحمر. وهو طير رائع الجمال وخاصة عندما تنعكس أشعة الشّمس عليه فيظهر بمظهر رائع ومبهر للناظرين.

ويوجد أيضاً في مصر حدائق فيها أشجار وأعشاب تطرح فواكه سبع مرات في السّنة، وفي هذه الأرض يجد النّاس الكثير من الزّمرد الرّائع ولهذا نجده رخيص الثّمن هناك، وأيضاً فيما إذا حدث وأمطرت في الصّيف على أرض مصر، تصبح كل البلاد مليئة بالوحل، وأيضاً في القاهرة التي حدثتكم عنها مسبقاً يبيع النّاس بشكل شائع

الرّجـال والنّسـاء وفق قوانين متبعـة هناك، كما نبيع نحن الحيوانات هنا في الأسـواق، كما يوجد هناك في تلك المدينة بيت مشـترك مليء بالأفران الصّغيرة حيث تأتي نسـاء المدينـة إلـى هناك ببيض[1] الدّجاج والأوز والبط ليوضـع في هذه الأفران، ويبقى هذا البيـت مغطى بروث الأحصنـة ليبقى دافئاً، دون أن يحضنه الدّجاج أو البط أو الإوز أو أي نـوع آخر مـن الطّيور، وفي نهاية ثلاثة أسـابيع أو في نهاية الشّـهر يأتون مرة أخرى ويأخذون دجاجاتهم، ولهذا تجد كل البلد حافلة بها، ويفعل النّاس ذلك صيفاً شتاءً.

وأيضـاً فـي ذلك البلـد وفي بلاد أخـرى أيضاً يجـد النّـاس تفاحاً طويـلاً للبيع في مواسـمهم، والنّاس يسـموه تفاح الجنة وهو حلو جداً وله نكهـة لذيذة، بالرغـم من أنه لا يمكـن تقطيـع التفاحة إلى أجزاء صغيرة طولياً أو عرضياً، كما يمكنك أن تجدها من ضمن شـكل صليب سـيّدنا المسـيح المقدّس، ولكن هذه الثّمرة تتعفـن خلال ثمانية أيـام، ولهـذا لا يحملها النّاس لبلاد بعيـدة، يضعها النّاس أكوام بالمئات منها في سـلة ولديهم الكثير من الأوراق في الأسفل ولنصف الطّول، ويجمعوها بشكل كبير. ويجد النّاس أيضاً شـجرة تفاح آدم[2] التي يوجد عليهـا قضمة واحدة من الطّرف. كما يوجد شـجر التيـن الذي يطـرح دون أوراق، كما يوجد أيضـاً تين ينمو علـى أغصان صغيرة ويسمّيه النّاس تين الفرعون.

أيضـاً بالقـرب من القاهرة وخارج هـذه المدينة توجد الحقول التي تمتلئ بالبَلسَـم balm، وهي تنمو على أشجار صغيرة لا يتجاوز طولها زنار خصر رجل، وتبدو وكأنها خشب دالية برية. وفي الحقل توجد الجدران السبعة التي صنعها سيّدنا المسيح بقدمه عندمـا ذهـب ليلعب مع الاطفال. وهـذا الحقل ليس مغلقاً جيـداً فتتمكن من الدخول للوصـول إلى أغراضها، ولكن في هـذا الفصل الذي ينمو فيه البَلسَـم يضاعف النّاس

(1) يستعمل ماندڤيل كثيراً من التعابير القديمة، ومنها هنا: البيض eyren، جمع ey.

(2) يذكر الرحّالون الغربيون هذا النوع من الثمار مراراً لغرابته، وهو يعرف أيضاً بالبرتقال الصيني والهندي Maclura، ويبلغ ارتفاع شجرته حوالي 20 متراً، والثمرة كبيرة ذات قشرة برتقاليّة مخضرّة مجعدة، واللبّ سميك وكثير البذور. وهي تنمو في أوزبكستان وتركستان والقفقاس وشبه جزيرة القرم.

الحماية للحقل حتى أنه لا يجرؤ أحد على الدخول.

لا ينمو هذا البَلسَم في أي مكان آخر بالرغم من أن بعض النّاس حاولوا أن يأخذوا بعض الشّتلات ليزرعوها في بلاد أخرى لتنمو بشكل جيد وصحّي وتطرح ثمراً، ولكن أوراق البَلسَم لم تسقط فكان النّاس يقطعون هذه الأغصان بحجر صوّان flintstone حادّ أو بعظم حاد، لأنه إذا أراد أحد أن يقطعة بالحديد تنكسر الأداة التي يقطع بها والشّجرة.

ويسمّي المسلمون الخشب *Enonch-Balse* والثمار التي تشبه cubebs يسمّونها *Abebissam* والسّائل الذي يخرج من الأغصان يسمّونه *Guybalse*. ودائماً يأتي النّاس هناك بالمسيحيين ليحرثوا ويزرعوا البَلسَم، وإلا فإنها لن تعطي ثمارها كما قال المسلمون أنفسهم، والتي أثبتت غالباً، وقال النّاس أيضاً بأن البَلسَم ينمو في الهند Ind غالباً في تلك الصّحراء، وكان الإسكندر تكلم عن شجر الشّمس والقمر، ولكني لم أرَ هذا، وذلك لأني لم أذهب بعيداً إلى الأعلى حيث يوجد الكثير من الممرّات الخطرة.

ومن الطّريف أنه يتوجب على المرء أن يكون حريصاً عند شراء البَلسَم، وينبغي أن يكون لديه خبرة فيه، لأنه من الممكن أن يُخدع ببساطة، وذلك لأن النّاس يبيعون ما يسمّى التربنتين turpentine عوضاً عن البَلسَم، ويضعون بعض البَلسَم ليعطي فقط رائحة جميلة. وبعضهم يضع الشمع في زيت خشب ثمار البَلسَم ويقولون بأنه البَلسَم، وبعضهم يستخلص من فصوص القرنفل gilofre ومن النّاردين spikenard من إسبانيا ومن بهارات أخرى تعطي رائحة عطرة، والسّائل الذي يخرج منه يسمّونه البَلسَم، ويظنون أن لديهم بيلسان ولكن ليس لديهم منه أي شيء. وقد زوّره المسلمون بدقة ليخدعوا المسيحيين، كما رأيت عدّة مرات، وكذلك يفعل التجار والصّيدلانيون الذين يزوّرونه أيضاً. ولذلك يصبح أقل قيمة ولا يستحق ثمنه.

وينبغي لي أن أشرح لكم كيف بإمكانكم إثبات النّوع الجيد، كي لا يتمّ خداعكم، فيجب عليكم عمل التالي: أولاً يجب عليكم العلم جيداً بأن البَلسَم الطّبيعي صافٍ جداً ولونه بلون الكبّاد وله رائحة قوية، وإذا كان سميكاً وأحمر أو أسود فهذا يعني أنه

ليس بالنوع الجيد، أو حتى بالإمكان القول بأنه ليس حقيقي، ولكنهم قلّدوه لخداع النّاس، ولعلمكم أنه إذا وُضِع قليلٌ من البَلسَم في كفّ اليد وعُرّض للشمس فإذا كان من نوع جيد وأصلي لن تشعر بأي ألم في يدك نتيجة تعرضها للشمس، وأيضاً يمكنك أخذ قليل من البَلسَم برأس السّكين وقربّه من النار، فإذا احترق فهذه علامة جيدة. كما بإمكانكم أخذ نقطة من البَلسَم ووضعها في صحن أو في كأس مع حليب ماعز، فإذا كان البَلسَم طبيعياً فإن الحليب سيفقد تماسكه بعد قليل. أو ضع نقطة من البَلسَم في مياه صافية في كأس من الفضة أو في إناء شفاف، حركها جيداً مع مياه صافية فإذا كان البَلسَم نقياً وغير مخلوط مع شيء آخر فإن الماء لن يتعكّر أبداً ولكن إذا كان البَلسَم مخلوطاً أو مغشوشاً، فان الماء سيتعكر بعد قليل من الوقت، وأيضاً إذا كان البَلسَم نقياً يجب أن يترسّب في أسفل الإناء مثل ما يحدث مع الزّئبق، وذلك لأن البَلسَم النّقي أثقل مرتين من البَلسَم المغشوش والممزوج. وهذا كل شيء عن البَلسَم.

* * *

والآن يجب أن أخبركم عن شيء آخر وراء بابل، أعلى نهر النّيل باتجاه الصّحراء التي بين أفريقيا ومصر، يوجد هري يوسف الذي صنعه ليخزن الحبوب خوفاً من السّنوات العجاف، ولقد صنعه من الحجر وبُني بحرفية عالية حيث كان بناء رائعاً وعالياً ولا يوجد ما يماثله في ضخامته، وكل هري له بوابة للدخول إليه وهي أعلى قليلاً من الأرض، وذلك لأن الأرض قد هبطت منذ الحين الذي بنيت فيه هذه الأهراء. وهي مليئة بالأفاعي. أما فوق المخازن من الخارج فيوجد الكثير من الكتابات المقدّسة مكتوبة بعدة لغات حتى بعض النّاس قالوا بأنها تضمّ أضرحة لملوك عظماء عاشوا في أزمنة غابرة، ولكن هذا ليس حقيقياً فكل أقاويل النّاس هناك القاصي منهم والدّاني تدلّ على أنّ هذه ليست إلا أهراء يوسف، وهذا ما وجدوه في كتبهم المقدّسة وفي تواريخهم المكتوبة. ومن جهة أخرى إذا كانت فعلاً أضرحة، لكان عليهم عدم طمسها، ذلك أنها ليس لها أي باب للدخول إلى داخلها. ولأنه كما تعلمون لا تُشيّد الأضرحة عادةً بهذه الضخامة ولا بذاك العلو، ولذلك لا يمكن التصديق بأنها قبور أو أضرحة.

وفـي مصـر أيضاً توجد لغـات مختلفة وأحـرف مختلفة، لا يمكـن أن تراها في أيّ مكان آخر، ويجب علي أن أطلعكم على أشـكالها وأسـمائها لتعرفوا الفرق بينها وبين اللغات الأخرى:

Athoimis, Bimchi, Chinok, Duram, Eni, Fin, Gomor, Heket, Janny, Karacta, Luzanin, Miche, Naryn, Oldach, Pilon, Qyn, Yron, Sichen, Thola, Urmron, Yph and Zarm, Thoit.

* * *

الفصل الثامن

عن جزيرة صقلية وعن الطّريق من بابل إلى جبل سيناء وعن كنيسة القدّيسة كاثرين وعن كل العجائب هناك

الآن وقبل أن أخبركم بأي شـيء آخر، سأعود وأعرض عليكم الطّرق الأخرى التي تذهب باتجاه بابل[1] حيث يسـكن السُّـلطان والتي هي عند مدخل مصر، حيث يذهب كثيـر مـن النّاس من طريق أبعد من هذا، يمرّ بجبل سـيناء، وبعدها يعودون إلى القدس كمـا ذكرت لكم مسـبقاً، وذلك لكي يقومـوا بالحجّ الأطول وبعدهـا يعودون ثانية من الطّرق الأخرى، لأن أقرب الطّرق هي الأفضل والتي هي طريق القدس، ولا يوجد أي حجّ آخر يمكن مقارنته بهذا الحجّ. ولكنهم ليقوموا بحجّهم بأمان أكثر فإنهم يفضلون الذهاب من الطّريق الأبعد بدلاً من الطّريق الأقرب.

أمـا أولئـك الذين سـيذهبون إلى بابل مـن طريق أخـرى أقصر، فيذهبـون من بلاد فـي الغرب وكنـت قد كرّرت ذكرها سـابقاً، أو من بـلاد أخرى قريبة منهـم فإن النّاس يذهبـون من فرنسـا عبر مقاطعة بورغونديـا أو مقاطعة لومبارديـا. وليس من الضرورة إخباركـم بأسـماء المدن والبلدات التـي في طريقهم، لأنها طريق شـائعة ومعروفة من

(1) ذكرنا أعلاه أنّ تسمية بابل أو بابليون Babylon كان يطلقها الرّحالون الغربيّون في القرون الوسطى على مدينة الفسطاط شمالي القاهرة، التي أسّسها عمرو بن العاص بعد فتح مصر عام 641 م وكانت قرب حصن قديم يُعرف باسم بابليون، ويقع في القاهرة القبطيّة وأصل بنائه يعود للإمبراطور تراجان في القرن الثاني للميلاد.

قبل كثير من النّاس. وهناك يوجد الكثير من المرافئ حيث يستطيع النّاس منها ركوب البحر. بعض النّاس يركب البحر من جنوا Genoa وبعضهم من البندقية ويمرون عبر البحر الأدرياتيكي، الذي يدعى خليج البندقية والذي يمرّ بإيطاليا واليونان من الطّرف ذاته، وبعضهم يذهب من نابولي بعضهم إلى روما ومن روما إلى برينديزي ومن هناك يركبون البحر، ومن أماكن كثيرة أخرى حيث توجد هذه المرافئ، كما يذهب النّاس من توسكانا أو من كامپانيا، من كالابريا وپوليا، ومن تلال إيطاليا، أو من كورسيكا وسردينيا أو من صقلية، التي هي جزيرة جيدة وكبيرة.

في جزيرة صقلية هذه يوجد شكل معيّن للحدائق، التي يوجد بها العديد من الفواكه المتنوعة، والحديقة دائماً خضراء ومزهرة، في كل فصول السّنة في الشّتاء كما الصّيف. يبلغ محيط هذه الجزيرة حوالي 350 ميلاً فرنسياً. وبين صقلية وإيطاليا يوجد فقط مسافة قصيرة في البحر يدعوها النّاس Farde of Messina. وصقلية بين البحر الأدرياتيكي والبحر اللومباردي. ومن صقلية إلى كالابريا فقط خمسة أميال لومبارديّة.

وفي صقلية يوجد نوع من الأفاعي يستخدمها النّاس لإثبات فيما إذا كان أبناؤهم شرعيين أم لا، وإذا كانوا قد ولدوا نتيجة زواج شرعي صحيح، فإذا كانوا قد ولدوا نتيجة علاقة شرعية فإن الأفاعي تذهب من حولهم ولا تصيبهم بأي أذى، ولكن إذا كانوا من علاقة غير شرعية فإن الأفاعي تنهشهم وتسمّمهم. وبهذه الطّريقة يثبت كثير من الرّجال حقيقة نسب أبنائهم إليهم.

وأيضاً في هذه الجزيرة يوجد جبل إتنا Etna الذي يسمّيه النّاس جبل Gybelle والذي تنطلق منه البراكين المحرقة دائماً، وهناك يوجد سبعة أماكن محرقة وتطلق العديد من اللهب المختلف الأنواع والألوان، وبتغيّر هذا اللهب يعرفون متى يكون شحّ في الغذاء ومتى سيكون موسمٌ جيد، أو متى يكون بردٌ أو حرّ أو رطوبة أو جفاف، وحول تغيّر المناخ في جميع الأوقات. والمسافة من إيطاليا إلى هذه البراكين لا تبعد أكثر من خمسة وعشرين ميلاً. ويقول النّاس بأن هذه البراكين هي طرق إلى جهنم.

والذي يذهب من پيزا، إذا أراد النّاس الذهاب من هذا الطّريق فإنه يجد فرعاً من

البحر حيث يذهب هؤلاء النّاس إلى المرافئ عبر هذه المضائق. وبعدها يعبر النّاس عبر جزيرة Greaf التي هي في Genoa وبعد أن يصلوا إلى اليونان عبر ميناء مدينة Myrok أو عند مرفأ Valone أو عند مدينة دوراس Duras حيث يوجد دوق في دوراس Duras، أو عبر أيّ من المرافئ الأخرى في هذه المضائق، وبنفس الطّريقة يذهب النّاس إلى القسطنطينية. وبعدها يذهب النّاس عبر الماء إلى جزيرة كريت Crete وإلى جزيرة رودوس وكذلك إلى قبرص وإلى أثينا أيضاً ومن هناك إلى القسطنطينية.

ولاتّباع الطّريق الأصح عبر البحر، فإنها ألف وثمانمئة وأربع أميال لومبارديّة، وبعدها من قبرص يذهب النّاس عبر البحر ويتركون القدس وكل البلد إلى جهتهم اليسرى متوجّهين إلى مصر، ثم تصل إلى مدينة دمياط التي ليست محصّنة جيداً والتي تقع عند مدخل مصر. ومن دمياط يذهب النّاس إلى مدينة الإسكندرية التي تطل على البحر. وفي هذه المدينة قطع رأس القدّيسة كاثرين، وهناك قتل ودفن القدّيس والمبشر مرقس، ولكن الإمبراطور ليو جلب عظامه إلى البندقية.

وحتى الآن توجد كنيسة جميلة في الإسكندرية، كلها بيضاء ولا توجد فيها أيّة رسوم وكذلك كل الكنائس الأخرى التي كانت للمسيحين، كلها بيضاء من الداخل وكان الوثنيّون Paynims والمسلمون جعلوها بيضاء ليخفوا صور القدّيسين التي كانت مرسومة على الجدران. مدينة الإسكندرية هذه يبلغ طولها ثلاثين فرلنغاً ولكنها عرضها يبلغ فقط عشرة فرلنغات[1]، وهي فعلاً مدينة جميلة وجليلة. وعند مدخل المدينة يصبّ نهر النّيل في البحر الذي أخبرتكم عنه سابقاً، في هذا النّهر يجد النّاس الكثير من الأحجار الكريمة والصّبار lignum أيضاً، وهي نوعية من الشّجيرات التي أتت من الجنة الأرضية، يستفاد منها في صناعة الكثير من الأدوية المختلفة وهي فعلاً قيّمة. ومن الإسكندرية يذهب النّاس إلى بابل، حيث يسكن السُّلطان، التي تقع على نهر النّيل، وهذه الطّريق هي الطّريق الأقصر للذهاب إلى بابل.

الآن يجب أن أخبركم أيضاً عن الطّريق التي تذهب من بابل إلى جبل سيناء حيث

(1) الفرلنغ مقياس قديم يعادل ثُمن الميل.

ترقد القدّيسة كاثرين. والتي تمرّ عبر الصّحارى العربية، وفيها قاد موسى بني إسرائيل، وبعدهـا يعبـر النّـاس بقرب مـن البئر الـذي حفره موسـى بيديه في الصّحـارى، حيث تذمّـر النّاس عندما لـم يجدوا شـيئاً ليشـربوه، ومرّوا بقرب بئـر Marah الذي كان ماؤه في البداية مرّ الطّعم، ولكن بني إسـرائيل وضعوا فيه شـجرة وفيما بعد أصبحت الماء حلوة ومناسبة للشرب. وبعدها يذهب النّاس إلى وادي Elim الذي يوجد فيه اثنا عشر بئـراً، كما توجد اثنتان وسـبعون شـجرة نخيل تطرح التمر الذي وجده موسـى مع بني إسرائيل، والرّحلة من هذا الوادي إلى جبل سيناء تعتبر فعلاً رحلة طويلة.

والذي يذهب من طريق أخرى من بابل يذهب عبر البحر الأحمر الذي هو فرع من البحر المحيط. وهناك عبر موسـى مع بني إسرائيل فوق البحر الجاف، عندما لاحقهم فرعـون ملـك مصـر، وهذا البحـر يبلغ من الطّول سـتة أميـال وفيه غـرق فرعون وكل أتباعـه. هـذا البحر ليس أحمر أكثر مـن أي بحر آخر، ولكن في بعـض المناطق يوجد حصى أحمر ولهذا أسـماه النّـاس بالبحر الأحمر. وهذا البحر يمتـدّ حتى نهاية جزيرة العرب وفلسطين.

تستمر الرّحلة في هذا البحر مدة أربعة أيام، وبعدها يصل المسافرون عبر الصّحراء إلى وادي Elim ومن هناك إلى جبل سيناء، ويجب أن تعرفوا بأنه عبر هذه الصّحراء لا يمكـن لأحـد أن يذهب على ظهر حصان، وذلك لأنه لا يوجد طعام ليأكل الحصان أو ماء ليشرب، ولهذا يعبر النّاس الصّحراء باستخدام الجمال. لأن الجمل يجد ما يقتات به من الأشـجار والشّـجيرات هناك، التي يمكن أن تقوته جيداً وبإمكانه البقاء دون ماء يومين أو ثلاثة، وهذا ما لا يستطيع الحصان فعله.

والطريـف أن من بابل إلى جبل سـيناء تسـتغرق الرّحلة اثني عشـر يوماً، وتسـتغرق مع بعض النّاس أكثر، وبعضهم الآخر يسـرع ولكنها تكون أكثر عناء، ولذلك تأخذ معهم وقتاً أقـل. والنّـاس دائماً يأخذون معهم بعض اللاتين ليذهبوا معهـم في البلاد، وبعد ذلك ومع مـرور الوقـت يبدأ النّاس بتغيير اللغـة، كما ينبغي للناس بأن يحملـوا معهم وجبات الطّعام لتقوتهم في هذه الصّحارى والأشياء الأخرى الضرورية ليظلوا على قيد الحياة.

وجبل سيناء هذا يسمّى أيضاً صحراء الخطيئة، وذلك بسبب الشّجيرات التي احترقت هناك، وذلك كان عندما رأى موسى إلهنا الرّب عدة مرات بهيئة نار تتّقد فوق هذه التلة، وأيضاً في شجيرة تحترق وتكلم معه، وهذا كان في أسفل التلة. هناك يوجد دير للرّهبان مبني بشكل متين، ومغلق بشكل محكم بواسطة بوابات من الحديد لإبعاد الحيوانات البرية، والرّهبان هم من العرب أو اليونان، كما يوجد هناك دير كبير للرّاهبات ويسكنه النّساك ولا يشربون الخمر إلا إذا كان عندهم عيدٌ مهم، وهم رجال ورعون وأتقياء ويعيشون بتقشف وبساطة على نبات joutes والتمر ويتعفّفون عن الملذات.

وتوجد هناك كنيسة للقدّيسة كاثرين حيث يوجد الكثير من المشاعل المضيئة، ولديهم الكفاية من زيت الزّيتون للأكل ولإشعال مصابيحهم، حيث حصلوا على الكثير منه بمعجزة من الله، وذلك بتجمع الغربان وطيور الغُداف ravens والقيقان choughs وطيور أخرى من هذا البلد، حيث تجتمع كل سنة مرّة واحدة وتطير بعيداً وكأنها في حج، وكل واحد منها يجلب غصناً صغيراً من الغار أو الزّيتون في منقاره بمثابة تقدمة وتتركها هناك فيتّخذ منها الرّهبان كمية كبيرة من الزّيت، وهذه فعلاً معجزة عظيمة. وتذهب هذه الطّيور التي ليس لها عقل أو سبب تذهب بعيداً لتبحث عن العذراء المجيدة. ممّا ألزم النّاس بالبحث عنها وتكريمها.

وأيضاً خلف مذبح هذه الكنيسة، يوجد المكان حيث شاهد موسى ربنا الله في الشّجيرة المشتعلة. وعندما يدخل الرّهبان المكان يخلعون جواربهم وأحذيتهم أو جزمهم دائماً، لأن ربنا قال لموسى اخلع نعليك لأنك في مكان مقدّس ومبارك. والرّهبان يسمّون المكان بالظليل[1] Dozoleel وذلك يعني ظل الله، وبجانب المذبح العالي وأعلى بمقدار ثلاث درجات يوجد ناووس fertre من المرمر حيث ترقد عظام القدّيسة كاثرين، ويُظهر حبر الرّهبان الأكبر الرّفات للحجّاج بواسطة أداة من فضّة

---

(1) هكذا تبدو لي ترجمة العبارة كما يكتبها بالإنكليزية. وهذه التفاصيل والتسميات تدل على أنه زار أقطار المشرق فعلاً، بخلاف رواياته العجيبة عن جنوب شرق آسيا.

يفرك بها العظام فيخرج منه شيء كالزيت وكأنه يتعرّق ولكن المادة التي تخرج لا تشبه الزّيت ولا البَلسَم، لكنها مليئة بالحلاوة والرّائحة الطّيبة، ومنه يعطون قليلاً للحجاج ومن هناك يخرج كمية قليلة من السّائل وبعدها يعرضون رأس القدّيسة كاثرين والقماش الذي كانت ملفوفة به والذي ما زال مليئاً بالدّماء، وبنفس هذا القماش الذي كانت ملفوفة به، حمل الملائكة جسدها إلى جبل سيناء، وهناك دفنوها به. وبعدها يعرضون الشّجيرة التي احترقت ولم تفقد شيئاً منها، والتي بها تكلم ربنا مع موسى، وبقية الرّفات.

كما أني فهمت من بعض المعلومات أنه عندما يموت حبر المعبد الكبير فإن هذه المشاعل تطفأ، وعندما يختارون حبراً آخر، وإذا كان رجلاً جيداً ويستحق التقدير لكي يصبح حبراً، تضاء المشاعل بتبريك من الله دون لمسها من أيّ إنسان. كما أن كلاً منهم له مشعله الخاص به، وبمشاعلهم يعرفون جيداً متى يموت أي واحد منهم، حيث أنّ الضوء يبدأ بالتغيّر ويصبح معتماً، وإذا اختير ليصبح حبراً، ولم يكن جديراً بالمنصب فإن مشعله يخمد لاحقاً، كما قال لي بعض الرّجال بأنهم يقيمون قداساً للحبر الذي مات، ثم إنهم يجدون على المذبح اسم الحبر الذي اختير.

وفي يوم من الأيام سألت الرّهبان واحداً بعد الآخر كيف حدث هذا، لكنهم لم يقولوا لي شيئاً، غير أنني أعتقد بأنه كان من الواجب عليهم إظهار عظمة الله ونعمته التي أنعم بها عليهم، وكان ينبغي لهم نشرها ليجعلوا النّاس أكثر ورعاً. وبإخفاء معجزة الرّب هذه قد فعلوا خطيئة، فإني أعتقد بأن المعجزات التي فعلها الله وما زال يفعلها كل يوم ما هي إلا شواهد على قوته وقدرته، وكما قال داود في المزامير:

Mirabilia testimonia tua, Domine.

والذي يعني: «معجزاتك يا رّب شواهد عليك».

وبعدها قالوا لي، واحداً بعد الآخر كيف حدث ذلك أكثر من مرّة، ولكن ليس بوسعي أن آخذ منهم أكثر من ذلك.

وفي هذا الدّير لا تدخل أيّة حشرة طائرة أو ضفدعة أو سحلية، ولا أي نوع من أنواع

الحيوانـات الضـارة أو قمـل أو براغيث، وذلك بمعجزة من الله ومن سـيدتنا العذراء. هذا لأنه قد جرت العادة أن يوجد الكثير من الأقذار والحشـرات في الدّير، ولهذا فقد رغـب الرّهبـان بأن يتركوا المكان والدّير، وكانوا قد غـادروا المكان وبقوا فوق الجبل ليتجنبوا العودة لهذا المكان، فأتت إليهم سيدتنا وطلبت منهم العودة ثانية، ومن بعدها لم تدخل أيّة حشـرة طائرة إلى هذا المكان، ولا يجب أن يدخل أي شـيء بعد. وأيضاً عند البوابة يوجد جدار حيث ضرب موسى الحائط وخرج منه الكثير من الماء.

ومن هذا الدّير يذهب النّاس عالياً إلى جبل موسـى، بعدّة درجات. وبعدها يجدون كنيسة سيدتنا، حيث قابلت الرّهبان هناك، عندما هربوا من الحشرات المذكورة سابقاً. وأعلى فوق ذلك الجبل توجد كنيسـة النّبي اليشـع، الذي يدعونه ربّاً، والذي عنه تخبر الصّحف المقدّسة:

Et ambulavit in fortitudine cibi illius usque, ad montem Oreb.

وهذا يعني: «وقد ذهب برزمة من الطّعام إلى جبل الرّب حوريب» وقريباً بعد ذلك يوجـد كـرم عنب كان قد زرعه القدّيس يوحنّا المبشـر، ويدعوه النّاس زبيب سـتافيس Staphis. وفوق ذلك بقليل توجد كنيسـة موسـى والصّخر حيث هرب موسـى عندما فزع من رؤية ربنا وجهاً لوجه. وعلى هذه الصّخرة طبع شكل جسده، لأنه ضرب بقوة وارتطـم بقوة بهذا الحجر، وكذلك ظهر فيه من خـلال معجزة من الله. وهناك بجانب هذا الموضع المكان الذي أعطى فيه ربنا موسـى الوصايا العشـر للدّين. وهناك تحت الصّخر حيث سـكن موسـى، عندما صـام أربعين يومـاً وأربعين ليلـة. ولكنه مات في أرض الميعاد Land of Promission ولا أحد يعلم أين دفن.

ومن هذا الجبل يعبر النّاس وادياً كبيراً ليذهبوا إلى جبل آخر، حيث دفنت القدّيسة، التـي دفنتها ملائكـة من الله. وفي هـذا الوادي توجد كنيسـة الأربعين شـهيداً، وهناك ينشـد رهبـان الدّير مراراً. وهذا الوادي بارد حقـاً، وبعدها يذهب النّاس عالياً إلى جبل القدّيسة كاثرين، وهو أعلى من جبل موسى، وهناك حيث دفنت القدّيسة كاثرين وهي لا كنيسـة ولا دير ولا مكان للسـكن، ولكن كومة من أحجار في المكان، حيث يوجد

جسـدها، الذي كان قد وضعته الملائكة. وكانت توجد هناك كنيسـة لكنها دُمرتَ وما زالـت الأحجـار هناك، ويقال بأن هذا المـكان حيث يوجد رُفات القدّيسـة كاثرين هو نفسـه المـكان حيـث لقّن ربّنا الوصايا العشـر لموسـى، وهناك، حيث دفنت القدّيسـة المباركـة العـذراء كاثرين، وهكذا يعني بأنه في نفس البلـد ونفس المكان الذي يحمل اسـماً واحداً، لأنّ كليهما يسـمّى جبل سيناء. ولكنّ المسـافة كبيرة ما بين أحدهما إلى الآخر، ويفصل بينهما وادٍ عميقٌ جداً.

* * *

الفصل التاسع

عن الصّحراء بين كنيسة القدّيسة كاثرين والقدس وعن الأشجار الجافة وعن أول بداية الزّهور في العالم

الآن، وبعد أن أتمّ الرّجال زيارة هذه الأماكن المقدّسة، بعدها سوف يتحوّلون باتجاه القدس. وبعدها سيأخذون الإذن من الرّهبان، ويلزمون أنفسهم بصلواتهم. وبعدها يعطون الحجّاج من مؤونتهم ليمرّوا عبر الصّحراء باتجاه سوريا. وهذه الصّحارى القاحلة جداً تستغرق رحلة ثلاثة عشر يوماً.

في هذه الصّحراء يسكن العديد من العرب، الذين يدعون البدو والرُّحّل Ascopards، ويعيشون بأوضاع قاسية جداً. وليس لهم منازل وإنما خيام، يصنعونها من جلود الحيوانات، كالجمال أو من الحيوانات الأخرى التي يأكلونها، وتحت هذه الجلود ينامون ويسكنون في مكان حيث يوجد الماء، كالبحر الأحمر أو أي مكان آخر، لان هذه الصّحراء تتصف بندرة الماء. ويحدث غالباً أنهم عندما يجدون الماء مرة في مكان معيّن لا يجدونه ثانية في نفس المكان، وبسبب ذلك فإنهم لا يمكثون هناك.

وهؤلاء القوم الذي أتكلم عنهم لا يحرثون الأرض ولا يشتغلون بأي شيء، لأنهم لا يأكلون الخبز، وإنما في حال إقامتهم قرب مدينة كبيرة فإنهم يذهبون هناك ويأكلون الخبز أحياناً. كما أنهم يشوون لحومهم وأسماكهم فوق أحجار ساخنة معرّضة للشمس. كما أنهم أناس أقوياء ويجيدون القتال، ويوجد هناك عدد كبير لا يحصى من

هؤلاء القوم، كما أنهم لا يهتمون بأي شـئ، ولا يفعلون شيئاً سوى مطاردة الحيوانات وأكلهـا. ولا يهتمـون بعمل أي شـئ في حياتهـم، ولذلك فإنهم لا يخافون السُّـلطان، ولا أي أمير آخر، ويتجرّأون على محاربته، إذا فعل أيّ شـي فيه ضيم لهم. وقد حاربوا السُّـلطان عـدة مـرات، واحدة منها كانـت عندما كنـتُ بصحبته[1]. ولا يحملون شـيئاً سـوى درع واحـد ورمح واحد، دون أيّة أسـلحة أخـرى، ويلفّون رؤوسـهم وأعناقهم بكميـة كبيرة من قمـاش الكتّان الأبيض، كما أنهم يعتبرون شرسـين وكاسـرين، ذوي طبيعة ضارية.

* * *

وعندما يعبر الرّجال هذه الصّحراء، باتجاه القدس يصلون إلى بئر السّـبع Bersabe التـي كانت مدينة جميلة ومليئة بالمسـيحيين، ومازالت إلى الآن بعض من كنائسـهم. في هذه المدينة سـكن لوقت طويل النّبي إبراهيم، ومدينة بئر السّبع هذه أنشأتها زوجة القائـد أوريـا Uriah التـي منهـا رُزق الملـك داود بسـليمان الحكيم، الـذي كان ملكاً للقدس وكذلك كل سلالته حتى الابن الثّاني عشر، حيث دامت مملكتهم أربعين سنة.

ومـن ذلك المكان يذهـب الرّجال إلى مدينة الخليل، حيـث يصعدون حوالي اثني عشـر ميـلاً. وهذا الطريـق يدعى أحيانـاً وادي مَمرا Mamre وكان فـي بعض الأحيان يدعـى وادي الدّمـوع، لأن آدم بكـى هناك مئة عام لموت ابنه هابيـل، الذي قتله قايين. كانت الخليل المدينة الرّئيسـية في فلسـطين، وهناك سـكن في وقت مضـى العمالقة. وهـذه المدينـة كانت أيضـاً مركزاً كهنوتيـاً، حيث يمكننـا القول بأنها كانـت ملاذاً من جماعة يهوذا، وقد كانت فعلاً مدينة حرّة حيث كان النّاس هناك دائماً يستقبلون جميع أنـواع الهاربيـن من أمكنة أخـرى إذ اقترفـوا أعمالاً آثمـة. وفي البدء أتـى إلى الخليل يشوع وكالب وأشياعهم للتجسّس، في رغبة منهم ليحصلوا على أرض Behest. وفي الخليل كان أول حُكم للملك داود، واسـتمرّ سبع سنوات ونصف، وفي القدس حكم ثلاثاً وثلاثين سنة ونصف.

---

(1) هذا خبر مهم حول مكوث ماندڤيل فترة ما بصحبة سلطان مصر المملوكي.

وفـي الخليـل توجـد كل قبـور الأنبيـاء الأوائـل: آدم، إبراهيـم، إسـحق ويعقوب، وزوجاتهـم حواء، وسـارة وربقـة Rebecca، وليئة Leah، وهذه القبـور يحافظ عليها المسـلمون بشـكل غريـب، ويحظـى المـكان بتبجيـل وتوقيـر كبيرين لوجـود هؤلاء الآبـاء المقدّسـين الذيـن يرقدون هناك. ولا يسـمحون بدخـول أيّ مسـيحي إلى هذا المكان، إلا إذا كان لديه حظوة خاصة من السُّـلطان، وذلك لأنهم يعتبرون المسيحيين واليهـود كالـكلاب، وينبغـي ألاّ يدخلوا إلـى الأماكن المقدّسـة. ويسـمي النّاس هذا المـكان حيث يرقـدون في الكهف المـزدوج Double Spelunk أو الخندق المزدوج Double Ditch، وهـذا لأنهم يرقدون واحداً فوق الآخر، وقد سـمّى المسـلمون هذا المكان بلغتهم[1] *Karicarba* والذي يعني: «مكان الآباء» ويسـمّي اليهود هذا المكان «أبّوت»[2] *Arboth* وفي نفس هذا المكان كان بيت إبراهيم، وهناك حيث كان جالسـاً ورأى ثلاثة أشخاص فلم يعبد إلا واحداً كما أخبرت الصّحف المقدّسة:

Tres vidit et unum adoravit.

وهـذا يعنـي: «ولقـد رأى ثلاثـاً وعَبَدَ واحـداً» ومن هـؤلاء ذاتهم اسـتقبل إبراهيم الملائكة في بيته.

وقريباً جداً من هذا المكان يوجد كهف في الصّخر، حيث سـكن آدم وحواء عندما طُردا من الجنة، وهناك رزقا بأطفالهما. وفي هذا المكان نفسه كان تشكيل آدم وخلقه، كمـا يقـول بعض النّاس (لأن أناسـاً آخرين كانـوا يقولون بأن المكان كان في دمشـق، حيـث أن دمشـق كانت مـكان العبادة) بأنه بعد خلقـه هناك انتقل إلى جنّـة النّعيم، كما قالـوا، وبعـد هذا طُرد خارج الجنة حيث تُرك. وفي نفس اليوم الذي وضع به في الجنة أخـرج منها بسـبب الخطيئة التي ارتكبها لاحقاً. وهنـاك بداية وادي الخليل الذي يمتد بقرب القدس. وهناك أمرت الملائكة آدم بأن يسـكن مع زوجته حوّاء، التي منها رزق

---

(1) يخيّل لي أن هذه التسميّة محرّفة عن: قبر الآباء، لأنّ التسمية التي أطلقها اليهود: آبوت كذلك تعني الآباء.

(2) هذا صواب التسميّة Abboth وليس Arboth كما ترد في النصّ محرّفة. ومعنى العبارة آبوت في العبريّة **אבות** الآباء.

بشيث Seth الذي من سلالته ولد السّيد المسيح.

وفي هذا الوادي يوجد حقل، حيث يخرج النّاس شـيئاً من الأرض يدعى cambile يأكلونه عوضاً عن البهارات، ويحملونه لبيعه. ولا يلزم أن يحفر النّاس حفرة أو كهفاً، ولكـن تخـرج التربة من الأرض بشـكل عميق وواسـع، وفي نهاية العـام تعود وتمتلئ حتى حوافها بقدرة من الله وفضل.

وعلى بعد ميلين من الخليل يوجد قبر لوط الذي كان شقيق إبراهيم.

وقريباً من الخليل يوجد جبل ممرا Mamre الذي سمّي الوادي على اسمه، وهناك توجد شجرة بلوط يسميها المسلمون الدِّلبة[1] *Dirpe* وهي موجودة منذ زمن إبراهيم، كما يسـمّيها النّاس الشّجرة الجافة. ويقولون إنها موجودة منذ بداية العالم، وقد كانت يومـاً مـا خضـراء ومليئة بـالأوراق، ولكنهـا جفّت عندما مات سـيّدنا علـى الصّليب، وكذلـك كان حال كل الأشـجار فيما بعد في كل العالم. وبعضهـم يقول بتنبؤاتهم بأن حاكمـاً وأميراً من الجانب الغربي من العالم سـوف يأخـذ أرض الميعاد Promission التي هي الأرض المقدّسة بمساعدة المسيحيين، ويجب عليه أن يتلو قداساً تحت هذه الشّجرة الجافة، وبعدها فإن الشّجرة ستكتسي بالخضرة وستطرح أوراقاً وثماراً، ومن خلال هذه المعجزة سيتحول كثير من المسلمين واليهود إلى العقيدة المسيحية، ولهذا فإنهم يقومون بأداء الصّلوات هناك بشكل كبير، وتظلّ المنطقة غاصّة بالناس. وبالرغم من أنها جافة فما تزال لها قيمة كبيرة، وهي تحمي مَن كان مؤمناً من الوقوع في الآثام، فـلا يكون حصانه أعرج، ولها عدة فضائل أخرى ولهذا فالنّاس ينظرون إليها بكثير من الاعتبار.

* * *

يذهـب الرّجـال بعدها من الخليل إلى بيت لحم في غضـون نصف يوم، لأنها تبعد

(1) يتضح لي أن المقصود من هذه التسميّة Dirpe: الدِّلبة أي شجرة الدِّلب Plane tree بالإنكليزيّة، ولكن تشتهر في النصوص الدّينيّة تسمية: بلّوطة مَمرا، وبالطبع شجر البلّوط (أو السّنديان كما يسمّى في بلاد الشام) لا علاقة له بالدِّلب.

فقط خمسة أميال، والطّريق بينهما جيملة جداً وحافلة بالسّهول والغياض التي تبهج النّفس. وبيت لحم مدينة صغيرة، طويلة وضيقة ومحصنة بشكل جيد، مزودة على كل جوانبها بقناة مائية جيدة الحجم، وقد جرت العادة على تسميتها «أفراتة»، كما قيل في الكتاب المقدّس:

Ecce, audivimus eum in Ephrata.

الذي يعني «وقد سمعناه في أفراتة Ephrata».

وباتجاه الشّرق حيث أقصى المدينة توجد كنيسة رائعة الجمال وأنيقة، وبها توجد عدّة أبراج وبريجات مدبّبة pinacles وزوايا، وهي قوية جداً ومبنيّة بطريقة غريبة، وفي داخل هذه الكنسية يوجد أربعة وأربعون عموداً من الرّخام الرّائع الجمال.

وبين المدينة والكنيسة يوجد حقل *Floridus* ومعناه: الحقل المُزدهر، وذلك لأنه كان فيه عذراء جميلة كانت قد اتهمت زوراً، ولوّثت سمعتها بأنها قد اقترفت الزّنا، ممّا تسبّب في إدانتها بالموت، والحكم عليها بالحرق في هذا المكان الذي اقتيدت اليه. وعندما بدأت النّار تشتعل، بدأت بصلاتها لربّنا، ولأنها كانت حكيمة وغير مذنبة، فإنه ساعدها وجعلها معروفة لكل النّاس بفضل رحمته العظيمة. وعندما تلت هذه الصّلاة زُجّت في اللهيب، وفي لحظة إدخالها للنار خمدت النّار وانطفأت، وتحوّلت أغصان الأشجار التي اشتعلت إلى أغصان ذوات أزهار حمراء، والأغصان التي لم تشتعل تحولت إلى أشجار ذوات أزهار بيضاء، مليئة بالزهور. وهذه كانت أول أشجار مزهرة بزهور بيضاء وحمراء، لم يرَ مثلها من قبل أي إنسان، وهكذا أنقذت هذه الفتاة برحمة وفضل من الرّب. ولهذا يُدعى هذا الحقل بحقل الرّب المُزدهر، لأنه مليء بالزهور.

وبجانب جوقة المنشدين في الكنيسة، في الجانب الأيمن، وعندما يتجه الرّجال ستين درجة إلى الأسفل، هناك المكان حيث ولد سيّدنا، وهو مليء بالرّخام المزين، المطلي بوفرة بالذهب والفضة واللازورد وعدة ألوان أخرى. وعلى بعد ثلاث خطوات توجد حظيرة الثّور والحمار، وبجانب ذلك يوجد المكان حيث سقطت النّجمة، هذا الذي قاد الملوك الثّلاثة: Jaspar، Melchior Balthazar ولكن الإغريق يسمّونهم:

والـيهـود يسـمّونهم بالعبرية: *Appelius*, *Galgalath*, *Malgalath*, and *Seraphie* *Amerrius*, and *Damasus*.

هؤلاء الملوك الثّلاثة قدّموا لسـيّدنا ذهباً وبخوراً ونوعاً من الثّمار يدعى المِرّ الذي هـو عبارة عن ثمـرة جميلة الرّائحة ومرّة الطّعم. وقد تقابلـوا بمعجزة من الرّب، حيث تقابلوا جميعاً في مدينة في الهند Ind، يدعوها النّاس Cassak وهي على مســافة رحلة ثلاثة وخمسين يوماً من بيت لحم، وقد كانوا في بيت لحم خلال ثلاثة عشر يوماً، وهذا كان رابع يوم بعد أن رأوا النّجمة، وعندها تقابلوا في هذه المدينة، وهكذا كانوا في بيت لحم خلال تسعة أيام وهذه كانت معجزة عظيمة.

وأيضـاً وتحت الممرّ الذي في الكنيسـة، بحوالي ثماني عشـرة درجة على الجانب الأيمـن، يوجـد مـكان حفظ الأمـوات الأبريـاء، حيث ترقـد عظامهم. وأمـام المكان الـذي ولـد به مخلّصنا يوجـد ضريح القدّيـس إيرونيموس Jerome الذي كان قدّيسـاً وكارديـنـالاً، وهـو الـذي ترجم الإنجيـل والمزامير مـن العبريّة إلـى اللاتينية. وخارج المعبد يوجد الكرسي الذي كان يجلس عليه عندما كان يترجمه، وبعيداً قرب الكنيسة بحوالـي سـتين قامـة[1] fathom توجد كنيسـة القدّيـس نيقـولاوس Nicholas حيث أراحت سـيدتنا نفسـها بعد أن أضيئت بنـور ربّنا. وذلك لأنها كانـت تحمل الكثير من الحليب في ثدييها، الشّيء الذي أحزنها بأنها درّته على صخور حمراء من الرّخام، وما تزال العلامات ترى في الصّخور بلونها الأبيض.

ويجب عليكم أن تعرفوا، بأن كل الذين سكنوا في بيت لحم كانوا قوماً مسيحيين.

وهنالك توجد كروم عنب جميلة فوق المدينة، والكثير من أنواع النّبيذ الجيد، الذي صنعه ناس مسـيحيّون. ولكن المسـلمين لم يبقوا أيّاً من هذه الكروم فهم لا يشـربون النّبيذ أبداً، وذلك وفقاً لقانون كتبهم التي جاءهم بها محمّد Mahomet، والذي تدعى القرآن *Al Koran*، وبعضهم يسـمّونه المُصحف *Mesaph*، وبلغة أخرى تدعى حُرمة

---

(1) مقياس القامة fathom يعادل 1,8288 متراً.

Harme وهذا الكتاب يحرّم عليهم شـرب النّبيذ. لأن في هذا الكتاب لعن الله كل من يشرب النّبيذ أو من يبيعه، لأن بعض الرّجال قالوا بأنه مرة قتل رجلٌ أحد الأحبار وكان القاتل ثملاً، وكان محمّد يحبّ المقتول كثيراً، ولهذا لعن النّبيذ وكل من يشربه. ولكن اللعنة ارتدّت على القاتل كما قيل في الكتاب المقدّس:

Et in virticem ipsius iniquitas ejus descendet.

والذي يعني: بأن شرّه سوف ينقلب عليه ويصيب رأسه.

كما أن المسـلمين لا يجلبون أياً من الخنازير، ولا يأكلون شـيئاً من لحمها، وذلك بأنهم يقولون بأنه أخ للإنسان وكان محرّماً في الدين القديم، ويعتبرون أكله شيئاً بغيضاً جـداً ومكروهـاً. وكذلك في أرض فلسطين وفي أرض مصـر، لا يأكلون إلا قليلاً من لحـم العجـل أو البقر، إلا إذا كانت كبيرة في السّـن فلا يمكنهـا التنقل لكبرها لأن هذا محرّم، وأيضاً لأنهم ليس لديهم منها إلا القليل، ولهذا فهم يطعمونها في بلادهم.

وفي مدينة بيت لحم ولد الملك داود، وكان له ستون زوجة، والزّوجة الأولى كانت تدعى ميشال Michal، كما كان له ثلاثمئة جارية.

تبعـد القدس عن بيت لحم مسـافة ميلين فقط، وفي الطّريـق إلى القدس وعلى بعد نصـف ميـل من بيت لحم توجد كنيسـة، حيـث تكلم الملاك مع رُعاة ولادة المسـيح. وفي ذلك الطّريق يوجد ضريح راحيل Rachel التي كانت أمّ يوسف النّبي، وقد ماتت بعـد أن ولـدت ابنها بنيامين Benjamin. وكان قد دفنهـا هناك زوجها يعقوب Jacob، وقد وضع اثني عشـر حجراً كبيراً عليها علامة على أنها ولدت اثني عشر ولداً. وبنفس الطّريق وعلى بعد نصف ميل من القدس، تظهر نجمة الملوك الثّلاثة، وفي هذا الطّريق أيضاً توجد عدة كنائس للمسيحين، ومن خلالها يذهب النّاس باتجاه مدينة القدس.

* * *

الفصل العاشر

عن الحجّاج في مدينة القدس
وعن الأماكن المقدّسة الموجودة هناك

وبعد، سأخبركم عن مدينة القدس المدينة المقدّسة، فليكن في علمكم أنها مدينة غاية في الجمال تقع بين الهضاب، وهناك لا يوجد أي أنهار أو آبار، ولكن الماء يصل اليها من الخليل، واعلموا بأن القدس مدينة قديمة منذ زمن ملكيصادق Melchisadech وكانت تدعى يَبوس Jebus وبعدها أصبحت تدعى Salem وفي زمن الملك داود دُمج هذين الاسمان سوياً ليصبح اسمها Jebusalem وبعدها سمّاها الملك سليمان Jerosolomye وبعد ذلك سمّاها النّاس أورشليم Jerusalem الاسم الذي ما زالت تسمّى به حتى الآن.

وحول مدينة القدس توجد مملكة سوريا. وقريباً منها توجد أرض فلسطين، وبجانبها توجد عسقلان Ascalon وبجانبها توجد أرض Maritaine ولكن القدس توجد في أرض اليهوديّة Judea وتدعى اليهوديّة لأن يهودا المكابي Judas Maccabeus كان ملكاً لهذه البلد، وتمتدّ شرقاً حتى المملكة العربية. وفي الجانب الجنوبي توجد أرض مصر، وفي الجانب الغربي يوجد البحر الكبير، وشمالاً توجد مملكة سوريا حتى بحر قبرص. وكان من المعتاد أن تكون القدس مركزاً للأساقفة والبطاركة ورئيس الأساقفة لكل البلد.

وحول القدس توجد المدن التالية: الخليل Hebron التي تبعد عنها سبعة أميال،

وأريحا Jericho التي تبعد ستة أميال، بئر السّبع وتبعد ثمانية أميال، وعسقلان Ascalon تبعد سبعة عشر ميلاً، حيفا تبعد ستة عشر ميلاً، الرَّملة Ramath تبعد ثلاثة أميال، وبيت لحم تبعد ميلين. وعلى بعد ميلين من بيت لحم باتجاه الجنوب توجد كنيسة القدّيس Karitot الذي كان رئيس الرّهبان، والذي تصدّق على روحه الكثير من الرّهبان عندما مات، ولا يزالون حتى الآن في حزن وأسى عليه بنفس الطّريقة التي كانوا عليها عندما مات، وهي من أكثر مظاهر الأسى التي يمكن أن نراها.

هذه البلد وهذه الأرض التي تدعى القدس تنقلت بين كثير من الحضارات، ولهذا السّبب كانت غالباً ما تعاني من المحن بسبب خطايا النّاس الذي سكنوا فيها، ومن بين هذه الحضارات والشّعوب التي كانوا في هذه البلد نذكر: اليهود، والكنعانيين Canaanities، الآشوريين Assyrians، الفرس، الميديين Medes، المقدونيين Macedonians، الإغريق، المسيحيين، المسلمين، البربر، الأتراك، التّتار Tartars، وكثيراً من شعوب وأمم مختلفة أخرى. وذلك لأن الرّب لم يبقها طويلاً في أيدي خونة ومخطئين من المسيحيين أو أيّ من الشّعوب الأخرى. والآن يوجد الوثنيون في هذه الأرض التي يحكمونها منذ أكثر من أربعين عاماً، ولكن لن تبقى معهم طويلاً إن شاء الله.

كما يجب أن تعلموا بأنه عندما يأتي النّاس إلى القدس يبدأ حجّهم بالذهاب إلى كنيسة القبر المقدّس، حيث دُفن سيّدنا المسيح، وهي خارج المدينة من الجانب الشّمالي، ولكنها الآن توجد داخل سور المدينة. وهناك توجد كنيسة رائعة الجمال لها شكل دائري ومفتوحة من الأعلى، ومغطاة بالرّصاص، وفي الجانب الغربي يوجد برج جميل توجد في أعلاه أجراس متينة.

وفي وسط الكنيسة يوجد الهيكل، وهو عبارة عن بيت صغير له باب منخفض صغير، وهذا الهيكل مبني بشكل نصف دائرة، وهو مشبع بشكل مذهل وغني باللون الذهبي واللازوردي وغيرها من الألوان الغنية والجميلة التي تعطيه مظهراً فخماً. وفي الجانب الأيمن من المعبد يوجد ضريح سيّدنا المسيح، ويبلغ طول هذا المعبد ثمانية

أقدام وعرضه خمسة أقدام، وارتفاعه أحد عشر قدماً. ومنذ زمن غير بعيد كان الضريح كلـه مفتوحـاً، حيث كان من الممكن للناس أن يقبّلوه ويلمسـوه، ولكن الحجّاج كانوا يبالغون بذلك ممّا أدّى إلى تكسّـر الأحجار إلـى أجزاء صغيرة أو حتى إلى تراب، ممّا دفع السُّـلطان إلى الأمر بإنشـاء جدار حول الضريح بحيث لا يمكن لأي إنسـان مسّه. ولكن في الجانب الأيسر من الجدار حيث يوجد المعبد وعلى علوّ يقدّر بطول إنسان، يوجد حجر كبير بحجم رأس إنسـان، حيث الضريح المقـدّس، ويقبّل الحجيج الذين يصلّـون هناك هـذا الحجر. وفي هذا المعبد لا توجد أيّة نافـذة، ولكنه مضاء بمصابيح معلّقـة مقابـل الضريح. كمـا يوجد مصباح معلق قبالة الضريح يشـعّ بالنّـور، وفي يوم الجمعة العظيمة يشـتعل من تلقاء نفسـه في ذلك الوقت حيث قام سـيّدنا المسـيح من الموت إلى الحياة.

أيضاً في داخل الكنيسـة من الجانب الأيمن بجانب مكان منشـدي الكنيسـة، يوجد جبل الجلجلة حيث وُضع سـيّدنا المسيح على الصّليب، وهو عبارة عن أحجار بيضاء موشّـحة قليلاً بالأحمـر. وكان الصّليب قـد هُيّئ ونُصب في نفس هـذا الصّخر وعلى هذه الصّخرة نزفت جراح سـيّدنا المسيح عندما ثُبّت على الصّليب. وهذا الذي يسمّى بالجُلجلة.

وفـوق جبل الجُلجلة هذا ببضـع درجات يوجد ثقب في الحجـر حيث وُجد رأس آدم بعد طوفان نوح، وهذه إشـارة إلى أنه يجب دفع ثمن خطايا آدم في المكان نفسـه. وفـوق تلـك الصّخرة قدّم إبراهيـم أضحيته لربنا. كما يوجد مذبـح، وأمام هذا المذبح يرقـد غودفروا دي بويّـونGodefray de Bouillon وبودوان Baldwin وغيرهما من ملوك القدس المسيحيين.

وهناك قريباً من المكان الذي صُلب فيه السّيد المسيح كُتب باليونانية:

Ο θεος Βασιλευς ημων προ αιωνων ειργασατο σωτηριαν εν μεσω της γης.

والتي تعني باللاتينية:

Deus Rex noster ante secula operatus est salutem, in medio terrae.

وهذا ما معناه:

«هذا الرّب ملكنا، قبل العالمين جُعِل الرّخاء في وسط الأرض».

وأيضاً على تلك الصّخرة، حيث نُصب الصّليب حُفر في الصّخر الكلمات التالية:
Ο ειδεις, εστι Βασις της πιστεως ολης του κοσμου τουτου.

التي تعني باللاتينية:

Quod vides, est fundamentum totius fidei mundi hujus.

ومعناه:

«هذا الذي ترى، هو أساس الإيمان في العالم بأكمله».

* * *

كما يجب أن تعلموا، بأنه عندما وُضع سيّدنا المسيح على الصّليب كان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة وثلاثة أشهر. وكانت نبوءة داود قد قالت:

Quadraginta annis proximus fui generationi huic.

وهذا يعني: «وقد كنت مجاوراً لهذا الجيل أربعين عاماً» وهكذا نرى بأن النّبوءة ليست صحيحة. ولكن كليهما يكون صحيحاً لأنه وفي الزّمن القديم كان النّاس يعتبرون السّنة عشرة أشهر، حيث كان شهر مارس هو الشّهر الأول في السّنة، وشهر ديسمبر كان آخر الأشهر. ولكن غايوس Gaius الذي كان إمبراطور روما، أضاف شهرين آخرين هما يناير وفبراير، فأضحت السّنة تتألف من اثني عشر شهراً، وعدّتها 365 يوماً. ما عدا السّنة الكبيسة، بعد الدورة الكاملة للشمس. ولهذا إذا عددنا عشرة أشهر من السّنة، نرى أنه مات في السّنة الأربعين، كما قالت النّبوءة ووفقا للسنة المكوّنة من اثني عشر شهراً فقد توفي بعمر ثلاثة وثلاثين عاماً وثلاثة أشهر.

وكذلـك وعلـى جبـل الجُلجلة، وعلـى الطّرف الأيمـن يوجد المذبـح حيث يمتدّ العمود الذي رُبط إليه السّـيد المسـيح عندمـا كان يُجلد، وبجانبه توجـد أربعة عواميد أخـرى مـن الصّخر وهـي دائماً تنقـط ماء، وبعـض النّـاس يقولون بأنهـا تبكي لموت سـيّدنا المسـيح. وقريباً من ذلك المذبح يوجد مكان تحت الأرض يبلغ عمقه حوالي اثنيـن وأربعين درجـة، حيث وُجد الصّليـب المقدّس، بحدس القدّيسـة هيلينا، تحت الصّخـر حيـث خبّأه اليهود. وهـذا كان الصّليب الذي فُحِص مليّـاً، حيث أنهم وجدوا ثلاثة صلبان، واحداً للسيد المسيح واثنين للصّين، وقد أثبتتهم القدّيسة هيلينا بالجسد الميت الذي عاد إلى الحياة من الموت عندما كان ممدّداً عليه، بأن سـيّدنا المسـيح قد مـات عليه. وبذلك وفي الجدار يوجد المكان حيث أودعت مسـامير السّـيد المسـيح الأربعة، لأنه كان له في يديه اثنان وفي قدميه اثنان.

ومـن واحد منها صنع إمبراطور القسـطنطينيّة لجاماً لفرسـه ليحميـه أثناء المعركة، وبسـبب فضلـه تغلّب على أعدائه، ونال كل أرض آسـيا الصّغـرى، التي هي عبارة عن تركية، وأرمينيا الصّغرى والكبرى، ومن سـوريا إلى فلسـطين، ومن جزيرة العرب إلى بـلاد الفُرس، ومن بلاد الرّافدين Mesopotamia إلـى مملكة حلب، ومن مصر العليا والسّفلى وكل الممالك الأخرى حتى عمق إثيوبيا، وإلى الهند Ind الدنيا التي أصبحت فيما بعد مسيحية.

كمـا كان يوجد في ذلك العصر عدد من الرّجال المقدّسـين والنّسـاك المقدّسـين، الذيـن تحـدّث عنهـم كتـاب حيـاة أبينا. وهـم الآن موجـودون[1] فـي أيـدي الوثنيين Paynims وأيادي المسلمين، ولكن عندما يشاء الرّب القدير، وكما ضاعت الأراضي مـن أيادي المسـيحيين بسـبب خطيئتهم، سـوف يغنمونها ثانيـة بالرّجال المسـيحيين وبمساعدة الرّب.

وفـي منتصـف هـذه الكنيسـة يوجد دائـرة حيث مَـدّد يوسـف الرّامـي Joseph of Arimathea جسـد سيّدنا المسـيح عندما إنزله من على الصّليب، وهناك غسل جروح

(1) يعني قبورهم ومشاهدهم الدّينية.

سيّدنا المسيح، ويقول النّاس إن هذه الدائرة هي مركز العالم.

وفي كنيسة الضريح بالجانب الشّمالي يوجد المكان الذي سُجن فيه سيّدنا المسيح (حيث أنه كان قد سُجن في عدة أماكن)، كما يوجد هناك جزء من السّلسلة التي قُيّد بها، وهناك ظهر للمرة الأولى لمريم المجدلية عندما بُعث، وقد كانت ظنته بستانياً.

كان من المعتاد أن تكون كنيسة القيامة تتبع مرجعيّة القانون الكنسي التابع لسلك القدّيس أوغسطين Augustine، وكان لها رئيس دير ولكنهم كانوا تحت إمرة البطريرك.

وخارج أبواب الكنيسة من الجانب الأيمن باتجاه الأعلى بحوالي ثماني عشرة درجة، قال سيّدنا الميسح لأمه:

Mulier, ecce Filius tuus.

وهو يعني: «يا امرأة، هو ذا ابنُك».

وبعدها قال لتلميذه يوحنّا John:

Ecce mater tua.

ومعناه: «هي ذي أمّك».

وهذه الكلمات قالها على الصّليب، وعلى هذه الدّرجات ذهب سيّدنا المسيح عندما حمل الصّليب على كتفه. وتحت هذه الدّرجات يوجد معبد صغير وفي هذا المعبد ينشد القساوسة باللغة الهندية، وما ينشده القساوسة الهنود ليس تبعاً لقانوننا بل تبعاً لقوانينهم، ودائماً يجعلون أسرارهم المقدّسة عند المذبح بقولهم: «أبانا» *Pater Noster* وكذلك يفعل المصلّون الآخرون مع أولئك المصلّين الذين يقولون الكلمات التي تتألف منها أسرار الكنيسة هذه، لأنهم لا يعرفون الإضافات التي أضافها باباوات الكنيسة، ولكنهم ينشدون بإخلاص وورع شديدين. وبالقرب من هناك يوجد المكان حيث أراح السّيد المسيح نفسه بعد أن كان منهكاً من حمل الصّليب.

كما يجب أن تعلموا بأنّ أمام كنيسة القيامة يوجد مكان ضعيف جداً أكثر من أي جزء آخر من المدينة، وذلك بسبب السّهل الكبير الذي بين الكنيسة وبين المدينة. وباتجاه

الجزء الشّرقي وخارج أسوار المدينة يوجد وادي يهوشافاط Jehosaphat الذي يصل حتـى الأسـوار كما توجد قناة ماء كبيـرة. وفوق وادي يهوشـافاط Jehosaphat خارج المدينة توجد كنيسـة القدّيس إسـطفان Stephen حيث رُجم بالحجارة حتى الموت. وبالقرب من هناك توجد البوابة الذهبية التي لا تُفتح، وهي البوابة التي دخل منها سيّدنا المسـيح يوم أحد الشّـعانين راكبـاً حماره، وكانـت البوابة قد فُتحت لـه عندما أراد أن يتوجّـه إلى داخل المعبـد، وما تزال علامات خطوات الحمـار ظاهرة في ثلاث أماكن من الدرجات الصّخرية.

ومقابـل كنيسـة القيامـة باتجـاه الجنـوب بحوالي 200 خطـوة يوجد مشـفى كبيرة للقدّيس يوحنا، وفيها اتخذ الفرسان أساساً لهم. وفي المكان المخصّص للمرضى في هذه المشـفى يوجد 124 عموداً من الصّخر. وفي جدران المكان ودون العدد السّـابق الذكر يوجد أربعة وخمسـون عموداً تحمل المكان. ومن هذه المشـفى باتجاه الشّـرق توجد كنيسـة رائعة الجمال تدعى سـيّدتنا الكبرى *Nôtre Dame la Grande* وبعدها يوجد كنيسـة أخرى قريبة جداً تدعى سـيدتنا للاتين *Nôtre Dame de Latine* وهناك حيث مزّقت مريم زوجة كلوپا Mary Cleophas ومريم المجدلية شعرهما عندما ثُبّت السّيد المسيح على الصّليب.

* * *

الفصل الحادي عشر

عن هيكل الرّبّ، وعن قسوة الملك هيرودوس
وعن جبل صهيون
وعن بركة الزَّمنى وعن بركة السّلوان

ومن كنيســة القيامة باتجاه الشّـرق وعلى مســافة ثمانية وحدات يوجد هيكل الرّب *Templum Domini* وهو بيت جميل جداً، دائري الشّكل، ومرتفع ومغطى بالرّصاص. مرصوف جيداً بالرخام الأبيض. ولكن المسـلمون لا يسـمحون لأي رجل مسيحي أو يهودي أن يأتي إلى هنا لأنهم يقولون بأن النّاس الفاسدين والمخطئين يجب أن لا يأتوا إلـى مكان مقدّس كهذا ولكننـي أتيت إلى هنا وإلى أماكن أخـرى وذلك لأن بحوزتي خطابات من السُّـلطان عليها ختمه المعظم، ومن الشّـائع أن يأتـي أناس آخرون معهم خطابـات عليهـا توقيعه فقط. وقـد كان قد أمر وبفضـل منه أتباعه في هـذه الخطابات بـأن يسـمحوا لي أن أدخـل إلى كل الأماكـن وأن يخبروني جميع الأسـرار لكل مكان وليقودونـي من مدينة إلى مدينة في حال اللزوم وليستضيفوني وصحبي وليطيعوا كل رغباتي المنطقية والتي لا تتعارض بشكل كبير مع سلطة وكرامة السُّلطان أو قوانينه.

أمـا الآخرون الذين يطلبون إذن السُّـلطان وفضله مقابل خدمة مـا كانوا قد قدّموها لـه، فإنه لا يعطيهم سـوى ختمـه والذي يُحمل أمامـه على رمح. ويسـتقبل كل النّاس هناك هذا الختم بالتبجيل والإطاعة ويوقرون ختمه هذا كما أنهم ينحنون إلى الأسـفل كما نفعل نحن في *Corpus Domini*، كما أنهم يعظّمون ويبجلون رسـائله أكثر والتي

تعرض على الأمراء والسّـادة، وقبل أو عند اسـتلامهم إياها فإنهـم ينحنون لها وبعدها يأخذونها ويضعونها على رؤوسهم وبعدها يقبلونها ومن ثم يقرؤونها بإنحناء وتبجيل كبيرين وبعدها يفعلون كل مايطلب حامل هذه الرّسائل.

وفـي هيكل الـرّبّ *Templum Domini* هـذا كان يوجد يوماً ما القساوسـة والذين كانـوا يطيعـون رئيس الدّير، وفي هذا المعبد أحضر الملك قلفة ختان السّـيد المسـيح لشـارلمان Charlemange وبعدهـا أخذهـا الملـك شـارل Charles إلـى مصلاّه في باريس، وبعدها أحضرها إلى بيتير Peyteres ومن ثم إلى شارتر Chartres.

يجب أن تعلموا بأن هذا المعبد ليس هو المعبد الذي بناه سليمان، لأن ذلك المعبد بقـي موجوداً 1102 سـنة فقـط. وذلك لأن تيطـوس Titus ابن ڤسـپازيان Vespasian إمبراطور روما فرض حصاراً حول القدس لمضايقة اليهود لأنهم قتلوا السّـيد المسيح دون إذن الإمبراطـور. وقـد أحرق المعبد وهدمه بعد أن اسـتولى على المدينة وكذلك فعـل بالمدينـة كلها وأخذ اليهود وقتلهم – وعددهـم 1,100,000 ووضع الآخرين في السّـجن وباعهم للعبودية – ثلاثين بفلس واحد، لأنهم قالوا بأنهم اشتروا يسوع مقابل ثلاثين فلساً فجعلهم رخيصين جداً عندما أعطى ثلاثين منهم بفلس واحد.

وبعـد ذلـك الوقت أعطـى يوليان المرتـدّ الذي كان إمبراطـوراً الإذن لليهـود لبناء معبـد القـدس لأنـه كان يكره المسـيحيين، رغم أنـه كان قد عُمِّد ولكنـه كان قد تخلّى عن عقيدته وأصبح مرتداً. وعندما بنى اليهود المعبد حدث الزّلزال وهدمه (كما يفعل الرّب) وهدم كل ما قد بنوه.

وبعـد ذلك كان هادريان Adrian إمبراطور روما سـليل طروادة قد بنى القدس مرة ثانية ومعبدها بنفس الطّريقة التي بناها سليمان. ولم يطق أن يُسكن أيّاً من اليهود هنا بل فقط المسيحيين، رغم أنه لم يكن قد عُمِّد لكنه أحب المسيحيين أكثر من أيّة أمّة أخرى باستثناء أمّته. ولقد حمى هذا الإمبراطور كنيسة القيامة وجعلها ضمن أسوار المدينة إذ كانت قبل ذلك خارج المدينة منذ زمن بعيد. وغيّر اسم أورشليم Jerusalem وأسماها Aelia «إيلياء» ولكن هذا الاسم لم يدم طويلاً.

كمـا يجـب أن تعلموا أيضاً بأن المسـلمين يبّجلـون ذلك المعبـد ويقولون بأن هذا المـكان مقدّس بحق، وعندما يدخلون إليه فإنهم يدخلون حفاة، وينحنون عدة مرات. وعندمـا رأيت ذلك وصحبي خلعنا أحذيتنا ودخلنا حُفاة لاعتقادنا بأننا يجب أن نتعبّد ونبجّل كما يفعلون، وكذلك يجب أن يفعل الرّجال الذين لا يؤمنون أيضاً لئلا يحملوا أيّ تأنيب للضمير في قلوبهم.

يبلـغ عـرض هذا المعبد أربعاً وسـتين وحـدة ومثلها طولاً، كما يبلغ ارتفاعه سـت وحدات. وفي الداخل تنتصب أعمدة رخامية، وفي منتصف المعبد نجد عدة منصات عاليـة يبلـغ علوها أربع عشـرة درجة منصوبة علـى أعمدة. ويدعو اليهـود هذا المكان *Sancta Sanctorum* أي «قُدس الأقداس».

ولا يدخـل أي أحد إلى هذا المكان غير أحبارهـم ويقدّمون أضحياتهم. ويصطفّ النّاس حول هذا المكان على منصات مختلفة بعد أن يتعبّدوا وليروا جميعهم الأضحية. ولهذا المعبد أربعة مداخل، والبوابات مصنوعه من خشب السّرو وهي مصنوعة ومزينة بإتقان. وعند البوابة الشّرقية قال مخلّصنا: القدس هنا. وفي الجهة الشّمالية من المعبد داخل البوابة يوجد بئر جاف، تتحدث عنه الكتابات المقدّسة:

Vidi aquam egredientem de templo.

والتي معناها: «رأيتُ الماء يخرج من المعبد».

وبالاتجاه الآخر من المعبد توجد صخرة يسميها النّاس «موريّاه» Moriach ولكنها بعـد ذلك سُـمّيت «بيت إيل» Bethel حيـث وُضع تابوت الـرّب والرُّفات حيث اعتاد اليهود على وضعها هناك. وقد أخذ تيطوس Titus هذه التابوت أو الصّندوق والرّفات معـه إلى رومـا عندما هـزم كل اليهود. وفي هـذ التابوت توجد الوصايا العشـر وعصا هارون وعصا موسـى التي بها شقّ البحر الأحمر، فأصبح كحائط على الجانب الأيمن والأيسـر بينما كان الإسـرائيليون يعبرون البحـر دون أن تتبلّل أقدامهـم، وبهذه العصا ضرب الصّخر فخرج منه ماء، وبهذه العصا فعل عدة أعاجيب.

وفي ذلك المكان كان يوجد وعاء من الذهب مليء بالمَنّ، وأقمشـة وحلي وخيمة

هـارون وخيمة أخـرى مربعة الشّـكل مصنوعة مـن الذهب وعليها أحد عشـرة حجراً كريمـاً، وعلبة من حجر اليشـب الأخضر مع أربعة أشـكال وثمانية أسـماء لمخلّصنا، وسبعة شمعادانات مصنوعة من الذهب واثني عشر قدراً من الذهب، وأربع مباخر من الذهب ومذبح من الذهب، وأربعة أسود من الذهب تحمل ملاكاً من ذهب يبلغ طوله اثني عشـر شـبراً، وحلقة من بجع الجنّة مع معبد من ذهب وطاولة من فضة وبوقين من فضة وسبعة أرغفة من الشّعير وكل الرّفات الذي كان قبل ولادة السّيد المسيح.

وعلى هذه الصّخرة كان يعقوب نائماً عندما رأى الملائكة تصعد وتهبط على سـلَّم فقال:

Vere locus iste sanctus est, et ego ignorabam.

والذي معناه: «حقاً إنه لمكانٌ مقدّس، وأنا لست أعرف عنه شيئاً».

وهناك حمل المَلَك يعقوبَ وغيّر اسـمه وسـمّاه إسـرائيل. وفي نفس ذلك المكان رأى داود المَلَك الذي ضرب النّاس بسيف، ورفعه عالياً مدمّى في الغمد. وعلى نفس هذه الصّخرة اسـتقبل القدّيس سمعان مخلّصنا في المعبد، وعلى هذه الصّخرة أجلسه عندما رماه اليهود بالحجارة، وسـقطت نجمـة ومنحته نوراً. وعلى هذه الصّخرة وعظ سـيّدنا المسـيح النّاس أكثر من مرة. وخارج هذا الهيكل المذكور طرد سـيّدنا المسيح الباعة والشـارين خارجاً. وعلى هذه الصّخرة جلس سـيّدنا المسيح عندما رماه اليهود بالحجارة، وقد انشـقت هذه الصّخرة شـطرين، وفي هذا الشّـق اختبأ سـيّدنا المسيح، وهناك سقطت نجمة وأعطته ضوءاً وخدمته بإنارة المكان.

وعلى هذه الصّخرة جلسـت السّـيدة العذراء، حيث تعلمت سـفر المزامير. وهناك غفر السّـيد المسـيح خطايا المرأة التي اقترفت إثم الزّنا. وهناك خُتِن السّـيد المسـيح. وهنـاك أخبـرت الملائكة زكريا بـولادة ابنه القدّيس يحيى. وهناك قدّم أول القدّيسـين الخبز والنّبيذ لسيّدنا المسيح، أثناء إخباره بقدوم سرّ من الأسرار المقدّسة. وهناك خرّ داود مصلياً لربنا وللملاك الذي ضرب النّاس، وأخذته الشّـفقة به وبالناس، وقد سـمع ربنـا صلواته ولهذا بنى الهيكل في هذا المكان، ولكن ربنا منعه بواسـطة ملاك، وذلك

بسبب الخيانة التي فعلها عندما سمح بمقتل أوريا Uriah الفارس الصّنديد، ليأخذ زوجته بَتشبَع Bathsheba ولهذا وُظفت كل الموارد التي كانت لديه لبناء الهيكل وأخذها ابنه سليمان وقد بناه فعلاً. وقد صلّى لربّنا بأنّ كلّ من صلّى له في هذا المكان بقلب صافٍ أن يسمع صلواتهم ويستجيبها لهم إذا دعوا بحق. وقد منحه ربنا ذلك ولهذا سمّى سليمان هذا الهيكل بهيكل نصيحة الرّب وعونه.

وخارج بوابة هذا الهيكل يوجد مذبح اعتاد اليهود عنده على تقدمة الحمام والسّلاحف. وبين الهيكل وهذا المذبح المكان الذي ذُبح فيه زكريا. وفوق البرج الذي في هذا الهيكل أُحضِر سيّدنا لاستدراج الأعداء الأشرار. وعلى أعلى هذا البرج وضع اليهود القدّيس يعقوب James ثم ألقوه إلى الأسفل، وقد كان أول أسقف في القدس. وعند مدخل هذا الهيكل باتجاه الغرب توجد البوابة التي تدعى *Porta Speciosa* وبالقرب من هذا الهيكل، وعلى الجانب الأيمن توجد كنيسة مغطاة بالرّصاص، وهي تدعى مدرسة سليمان.

وقريباً جداً من هذا الهيكل باتجاه الجنوب يوجد هيكل سليمان، هذا الهيكل الجميل جداً والمصقول بإتقان. وفي هذا المعبد سكن فرسان الهيكل الذين كانوا يُدعَون بالدّاويّة Templars وهذا كان أساس نظامهم، وهكذا كان الفرسان يقيمون هناك وفي هيكل الرّب *Templo Domini* يقيم الكهنة العاديون.

وعلى بعد ست وحدات قياس من هذا الهيكل باتجاه الشّرق، وبطرف المدينة يوجد حمّام سيّدنا المسيح، وقد كانت مياه هذا الحمّام تأتي عادة من الجنة، وما زالت الماء تنقط حتى الآن. وهناك بجانبه سرير السّيدة العذراء. وبالقرب يوجد معبد القدّيس سمعان، وخارج ممرّ المعبد باتجاه الشّمال، توجد كنيسة رائعة الجمال للقدّيسة حنّة والدة سيدتنا العذراء، وهناك حيث حملت سيدتنا العذراء. وأمام هذه الكنيسة يوجد شجرة ضخمة بدأت بالنمو في نفس الليلة.

وتحت هذه الكنيسة إذا ذهبنا باتجاه الأسفل بمقدار اثنتين وعشرين درجة، يرقد يواكيم والد سيدتنا العذراء، في معبد جميل من الحجر، وهناك بجانبه في وقت مضى

كانت ترقد زوجته القدّيسة حنّة، ولكن القدّيسة هيلينا نقلتها إلى القسطنطينية. وفي هذه الكنيسة يوجد حوض على شكل صهريج، يدعى بركة الزَّمنى[1] *Probàtica Piscina* وله خمسة مداخل. وفي هذا الحوض اعتادت الملائكة أن تأتي من الجنة وتستحم. وأول إنسان يستحم في هذا الحوض بعد خروج الملائكة منه تذهب عنه جميع الأمراض التي يعاني منها. وهناك شفى سيّدنا المسيح رجلاً مقعداً كان غير قادر على الحراك لمدة ثمان وثلاثين سنة، وقد قال مخلّصنا له:

Tolle grabatum tuum et ambula.

وهذا يعني: «احمل فراشك وامضِ».

وبالقرب من هناك كان بيت بيلاطس Pilate.

وقريباً من هناك يوجد بيت الملك هيرودُس، الذي أمر بذبح الأبرياء. وهيرودس هذا كان ظالماً جداً ومكروهاً، ففي البدء ذبح زوجته التي أحبها كثيراً، ولهذا الحب الكبير الذي كان يكنّه لها، غضب وثار وفقد وعيه لفترة طويلة بعدما رآها ميتة أمامه، وبعدها عاد ثانية إلى وعيه. وبعدها أمر بذبح ابنيه اللذين كانا من زوجته هذه، وبعدها ذبح زوجة أخرى من زوجاته، وابنه منها. وبعدها ذبح أمّه، وكان يريد ذبح أخيه أيضاً ولكنه مات فجأة. وبعدها فعل كل الأذى والخراب الذي يمكن فعله، ثم وقع في المرض.

وعندما شعر بأن أجله قد حان أرسل بطلب أخته وكل الأمراء والسّادة في أرضه، وعندما جاؤوا أمر بوضعهم في السّجن، وبعدها قال لأخته بأنه يعرف بأن النّاس في بلاده لن يشعروا بأي حزن أو أسى لموته، ولذلك جعل أخته تقسم بأنها سوف تضرب أعناق جميع الأمراء والسّادة عند موته، وعندها ستحزن عليه كل البلاد، ولا أحد سواه. وهكذا جعل وصيته الأخيرة. لكن أخته لم تنفّذ وصيّته، وفي لحظة موته أمرت بإخلاء سبيل كل الأمراء الذين في السّجن، كل واحد إلى أرضه، وقالت لهم السّبب

(1) هكذا سُمّيت البركة في التراث الدّيني، لكن اسمها الحقيقي هو بركة بيت حِسدا، وهو اسم آرامي يعني: بيت الرّحمة.

الذي لأجله أصدر أخوها هذا الأمر. وهكذا لم يشعر أحد بالأسى لموت هذا الملك الظالم كما ينبغي أن يكون.

ويجب أن تعلموا بأنه في ذلك الحين كان يوجد ثلاثة أسماؤهم هيرودُس، وقد كان اسماً عظيماً ومشهوراً لقسوتهم. هيرودس هذا الذي تكلمت عنه كان اسمه هيرودُس العسقلاني Herod Ascalonite، وأما لذي ضرب عنق القدّيس يوحنا المعمدان فكان اسمه هيرود أنتيپا Herod Antipas، والذي ضرب عنق القدّيس James كان اسمه هيرود أغريپا Herdo Agrippa، وهو نفسه الذي وضع القدّيس بطرس في السّجن.

وأيضاً علاوة على ذلك، توجد في المدينة كنيسة القدّيس المخلّص St. Saviour كما يوجد ذراع يوحنّا فم الذّهب John Chrisostome الأيسر، والقسم الأكبر من رأس القدّيس إسطفان Stephen. وعلى الجانب الآخر من الطّريق باتجاه الجنوب حيث يذهب النّاس إلى جبل صهيون، توجد كنيسة القدّيس يعقوب James حيث قطع رأسه هناك.

وعلى مسافة ست وحدات قياس من هذه الكنيسة يوجد جبل صهيون. وفيه كنيسة رائعة الجمال لسيدتنا العذراء، حيث كانت تسكن وهناك ماتت. وهناك جرت العادة أن يوجد رئيس الرّهبان والكهنة. ومن ذلك المكان حملتها الحاشية إلى وادي يهوشافاط Jehosaphat. وهناك توجد الصّخرة التي جلبها الملاك لمخلّصنا من جبل سيناء ولونها بنفس لون صخرة القدّيسة كاثرين. وهناك بالقرب توجد البوابة التي دخلت منها سيدتنا العذراء، عندما كانت حاملاً بطفلها، عندما ذهبت إلى بيت لحم.

وأيضاً عند مدخل جبل صهيون هذا توجد كنيسة صغيرة، وفي هذه الكنيسة توجد الصّخرة العظيمة والكبيرة التي غطي بها الضريح، عندما وضع يوسف الرّامي Joseph of Arimathea سيّدنا المسيح فيه. هذه الصّخرة التي رأتها المريمات الثّلاث تتجه إلى الأعلى عندما أتين للضريح في يوم القيامة، وهناك وجد ملاك أخبرهنّ بقيامة السّيد المسيح من الموت إلى الحياة. وهناك أيضاً توجد صخرة في الحائط بجانب البوابة من العمود الذي جلد عليه سيّدنا المسيح. وهناك يوجد بيت Annas الذي كان أسقفاً

لليهود في ذلك الزّمن. وهناك تم في الليل اتّهام سيّدنا المسيح وجلده وضربه وعومل بوحشية. وفي نفس المكان هذا أنكر القدّيس بطرس سيّدنا المسيح ثلاث مرات قبل أن يصيح الدّيك. وهناك يوجد جزء من الطّاولة الذي وضع عشاؤه عليها، عندما كانوا هو وأتباعه مجتمعين يوم خميس الأسرار، عندما أعطاهم لحمه ودمه على شكل خبز ونبيذ.

وتحت هذه الكنيسة بحوالي ثلاث وثلاثين درجة، يوجد المكان حيث غسل السّيد مسيح أقدام تلاميذه فيه، وما يزال الوعاء حيث كان الماء موجوداً. وهناك بجانب نفس هذا الوعاء دُفن القدّيس إسطفان Stephen، ويوجد أيضاً المذبح حيث سمعت سيدتنا العذراء الملائكة وهي تنشد قداساً. وهنالك ظهر السّيد المسيح لتابعيه بعد قيامته، وأُغلقت البوابات وقال لهم: *Pax vobis!* وهذا يعني: «سلامٌ لكم» وعلى هذا المرتفع ظهر المسيح لأحد تلامذته القدّيس توما Tomas وطلب منه أن يمسح جروحه، وهو كان أول من صدّقه وآمن به وقال:

Dominus meus et Deus meus!

والذي معناه «سيدي وإلهي».

وفي نقس الكنيسة بجانب المذبح كان كل التابعين في يوم العنصرة، عندما تنزل الرّوح القدس عليهم بشكل نار، وهناك احتفل مخلّصنا بعيد الفصح مع أتباعه. وهناك نام القدّيس يوحنّا John المبشر على صدر سيّدنا المسيح ورأى في نومه عدّة أسرار مقدّسة.

يوجد جبل صهيون داخل المدينة، وهو أعلى بقليل من باقي أطراف المدينة، والمدينة قوية من هذا الطّرف أكثر من الأطراف الأخرى. وذلك لأن في سفح جبل صهيون توجد قلعة جميلة وحصينة قد بناها السُّلطان. وفي جبل صهيون دُفن الملك داود والملك سليمان، وعدّة ملوك يهود آخرين من ملوك القدس. وهناك المكان حيث رغب اليهود بأن يلقوا بجسد سيدتنا العذراء عندما كشف الأتباع الجسد ليُدفن في وادي يهوشافاط Jehosaphat، وهناك بكى القدّيس بطرس بانكسار بعد أن أنكر

سيّدنا المسيح.

وليس بعيداً عن هذه الكنيسة توجد كنيسة أخرى حيث حُكِم سيّدنا المسيح، وكانت في ذلك الوقت بيت قيافا الكاهن Caiaphas. ومن هذه الكنيسة باتجاه الشّرق بست وحدات قياس يوجد كهف عميق تحت الصّخر، يدعى: جليل سيّدنا Galilee of our Lord، حيث اختبأ القدّيس بطرس عندما أنكر سيّدنا المسيح. وبين جبل صهيون وهيكل سليمان يوجد المكان الذي أحيا فيه سيّدنا المسيح الفتاة العذراء في بيت والدها.

وتحت جبل صهيون، باتجاه وادي يهوشافاط Jehosaphat يوجد حوض يدعى بركة السّلوان *Natatorium Siloe* وهناك غُسِّل سيّدنا المسيح بعد تعميده، وهناك جعل سيّدنا المسيح الرّجل الأعمى مبصراً، وهناك دفن الرّسول إشَعْيا Isaiah. ومباشرة بعد بركة السّلوان *Natatorium Siloe* توجد صورة من حجر فيها عمل قديم جداً، صنعه أبشالوم Absalom ولذلك يسميه النّاس يد أبشالوم. وليس ببعيد لا تزال توجد الشّجرة القديمة التي عليها شنق يهوذا نفسه، بسبب اليأس الذي أصابه عندما باع سيّدنا المسيح وخانه.

وقريباً من هناك كان الكنيس حيث اجتمع أساقفة اليهود والفريسيّون Pharisees معاً وعقدوا مجمعهم، وهناك رمى يهوذا الثّلاثين فلساً أمامهم وقال بأنه أخطأ وغدر بسيّدنا المسيح. وقريباً من هناك كان بيت التلميذ فيليبُّس Philip ويعقوب Jacob Alphei. وعلى الطّرف الآخر من جبل صهيون باتجاه الجنوب، وخلف الوادي برمية حجر، يوجد Aceldama التي تعني حقل الدَّم، الذي أشتري بالثلاثين فلساً التي بيع بها سيّدنا المسيح. وفي هذا الحقل يوجد قبور الكثيرين من الرّجال المسيحيين وذلك لأنه كان يدفن الكثير من الحجّاج هناك، كما يوجد العديد من أماكن الصّلاة والمعابد والصّوامع، حيث اعتاد النّساك أن يسكنوا هناك. وباتجاه الشّرق بحوالي مئة وحدة يوجد مكان حفظ الأموات في مشفى القدّيس يوحنّا John حيث اعتاد النّاس على وضع عظام الموتى.

وأيضـاً من القـدس باتجاه الغرب توجد كنيسـة جميلـة، حيث نمت الشّـجرة التي صُنع منها الصّليب. وعلى بعد ميلين من هناك توجد كنيسة جميلة حيث قابلت سيدتنا العـذراء إليصابـات[1] Elizabeth عندما كانتـا حُبليين، وعندها تحـرّك القدّيس يوحنّا John في رحم أمه وقام بتبجيل خالقه الذي لم يره. وتحت مذبح هذه الكنيسة المكان الذي ولد فيه القدّيس يوحنّا. وعلى بعد ميل واحد من هذه الكنيسة توجد قلعة عمواس Emmaus وهناك أيضاً أظهر سـيّدنا المسيح نفسـه لاثنين من تابعيه بعد قيامته. وأيضاً علـى هذا الجانب الآخر وعلى بعد 200 خطوة من القدس توجد كنيسـة كانت مسـبقاً عريناً للأسـد. وتحت هذه الكنيسـة بعمق ثلاثين درجة كان قد دُفن 12,000 شهيد في عهد الملك خسرو Cosdroe الذي تقابل الأسد معه، في ليلة واحدة، بمشيئة الرّب.

وأيضـاً وعلى بعد ميليـن من القدس، يوجد جبل المسـرّة[2] Joy وهو مكان مذهل ورائـع الجمـال، وهناك يرقـد النّبي صموئيل Samuel في قبر جميل جداً. وقد أسـماه النّاس جبل المسـرّة Joy لأنه يضفي السّـعادة والبهجة في قلوب الحجّاج، فمن هناك يستطيع النّاس أن يروا القدس للمرّة الأولى.

وأيضاً بين القدس وجبل الزّيتون يوجد وادي يهوشـافاط Jehosaphat عند أسـفل أسوار المدينة، كما ذكرت لكم سابقاً. وفي وسط الوادي يوجد نهر صغير يسمّيه النّاس جـدول قِدرون *Torrens Cedron* وفوقه توجد شـجرة (هي التي صُنع منها الصّليب) تمتـدّ بين طرفـي النّهر، حيث يمر النّاس من فوقها. وقريبـاً منها يوجد قليل من التراب أسفل العمود الذي جُلد عليه السّيد المسيح في بادئ الأمر، لأنه كان قد جُلد بقسوة في عدة أماكن. وأيضاً وفي منتصف وادي يهوشـافاط Jehosaphat توجد كنيسـة سـيدتنا العذراء، التي هي على مسـافة ثلاث وثلاثين درجة تحت الأرض نحو ضريح السّـيدة العـذراء. وكانت سـيدتنا العـذراء تبلغ اثنتين وسـبعين سـنة من العمر عندمـا توفيت،

(1) هي زوجة النبي زكريّا عليه السّلام، وأمّ النبي يحيى (يوحنّا) عليه السّلام، الذي بشّر بنبوّة عيسى عليه السّلام.

(2) يسمّى في عصرنا جبل المشارف أو جبل المشهد أو جبل الصوّانة.

وبجانب ضريح سيدتنا العذراء يوجد مذبح، حيث غفر مخلّصنا للقدّيس بطرس كل خطاياه.

ومن هناك باتجاه الغرب وتحت مذبح يوجد بئر تأتي مياهه من نهر في الجنة. ومن الواضح بأن الكنيسة منخفضة جداً في الأرض، حتى أن جزءاً منها موجود داخل الأرض، ولكني أستطيع أن أخمّن بأن بأنها لم تكن مؤسسة بشكل جيد. لكن بسبب أن القدس كانت قد دمرت والأسوار كانت قد هُدمت وأزيلت وكوِّمت في الوادي، فقد أُنشئت ثانية وأُسّست الأرض بشكل جيد، وبسبب هذا نجد بأن الكنيسة منخفضة جداً في الأرض، بالرغم من أنه يشيع هناك القول بأن الأرض انشقت كثيراً منذ دفن السّيدة العذراء، وما زال النّاس يقولون بأن الأرض تنمو وتكبر كل يوم دون أدنى شك. وفي هذه الكنيسة كان يوجد الرّهبان السّود وكان لهم أسقف.

ويجانب هذه الكنيسة يوجد معبد، بالقرب من الصّخرة التي قامت عليها حديقة جَتْسِمَني Gethsemane وهناك قبّل يهوذا سيّدنا المسيح، وهنالك أخذه اليهود. وهناك ترك سيّدنا المسيح أتباعه، عندما ذهب ليصلي قبل تعذيبه، وذلك عندما صلّى وقال:
Pater, si fieri potest, transeat a me calix iste.

والذي معناه: «أبي، إذا كان هذا ليحدث، دع هذا الكأس يذهب عني».

وعندما عاد ثانية لأتباعه وجدهم نائمين. وفي الصّخر داخل المعبد لا تزال علامات أصابع يد سيّدنا المسيح، لمّا وضعها في الصّخر عندما أخذه اليهود.

وغير بعيد عن هناك باتجاه الجنوب توجد كنيسة صغيرة أخرى حيث تعرّق مخلّصنا دماً. وقريباً جداً من هناك يوجد قبر الملك يهوشافاط Jehosaphat الذي يحمل الوادي اسمه. ويهوشافاط هذا كان ملكاً لهذا البلد، وكان قد تحوّل إلى المسيحية على يد ناسك، وكان رجلاً جديراً بالاحترام وفعل الكثير من أعمال الخير. ومن هناك على بُعد غلوة سهم باتجاه الجنوب توجد كنيسة دُفن فيها القدّيس يعقوب James والنّبي زكريّا.

وفوق الوادي يوجد جبل الزّيتون، وقد سمي بهذا الاسم لوجود الكثير من شجر الزّيتون الذي ينمو هناك. وهذا الجبل أعلى من مدينة القدس ولهذا يمكن للناس من فوق هذا الجبل أن يروا الكثير من شوارع المدينة. ولا يوجد شيء بين هذا الجبل والمدينة سوى وادي يهوشافاط Jehosaphat وهو ليس كبيراً جداً. ومن هذا الجبل انتقل سيّدنا يسوع المسيح إلى الجنة في يوم الصّعود، وما يزال يظهر شكل قدمه اليسرى في الحجر. وهناك توجد كنيسة حيث اعتاد القساوسة والرّهبان أن يسكنوا. وعلى بعد ثماني وعشرين خطوة من هناك توجد كنيسة صغيرة وفيها الحجر الذي جلس عليه سيّدنا المسيح عندما وعظ العظات الثّمانية وقال وقتها: *Beau pauperes spiritu* وهناك علَّم أتباعه صلاة «أبانا» *Pater Noster* وكتب بأصابعه في الحجر.

وغير بعيد من هناك توجد كنيسة القدّيسة مريم المصرية، وهناك ترقد في قبر. ومن هناك وعلى بعد ثلاث غلوات أسهم باتجاه الغرب توجد قرية بيت فاجي Bethphage التي أرسل إليها سيّدنا المسيح القدّيس بطرس والقدّيس يعقوب James ليحضرا الحمار في يوم أحد الشّعانين، وركب على هذا الحمار حتى القدس.

وبالذهاب أسفل جبل الزّيتون باتجاه الشّرق يوجد حصن يدعى العيزرية، وهناك سكن شمعون (سمعان) Simon المجذوم حيث لجأ سيّدنا المسيح، وبعدها عُمِّد من قبل التلاميذ وسمّي يوليان Julian وعُيّن كأسقف، وهو نفسه يوليان الذي سمّاه النّاس المأوى الصّالح، وذلك لأن سيّدنا المسيح كان أوى إلى بيته. وفي هذا البيت غفر سيّدنا المسيح خطايا مريم المجدليّة، حيث أنها غسلت قدميه بدموعها، ونشفتهما بشعرها. وهناك خدمت القدّيسة مَرتا Martha سيّدنا المسيح. وهناك أعاد سيّدنا المسيح إلعازر Lazarus من الموت إلى الحياة، وكان قد مات قبلها بأربعة أيام وتعفّن، وكان أخا مريم المجدليّة ومَرتا. وهناك سكنت أيضاً مريم زوجة كلوپا Mary Cleophas. وهذه الحصن يبعد ميلاً عن القدس.

وأيضاً بالذهاب نزولاً من جبل الزّيتون يوجد المكان الذي بكى فيه سيّدنا المسيح على القدس. وبالقرب من هناك المكان الذي ظهرت فيه سيدتنا العذراء للقدّيس توما

Thomas التلميذ بعد تجلّيها وأعطته حزامها، وغير بعيد من هناك توجد الصّخرة حيث جلس سيّدنا المسيح عدة مرات عندما كان يعظ، وعلى نفس هذه الصّخرة سوف يجلس في يوم القيامة، كما قال هو.

وأيضاً بعد جبل الزّيتون يوجد جبل الجليل، وهناك اجتمع التلاميذ عندما جاءت مريم المجدلية وأخبرتهم بقيامة المسيح، وهناك بين جبل الزّيتون وجبل الجُلجلة توجد كنيسة حيث أخبر الملاك سيدتنا العذراء بموتها.

وأيضاً ومن بيت عَنيا Bethany إلى أريحا Jericho كانت توجد يوماً ما كنيسة صغيرة، ولكنها الآن خربت تماماً، ولا يوجد الآن هناك غير قرية صغيرة. وتلك المدينة هي التي قضى عليها يوشع Joshua بمعجزة من الرّب وبأمر من الملاك دُمّرت ولعنت وكل أولئك الذين بنوها ثانية[1]. ومن هذه المدينة كان القزم زكّا Zaccheus الذي تسلّق شجرة الجمّيز ليرى مخلّصنا، لأنه كان قصيراً وصعبت عليه رؤيته بسبب كثرة النّاس. ومن هذه المدينة كانت راحاب Rahab المرأة المعروف عنها بأنها هربت وحدها معهم بسبب نسبها، حيث كانت كثيراً ما تخبّئ مُرسلي بني إسرائيل وتطعمهم، وتحميهم من عدة أخطار مميتة، ولذلك كان لها مكافأة جيدة، كما قيل في الكتاب المقدّس:

Qui accipit prophetam in nomine meo, mercedem prophetae accipiet.

والذي يعني: «من يقبَل نبياً باسمي، ينل أجر هذا النبي». وهذا ما كانت فعلته، إذ أنها تنبأت للمُرسلين قائلة:

Novi quod Dominus tradet vobis terram hanc.

ومعناه: «أنا أعرف جيداً بأن ربنا سوف يحمي لكم هذه الأرض». وهذا ما فعل فعلاً. وبعدها تزوجها سلمون بن نحشون Naasson، ومن ذلك الوقت أصبحت امرأة جديرة بالاحترام وخدمت الرّب جيداً.

وأيضاً من بيت عَنيا Bethany يذهب النّاس إلى نهر الأردن عبر الجبل وعبر

(1) يقصد بذلك أريحا، التي دمّرها القائد يوشع بن نون. انظر القصة مطولة في سفر يشوع.

الصّحراء. وهي على مسـافة ما يقارب رحلة يـوم واحد من بيت عَنيا Bethany باتجاه الشّـرق إلـى هضبة كبيرة حيث صام سـيّدنا المسـيح أربعين يوماً. وعلـى هذه الهضبة كشف الأعداء الاشرار مخلّصنا وغرّروا به. فقال:

Dic ut lapides isti panes fiant.

والذي معناه: «قُل، بأن هذه الأحجار تُعمل أرغفة».

وفـي ذلك المكان، فوق الهضبة، كانت توجد كنيسـة جميلـة، لكنها تهدّمت كلها، ولذلـك لا يوجد الآن سـوى صومعة صغيـرة، حافظ عليها المسـيحيون الذين يُدعون الجورجيين Georgians نسـبة إلى القدّيس جورج الذي حوّلهم إلى المسيحية. وعلى هـذه الهضبة سـكن إبراهيـم فترة طويلـة، ولهذا يسـميها النّاس حديقـة إبراهيم. وبين الهضبـة وهذه الحديقـة يجري جدول مائي صغيـر وكان في القديم مُـرَّ الطّعم، ولكن ببركة النّبي اليَشَع Elisha أصبح حلو المذاق وسائغاً للشرب. وعند أسفل هذه الهضبة باتجاه السّهل يوجد بئر كبير يُدخل إليه نهر الأردن.

ومـن هـذه الهضبة إلى أريحا Jericho التي تحدثت عنها سـابقاً، مسـافة ميل واحد باتجـاه نهـر الأردن. وأيضـاً يذهـب النّاس إلـى أريحـا Jericho حيث جلـس الرّجل الأعمى يبكي قائلاً:

Jesu, Fili David, miserere mei.

وهذا يعني: «يا يسـوع، يـا ابن داود، ارحمني»، وبعدها عاد إليـه بصره ثانية. وعلى بعد ميلين من أريحا Jericho يوجد نهر الأردن، وبعده بمسافة نصف ميل توجد كنيسة جميلة للقدّيس يوحنا المعمدان، حيث عمّد سيّدنا المسيح، وهناك بالقرب منها يوجد بيت النّبي إرميا Jeremiah.

* * *

الفصل الثّاني عشر

عن البحر الميت، وعن نهر الأردن
وعن رأس القدّيس يوحنا المعمدان
وعن أعراف السّامريين

على مسافة ثلاثة أميال من أريحا يوجد البحر الميت، ويغطي ما حول هذا البحر الكثير من المخلّفات والقطران. وبين أريحا وهذا البحر توجد أرض Engeddi. وهناك كان ينمو البَلسَم، ولكن النّاس أخذوا الجذوع من هناك وحملوها إلى بابل ليطعّموا بها النّباتات هناك. وما زال النّاس يدعونها دوالي Geddi. وعلى ساحل هذا البحر حيث يذهب النّاس من جزيرة العرب، توجد جبال مؤاب Moabites ويوجد كهف يسميه النّاس Karua. وعلى هذا الجبل قاد بالاق Balak الكاهن بلعام Balaam ابن بعور Beor ليلعن شعب إسرائيل.

والبحر الميت هذا يقسم أرض الهند Ind وجزيرة العرب، ويمتدّ هذا البحر من Soara حتى جزيرة العرب Arabia. والمياه في هذا البحر شديدة المرارة والملوحة، وإذا سقيت التربة بهذه المياه فهي لا تعطي أي ثمر. وتغيّر التربة والأرض لونها باستمرار. وتخرج من هذه المياه مادّة يسميها النّاس الإسفلت، كما تخرج منه يومياً وعلى جميع أطرافه قطع كبيرة جداً. وتبعد القدس عن هذا البحر مسافة 200 فرلنغ[1].

(1) الفرلنغ مقياس قديم يعادل ثُمن الميل.

ويبلغ طول هذا البحر خمسمئة وأربع فرلنغات كما يبلغ عرضه مئة وخمسين فرلنغاً. وقد سمّي البحر الميت كذلك لأنه لا يتحرك أبداً وهو ساكن تماماً، ولا يمكن لأي إنسان أو حيوان أن يتحمّل الحياة فيه ومن الممكن أن يموت إذا وجد فيه. قد أٌثبت هذا عدة مرات، وكان ذلك بواسطة رجال كانوا يستحقون الموت فرموا في ذلك المكان وتركوا ثلاثة أو أربعة أيام، وكان من الممكن ألا يموتوا هناك، ولكنهم ماتوا بسبب عدم قدرة أي شيء على الحياة هناك. ولا يمكن لأحد أن يشرب من مياهه لشدّة مرارتها. وإذا ألقى أحد فيه حديداً فإنه يطفو، وإذا ألقيت فيه ريشة فإنها تغرق إلى القاع وذلك شيء مخالف للطبيعة.

كما أن المدن هناك أيضاً كانت قد بادت بخطاياها. كما ينمو بالقرب من هناك أشجار تطرح ثمار تفاح من النّوع الجيد، ذي ألوان جميلة عندما تشاهدها، ولكن إذا قطعها أحد أو قسمها قسمين، فسوف يجد بداخلها فحماً ورماداً، ويقال إنه بغضب من الرّب كانت المدينة والأرض قد احترقت وغُمرت في جهنم. يسمّي بعض النّاس هذا البحر ببحيرة Dalfetidee، وبعضهم يسمّونه بنهر الشّياطين، وبعضهم بالنهر دائم العفونة. وفي هذا البحر غرقت خمس مدن بغضب من الرّب، وأسماؤها: سدوم Sodom، عمورة Gomorrah، أدمة Aldama، صبوئيم Zeboim، صوعر Zoar وذلك بسبب خطيئة إتيان الذكور التي كانت تسيطر عليهم. ولكن وبصلوات لوط أنقذت صوعر Zoar لأنها كانت فوق تلة وبقيت هناك لوقت طويل، وحتى الآن يظهر منها جزء صغير فوق الماء، ومن الممكن للناس أن يروا الأسوار عندما يكون الطّقس صافياً وصحواً.

وفي تلك المدينة سكن لوط لفترة قصيرة، وهناك حيث أسكرته بنتاه فاضطجع معهما وأنجب منهما مؤاب Moab وعمّون Ammon. والسّبب الذي جعل بنتيه تُسكرانه وتنامان معه كان الآتي: لأنهما لم يريا أيّ رجلٍ حولهما إلا أبوهما واعتقدتا بأن الله قد دمّر كل العالم كما فعل بالمدن التي حولهم، كما فعل سابقاً زمن طوفان نوح. ولهذا نامتا مع أبيهما لتحصلا على نسل ولكي تعيدا ملء الدّنيا بالناس مرة ثانية، لأنهما ظنتا بأنه لا يوجد أي إنسان آخر على وجه الأرض، وإذا لم يكن أبوهما مخموراً فإنه لن ينام معهما.

والتلة التي فوق صوعر Zoar سمّاها النّاس أدوم Edom ثم سمّوها سعير Seir وبعدها سميت أدوميا Idumea. وعلى الجانب الأيمن من البحر الميت هذا، ما تزال تسكن زوجة لوط بشكل حجر ملحي، وذلك لأنها نظرت وراءها عندما غرقت المدن في جهنم. وكان لوط هذا ابناً لهاران Haran الذي كان أخا إبراهيم، وزوجته سارة، وملكاه Milcah زوجة نوح، اللتين كانتا أختين للوط المذكور. وهذه سارة نفسها كانت تبلغ من العمر أربعة عشر عاماً عندما حملت بابنها إسحق، كما كان لإبراهيم ولد آخر اسمه إسماعيل حملت به هاجر زوجته السّابقة، وعندما بلغ ابنه إسحق ثمانية أيام ختنه أبوه إبراهيم وكان معه ابنه إسماعيل وكان عمره أربعة عشر عاماً، ولهذا ولأن اليهود جاؤوا من نسل إسحق فإنهم يُختنون في عمر الثّمانية أيام، والمسلمون أتوا من سلالة إسماعيل فيختنون في عمر الأربعة عشر عاماً.

ويجب أن تعلموا بأنّه في البحر الميت يصبّ نهر الأردن وهناك ينتهي، وذلك لأنه لا يجري لأي مكان بعد ذلك، وهذا المكان يبعد مسافة ميل واحد غرباً عن كنيسة القدّيس يوحنا المعمدان، وتحت هذا المكان بقليل كان يعبر النّاس المسيحيون كثيراً، وعلى مسافة ميل واحد من نهر الأردن يوجد نهر يَبوق Jabbok الذي عبره يعقوب عندما جاء من بلاد الرّافدين Mesopotamia. ونهر الأردن هذا ليس بالنهر الكبير جداً ولكن يوجد فيه الكثير من أنواع الأسماك الجيدة، وهو ينبع من هضبة في لبنان من نبعين يسمّيان: Jor وDan ومن هذين النّبعين أتى اسمه. ويعبر من بحيرة تدعى مارون وبعدها يعبر إلى بحيرة طبريّة، ويعبر من تحت هضاب جلبوَع Gilboa وهناك يوجد وادٍ نضير، على هذا الطّرف وعلى الطّرف الآخر من نفس النّهر. ويذهب النّاس على طول هضاب لبنان حتى صحراء فاران Pharan وهذه الهضاب جزء من مملكة سوريا وفينيقيا، وفوق هذه الهضاب ينمو شجر الأرز الشّاهق العلو، وتعطي الأشجار تفاحاً طويلاً، يبلغ من الكبر حجم رأس الإنسان.

وأيضاً يقسم نهر الأردن هذا أرض الجليل وأرض أدوم Idumea وأرض Betron وهو يجري تحت الأرض مسافة طويلة حتى سهل جميل وكبير يدعى Meldan في

Sarmois والـذي يعني المعرض أو السّـوق بلغتهم، لأنه غالباً مـا كان يوجد معارض في هذا السّهل. وهناك يصبح الماء كبيراً وعريضاً. وفي هذا السّهل قبر أيّوب Job.

وفي نهر الأردن هذا المذكور سـابقاً كان سـيّدنا المسـيح قد عُمّد من قبل القدّيس يوحنا، وصوت ربنا الآب سُمِع يقول:

Hic est Filius meus dilectus, etc.

والـذي معنـاه «هذا هـو ابني الحبيب الذي به سُـررت، فاسـمعوه» وتجلـى الرّوح القدس عليه بهيئة حمامة، وكذلك بتعميده اكتمل الثّالوث المقدّس.

وعبـر هـذا النّهـر عبر بنـو إسـرائيل، بأقدام جافـة، وقـد وضعوا حجارة في وسـط المـكان، كتـذكار بالمعجزة التي انحسـر بفعلها الماء، وأيضاً وفي نهر الاردن اغتسـل نعمـان Naaman الآرامـي ليتطهّر، وكان غنياً جداً ولكنـه كان مصاباً بالجذام، وبعدها استردّ عافيته.

وحول نهر الأردن هذا يوجد الكثير من الكنائس حيث سكن الكثير من المسيحيين. وليس ببعيد توجد مدينة Ai حيث هوجم يشوع وقُبض عليه. وأيضاً وخلف نهر الأردن يوجـد وادي مَمرا Mamre الذي هو وادٍ جميل جداً. وأيضاً فوق الهضبة التي تحدثت عنها سـابقاً، حيث صـام مخلّصنا أربعين يوماً. وعلى مسـافة ميلين مـن الجليل توجد هضبة جميلة عالية حيث ظهر العدو الشرّير لمخلّصنا للمرة الثّالثة ليغويه. وأراه جميع مناطق العالم وقال:

Hec omnia tibi dabo, si cadens adoraveris me.

والذي يعني: «كل هذا سأعطيك إذا ما خضعت وعبدتني».

وأيضاً من البحر الميت إذا ذهبنا باتجاه الغرب خارج طرق الأراضي المقدّسة التي تدعـى أرض الميعـاد Land of Promission، توجـد قلعة قويـة وجميلة، على هضبة تدعى الكَرَك Carak in Sarmois وهذا يعني: بشكل ملكي. تلك القلعة شيّدها الملك بلدوين Baldwin الذي كان ملك فرنسا، عندما استولى على الأرض، ووضعها بأيدي

الرّجال المسيحيين ليبقي على هذه البلد، ولذلك تدعى بالجبل الملكي. وتحتها توجد مدينة تدعى الشّوبَك Sobach وهناك في تلك النواحي يسكن المسيحيون ولكنهم يدفعون الجزية.

ومن هناك يذهب النّاس إلى النّاصرة والتي منها يحمل مخلّصنا لقبه، ومن هناك تستغرق الرّحلة ثلاثة أيام للوصول إلى القدس، ويذهب النّاس عبر مقاطعة الجليل، عبر Ramath، وعبر Sothim وعبر هضبة عالية من Ephraim، حيث سكنت Elkanahوحنّة Hannah والدة صموئيل. وهناك سكن هذا النّبي وبعد موته دُفن في جبل المسرّة Joy كما ذكرت سابقاً.

وبعدها يذهب الرّجال إلى السّلوان Shiloh حيث حُفظ تابوت الرّب مع الرّفات وقتاً طويلاً بيد النّبي إيليا Eli. وهناك جعل شعب الخليل Hebron أضحيتهم لمخلّصنا، ووفّوا بنذورهم. وهناك تكلم الله أول مرة مع صموئيل، وأراه تغيير أمر الكهنوت، وسرّ الأسرار المقدّسة. وليس بعيداً على الجانب الأيسر توجد جبعون Gibeon والرّامَة Ramah وبنيامين Benjamin، التي تحدثت عنها الأسفار المقدّسة.

وبعدها يذهب الرّجال إلى شكيم Sichem والتي في وقت ما كانت تدعى Sichar، والتي هي في مقاطعة السّامريين Samaritans. وهناك يوجد وادٍ جميل ومثمر، كما توجد هناك مدينة جميلة وجيدة سمّيت Nople. ومن هناك تحتاج الرّحلة يوماً واحداً للوصول إلى القدس. وهناك يوجد بئر، حيث تكلم مخلّصنا مع المرأة السّامرية، وهناك كانت توجد كنيسة ولكنها دثرت. وبجانب ذلك البئر صنع الملك رَحَبْعام Rehoboam عجلين من ذهب ووضعهما لكي يُعبدا. ووضع واحداً عند دان Dan والثّاني عند بيت إيل Bethel. وعلى بعد ميل واحد من Sichar توجد مدينة Luz وفي هذه المدينة سكن إبراهيم فترة من الزّمن. وشكيم[1] Sichem مدينة تبعد عشرة أميال عن القدس، وتدعى Neople ومعناه المدينة الجديدة.

(1) شكيم هو الاسم القديم لمدينة نابلس.

وفي الجانب القريب يوجد قبر يوسف بن يعقوب الذي حكم مصر، لأن اليهود أخرجوا عظامه من مصر ودفنوها هناك. وإلى هناك يذهب اليهود كثيراً للحجّ بورع وحبّ شديدين، وفي تلك المدينة اغتصبت ديناه Dinah بنت يعقوب، والتي لأجلها ذبح إخوتها الكثير من الأشخاص وفعلوا الكثير من الأذى للمدينة. وبجانب ذلك توجد هضبة جرزيم Gerizim حيث قدّم السّامريون أضحيتهم، وعلى هذه الهضبة كان إبراهيم سيضحي بابنه إسحق. وهناك بجانب وادي Dotaim يوجد جُبّ، الذي رُمي يوسف فيه من قبل إخوته الذين باعوه، وهذا على بعد ميلين من Sichar .

ومن هناك يذهب الرّجال إلى السّامرة Samaria التي يسميها النّاس الآن سبسطية Sebast والتي هي أكبر المدن في البلد، وهي تقع بين هضبة Aygnes تماماً مثل القدس. وفي تلك المدينة استقرت أسباط إسرائيل الاثنا عشر، ولكن المدينة ليست كبيرة كما كانت سابقاً، وهناك دفن القدّيس يوحنا المعمدان بين النبيين اليشع Elisha وعوبَديا Abdon ولكنه كان قد قطع رأسه في قلعة Macharim جانب البحر الميت. ولكن بعدها نُقل بواسطة أتباعه ودُفن في السّامرة. وهناك حفر يوليانوس المرتدّ Julianus Apostata وأخرجه وحرق عظامه (لأنه كان في ذلك الوقت الإمبراطور) وبعدها نثر الرّماد في الهواء. ولكن الاصبع التي عرضها مخلّصنا قائلاً: *Ecce Agnus Dei* والذي معناه «هذا حَمَل الرّب» الذي لا يحرق أبداً ولكنه دائماً سالم، هذا الاصبع جعل القدّيسة ثقلا Thecla العذراء المقدّسة تولد في هضبة Sebast، وهناك أقام النّاس احتفالاً كبيراً.

وفي ذلك المكان كانت توجد كنيسة جميلة، بالإضافة إلى الكثير من الكنائس التي كانت هناك، ولكنها دثرت جميعاً. كما كان رأس القدّيس يوحنا المعمدان موجوداً هناك في داخل السّور. ولكن الإمبراطور ثيودوسيوس Theodosius سحبه خارجاً، ووجده ملفوفاً بقطعة قماش صغيرة مليئة بالدّماء، وكذلك حُمل إلى القسطنطينية. وما يزال حتى الآن الجزء الخلفي من الرّأس في القسطنطينية، والجزء الأمامي من الرّأس حتى أسفل الذقن يوجد في روما تحت كنيسة القدّيس Silvester حيث يوجد

الكثيـر مـن الرّاهبات من مئة سـلك رهبنة، وقـد كان ما يزال يلتهب حتـى أن نصفه قد احتـرق، لأن الإمبراطـور يوليانـوس Julianus المذكـور سـابقاً مـن حقـده وضغينته حـرق هذا الجزء مـع باقي العظام، وما يـزال ظاهراً، ولقد أثبتت هذه الأشـياء من قبل البابـاوات والأباطرة. واليهود السّـفلة احتفظوا بالذقن وجزء مـن الرّماد والطّبق الذي كان الرّأس عليه، وعندما ضرب رأسه كان في Genoa وقد احتفل الجنويّون به احتفالاً كبيراً وكذلك فعل المسـلمون، وقال بعض النّاس بأن رأس القدّيس يوحنا موجود في مدينـة أميـان Amiens في Picardy، وقال غيرهم بأنه رأس القدّيس يوحنا الأسـقف. لا أعرف أبداً والله وحده يعلم. ولكن وبأي طريقة عبده فالقدّيس البار يوحنا حمله.

وتبعد مدينة سبسطية Sebast عن القدس مسافة اثني عشر ميلاً. وبين هضاب ذلك البلـد يوجد نبـع يغيّر لونه أربع مرات في السّـنة، أحيانـاً أخضر وأحيانـاً أحمر، أحياناً صافٍ وأحياناً معكّر، وقد سـمّى النّاس هذا النّبع بنبع أيّوب Job، والنّاس في الأرياف الذيـن يعرفـون بالسّـامريين كانوا قد أدخلوا في المسـيحية وعُمِّدوا مـن قبل التلاميذ، ولكنهم لا يتبعون دينهم جيداً ودائماً يتبعون قانوناً يضعونه بأنفسهم، وهو مختلف عن المسيحيين والمسلمين واليهود والوثنيين Paynims.

والسّـامريون يعتقـدون بإلـه واحد ويقولون بأنـه لا يوجد غيـر ربّ واحد خلق كل شـيء وسينهي كل شيء، ويحملون الإنجيل بعد الرّسائل، ويستعملون كتاب المزامير كاليهـود. ويقولـون بأنهم أولاد اللـه الحقيقيـون. ويقولون بأنهم أكثر الشّـعوب قربى إلـى الله، وإليهم سـوف يعـود ميراث الله الـذي خصّصـه لأولاده المحبوبين. كما أنّ لهم لباسـاً وأشـكالاً مختلفة عن باقي الشّـعوب، فإنهم يلفون رؤوسـهم بقماش قطني أحمر اللون ليتميّزوا عن الآخرين. فالمسـلمون يلفون رؤوسـهم بقماش قطني أبيض، والمسـيحيون الذين يسـكنون الأرياف يلفون رؤوسـهم بقماش أزرق مـن الهند Ind، واليهود بقماش أصفر. وفي ذلك البلد يسـكن الكثير من اليهود ويدفعون الضريبة كما يفعل المسـيحيون، وإذا كنتم تريديون أن تعرفوا الأحرف التي يسـتخدمها اليهود فإنها كالتالي، وأسماؤها كما سمّوها كتبت فوقها، بنفس طريقة ABC ولكن بأحرفهم:

Aleph Beth Gymel Deleth He Vau Zay
Heth Thet Joht Kapho Lampd Mem Num
Sameth Ey Fhee Sade Coph Resch Son Tau.

❊ ❊ ❊

الفصل الثّالث عشر

عن مقاطعة الجليل، وعن المكان الذي سيولد فيه المسيح الدّجّال وعن النّاصرة، وعن عمر سيدتنا العذراء، وعن يوم القيامة وعن لباس اليعاقبة والسّريان، وعن الأعراف الجورجية

ومن بلد السّامريين هذه التي ذكرتها لكم قبل، يذهب الرّجال إلى سهل الجليل، ويغادرون الهضاب من تلك الجهة.

والجليل واحدة من مقاطعات الأرض المقدّسة، وفي هذه المقاطعة توجد مدن نائين Nain وكفر ناحوم Capernaum وكورزين Chorazin وبيت صيدا. وفي بيت صيدا هذه ولد القدّيس بطرس والقدّيس أندراوس Andrew. وعلى بعد أربعة أميال من هناك توجد كورزين Chorazin، وعلى بعد خمسة أميال من كورزين تقع مدينة قيدار Kedar حيث ذكر في سفر المزامير:

Et habitavi cum habitantibus Kedar

والذي يعني: «وقد سكنتُ مع السّاكنين في قيدار». وفي مدينة كورزين Chorazin سيولد المسيح الدّجال، كما يقول بعض النّاس، ولكن بعضهم الآخر يقول بأنه سيولد في بابل، كما قال النّبي:

De Babilonia coluber exest, qui totum mundum devorabit

والذي يعني: «ومن بابل سوف تأتي حشرة تلتهم كل العالم». والمسيح الدّجال هذا سيكبر في مدينة بيت صيدا وسوف يحكم في كفر ناحوم. ولهذا ذُكر في الصّحف

المقدّسة:

Vae tibi, Chorazin! Vae tibi, Bethsaida! Vae tibi, Capernaum!

والـذي معناه: «ستكون لك كورزين، وستكون لك بيت صيدا وستكون لك كفر ناحوم». وكل هذه المدن توجد في مقاطعة الجليل. كما توجد في الجليل أيضاً مدينة قانا التي تبعد عن النّاصرة مسافة أربعة أميال، ومن هذه المدينة كان سمعان القانوي Simon Chananeus وزوجته Canee، التي تكلم عنها المبشّر المقدّس. وهناك فعل سيّدنا المسيح أول معجزة له في حفل الزّفاف، عندما حوّل الماء إلى نبيذ.

وعند الهضاب التي في آخر مقاطعة الجليل، كان قد أخذ تابوت الرّب، وعلى الجانب الآخر يوجد جبل Endor أو الحرمون، وفي القرب يجري جدول قيشون Torrens Kishon، وبجانب هذا المكان كان باراق Barak ابن أبيملك Abimelech من دبورة Deborah النبيّة قد تغلب على جيش أدوم Idumea، عندما قُتِل الملك سيسرا Sisera على يد ياعيل Jael زوجة حابر Heber وطارد بقوّة السيف صيب Zeep وصباه Zebah وصلمونا Zalmunna عبر نهر الأردن وهناك ذبحهم أجمعين. وعلى بعد خمسة أميال من مدينة نائين Nain توجد مدينة جزريل Jezreel والتي كانت تسمّى في وقت مضى Zarim، المدينة التي كانت ملكتها وسيدتها إيزابِل Jezabel الملكة الملعونة، التي بسلطتها أخذت كرم نابوت Nobath. وبالقرب من هذه المدينة يوجد حقل مجدّو Megiddo الذي ذُبح فيه الملك يورام Joram من قبل ملك السّامرة Samaria، وبعدها نُقِل ودُفن في جبل صهيون.

وعلى بعد ميل من جزريل Jezreel توجد هضاب جلبُوَع Gilboa حيث مات شاؤول Saul ويهوناتان Jonathan، حيث لعنهم داود كما قالت الصّحف المقدّسة:
Montes Gilboae, nec ros nec pluvia, etc.

وهذا يعني: «أنتِ يا هضاب جلبوَع لا مطر ولا ندى سيسقط عليك». وعلى بعد ميل من هضاب جلبوَع باتجاه الغرب توجد مدينة Cyropolis والتي كانت تسمّى بيت شان Bethshan، وعلى أسوار هذه المدينة كان عُلِّق رأس شاؤول Saul.

وبعدهـا يذهب الرّجال عبر الهضبة التي بجانب سـهول الخليـل إلى النّاصرة، التي كانـت سـابقاً مدينة عظيمة وجميلة، ولكن الآن لا يوجـد منها غير قرية صغيرة وبعض البيـوت هنـا وهناك. وهي غير مسـكونة. وهي تقع في وادي صغيـر محاط بالهضاب. هناك ولِدت سيدتنا العذراء ولكنها أُخذت فيما بعد إلى القدس. وبسبب ولادة السّيدة العـذراء فـي النّاصرة يحمل سـيّدنا المسـيح لقبه من هـذه المدينة. هناك أخذ يوسـف السّـيدة العـذراء إلى زوجته عندمـا كانت في عمر الرّابعة عشـرة. وهناك رحّب جبريل بسيدتنا العذراء قائلاً:

Ave gratia plena, Dominus tecum!

ومعنـاه: «لـك الكثير مـن التبريك، الرّبّ معـك» وهذه التحيّة كانت قـد قُدّمت في نفس مكان المذبح الكبير في كنيسة جميلة كانت موجودة هناك يوماً ما، ولكنها دثرت نهائياً الآن، غير أنّ النّاس وضعوا إشعاراً بجانب عمود من هذه الكنيسة ليستلموا عطايا الحجّـاج، وقـد أبقى المسـلمون هذا المكان مكرّماً، بسـبب النّبي الـذي لديهم هناك. ذلك أنهم كانوا أكثر قساوة في أماكن أخرى، فعطّلوا كل الكنائس.

وبالقـرب مـن هناك يوجد نبع جبريل، حيث اعتاد سـيّدنا المسـيح على الاغتسـال عندمـا كان صغيـراً، ومن هذا النّبع حمل الماء عدة مرات لأمّه. وفي هذا النّبع غسـلت ملابس ابنها يسوع المسيح مراراً. وتأخذ الرّحلة من القدس إلى هذا المكان ثلاثة أيام. وفي النّاصرة تربى سـيّدنا المسـيح. ويمكننا القول بأن النّاصرة هي وردة في الحديقة، ومن الممكن تسـميتها الوردة، وذلك لأن وردة الحياة أنشـئت هناك والتي هي سـيّدنا المسيح.

وعلى بعد ميلين من النّاصرة توجد مدينة صفّورية Sephor، ومن هذا الطّريق نصل إلـى عـكّا Akon من النّاصـرة. وعلى بعد نصف ميل من النّاصـرة يوجد المكان حيث وثب سيّدنا المسيح. وذلك كان عندما قاده اليهود فوق صخرة عالية ليجعلوه يقفز إلى الاسـفل ويذبحوه، ولكن يسـوع مر مـن بينهم وقفز من على صخـرة أخرى، وما تزال خطوات قدميه مرئية في الصّخر عندما هبط. ولذلك يقول بعض النّاس عندما يخافون

من اللصوص أو من أي شيء آخر أو يخافون من عدو:
Jesus autem transiens per medium illorum ibat

وهـذا يعني: «يسـوع تركهم وعبر من بينهـم ماضياً» وبالاعتقـاد وبترديد أن مخلّصنا عبر من خلال اليهود الأشرار، ونجا بنفسه منهم، يؤكد النّاس بأنهم من الممكن أن يدفعوا خطر اللصوص عن أنفسهم. وبعدها يتلو النّاس ثلاثة مقاطع من كتاب المزامير تقول:
Irruat super eos formido & pavor, in magnitudine brachii tui, Domine. Fiant immobiles, quasi lapis, donec pertranseat populus tuus, Domine; donec pertranseat populus tuus iste, quem possedisti

وعندها يمكن للناس أن يعبروا بدون خوف.

كمـا يجب أن تعلموا، بأنّ سـيدتنا العـذراء كان لها طفل عندما كانت في الخامسـة عشـرة من العمر. وكانت قد بقيت مع ابنها فترة ثلاث وثلاثين سـنة وثلاثة أشهر. وبعد آلام سيّدنا المسيح عاشت أربعة وعشرين عاماً.

ومـن النّاصـرة يذهب النّاس إلـى جبل تابـور Tabor الذي يبعد أربعـة أميال. وهو هضبـة عاليـة جـداً ورائعة الجمال، وقـد كان يوجد هنـاك مدينة وعـدّة كنائس ولكنها خربـت جميعها. لكـن ما يزال يوجد مكان يسـمّيه النّاس مدرسـة الـرّب، حيث اعتاد أن يُعلّم تلاميذه، وأخبرهم بأسـرار السّـماء. وعند أسـفل هذه الهضبة كان ملكيصادق Melchisedech الـذي كان ملـكاً علـى سـالم، قـد قابـل إبراهيـم بالتفافه حـول هذه الهضبـة أثناء عودته من المعركة عندما ذبـح أبيملك Abimelech. كما أن ملكيصادق Melchisedech هـذا كان ملـكاً وكاهنـاً على سـالم التـي تسـمّى الآن القدس. وعلى هضبة Tabor هذه غيّر مخلّصنا شكله أمام القدّيس بطرس، والقدّيس يوحنا والقدّيس يعقوب، وهناك رأوا طيفي النبيين موسى وإلياس بجانبهم. ولهذا قال القدّيس بطرس:
Domine, bonum est nos hic esse; faciamus hic tria tabernacula.

والـذي يعنـي «ربنا، أنـه من الجيد لنـا أن نكون هنـا، اصنع لنا هنا ثـلاث مظلات» وسَمِعوا صوتاً من ربنا الآب يقول:

Hic est Filius meus dilectus, in quo mihi bene complacui.

وقد حماهم ربنا على أن يحفظوا هذه الرّؤية إلى أن بُعث من الموت إلى الحياة.

وعلى هذه الهضبة وفي نفس المكان، سينفخ أربعة من الملائكة بأربعة أبواق في يوم القيامة ليُبعث كل الاموات. وبما أن العالم كان قد خُلق من الموت إلى الحياة، فسوف يعود إلى الجسد والرّوح للحساب، أمام وجه ربنا في وادي يهوشافاط Jehosaphat. والقيامة ستكون في يوم الفصح، في نفس الوقت الذي بُعث فيه مخلّصنا. وستبدأ القيامة في نفس السّاعة التي نزل فيها ربنا إلى جهنم وأطفأها، ففي نفس هذه السّاعة سوف يوقف العالم ويقود الذين يختارهم إلى النّعيم، وسيحكم على الآخرين بالعذاب الدائم. وبعدها سيذهب كل إنسان إلى مكانه سواءٌ كان جيداً أو شريراً، ولكن إذا تجاوزت رحمة الرّب صلاحه.

وعلى بعد ميل من جبل تابور Tabor يوجد جبل حرمون، وهناك كانت توجد مدينة نائين Nain، وعند بوابة هذه المدينة أحيا مخلّصنا ابن أرملة التي لم يكن لديها أيّ أبناء آخرين. وعلى بعد ثلاثة أميال من النّاصرة توجد قلعة Safra التي منها خرج أبناء زبَدي Zebedee وأبناء ألفايوس Alpheus. وعلى بعد سبعة أميال من النّاصرة يوجد جبل قايين Cain الذي تحته يوجد بئر وبجانب هذا البئر ذبح لامك Lamech والد نوح قايين Cain بسهم، وذلك لأن قايين ذهب خلال الشّجيرات والحشائش كحيوان بري، وقد كان عاش منذ أيام والده آدم حتى زمن نوح، وعُمّر أكثر من 2000 سنة، ولامك هذا كان أعمى لكبر سنه.

ومن صفّورية Safra يذهب الرّجال إلى بحر الجليل ومدينة طبريّة، التي تقع على نفس البحر. وبالرغم من أن النّاس يسموه بحراً فهو ليس بحراً وليس فرعاً من بحر، حيث أنه عبارة عن بحيرة من الماء النّقي يبلغ طولها مئة فرلنغ وعرضها أربعين فرلنغاً[1]، ويوجد فيها الكثير من أنواع السّمك الجيد، وماؤها يصبّ في نهر الأردن.

---

(1) الفرلنغ مقياس قديم يعادل ثُمن الميل.

أمّا المدينة فهي ليست بالمدينة الكبيرة ولكن لها ممرات على هذا البحر.

وهناك حيث انشقاق نهر الأردن من بحر الجليل[1] يوجد جسر كبير، حيث يعبر النّاس من أرض الميعاد Land of Promission إلى أرض الملك باشان Bashan وأرض جِنيسارِت Gennesaret التي تمتد ممّا حول نهر الأردن حتى بداية بحر طبريّة. ومن هناك يذهب النّاس إلى دمشق في رحلة مدتها ثلاثة أيام عبر مملكة تراخونيتيس Traconitis المملكة التي تمتد من جبل الحرمون حتى بحر الجليل أو حتى بحر طبريّة أو بحر جِنيسارِت Gennesaret وكل هذه مسمّيات لبحر واحد، وهذا هو الحوض الذي أخبرتكم عنهم سابقاً، ولكن اسمه يتغير بتغير المدن التي تقع جانبه.

وفوق هذا البحر كانت قد عبر سيّدنا المسيح جاف الأقدام، وهناك رفع القدّيس بطرس عندما بدأ يتبلل بمياه البحر وقال له:

Modice fidei, quare dubitasti?

وبعد قيامته ظهر السّيد المسيح لتلاميذه على هذا البحر وقدّم لهم سمكاً، وملأ كل الشّبكة بأسماك كبيرة. وفي هذا البحر جذّف سيّدنا المسيح عدة مرات وهناك دعا إليه القدّيس بطرس والقدّيس أندراوس Andrew والقدّيس يعقوب James والقدّيس يوحنا، أبناء زَبَدي Zebedee.

وفي مدينة طبريّة هذه توجد الطّاولة التي عليها أكل سيّدنا المسيح وتلاميذه بعد قيامته، وقد عرفوه من تقطيعه للخبز، كما قال الإنجيل:

Et cognoverunt eum in fractione panis.

وبالقرب من مدينة طبريّة توجد الهضبة التي عليها أطعم سيّدنا المسيح 5000 شخص، بخمسة أرغفة من الشّعير وسمكتين.

وفي هذه المدينة رمى رجلٌ برمح ملتهب سيّدنا المسيح، وضرب رأس الرّمح الأرض فاكتست باللون الأخضر، ونمت فيها شجرة ضخمة وما تزال تنمو حتى الآن،

(1) بحر الجليل هو الاسم القديم لبحيرة طبريّة.

ولهذا لها لحاء يبدو مثل الفحم.

وعند رأس بحر الجليل هذا، باتجاه الشّمال توجد قلعة متينة وعالية حيث تبلغ من العلو ما تبلغه صفّورية Saphor. وبالقرب من هناك توجد كفر ناحوم. في داخل أرض الميعاد Promission توجد قلعة ولكنها ليست قوية، كما توجد مدينة بالقرب من هذه القلعة تدعى صفّورية Saphor أيضاً. في تلك القلعة ولدت القدّيسة حنة والدة سيدتنا العذراء، وأسفل ذلك المكان كان بيت قائد المئة Centurio. وقد سميت هذه البلد بالجليل لأن النّاس كانوا يدفعون الجزية لقبيلتي زبولون Zebulon ونفتالي Napthali.

وبالذهاب مسافة ثلاثين ميلاً من هذه القلعة توجد مدينة دان Dan التي كانت تسمّى بلبناس[1] Belinas أو قيصريّة فيليبي Cesarea Philippi وهي تقع على سفح جبل لبنان، حيث يبدأ نهر الأردن. من هناك تبدأ أرض الميعاد Land of Promission وتمتد طولاً حتى بئر السّبع، وبالذهاب شمالاً من الجنوب فإنها تبلغ ثمانية أميال، أما عرضاً فيمكننا القول بأنها تمتدّ من أريحا حتى حيفا وهذه المسافة تبلغ أربعين ميلاً لومبارديا، أو ميل بلادنا والتي هي ليست نفس الأميال المستخدمة في غسقونيا Gascony ولا تلك التي تستخدم في ألمانيا، حيث أن الأميال هناك أكبر قليلاً.

كما يجب أن تعلموا بأن أرض الميعاد Land of Promission توجد في سوريا، حيث أن مملكة سوريا تمتدّ من بوادي جزيرة العرب حتى كيليكيا، وهذه تدعى أرمينيا الكبرى، حيث يمكننا القول بأنها تمتدّ من الجنوب إلى الشّمال ومن الغرب إلى الشّرق من الصّحراء العربية الكبرى حتى البحر الغربي. ولكن في مملكة سوريا هذه أيضاً توجد مملكة يهوداه Judea وكثير من المقاطعات كفلسطين والجليل وكيليكيا الصّغرى وكثير غيرها.

وفي تلك البلد وفي بلاد أخرى أبعد أيضاً يلبس النّاس لباساً خاصاً عند الحرب وعندما يريدون حصار مدينة أو قلعة، كما أنهم لا يجرؤون على إرسال أيّة رسالة من

(1) سمّيت في العهد الإسلامي بانياس، وما زالت تعرف بهذا الاسم حتى اليوم، وهي من مدن الجولان المحتل.

أميـر إلى آخر بقصد طلب المسـاعدة، ولكنهـم يعلقون رسـائلهم ويربطونها إلى عنق حمامة، ويتركون الحمامة تطير، وتكون قد عُلِّمت جيداً كيف تطير بهذه الرّسـائل إلى أي مـكان يريدونهـا أن تطيـر إليه، لأن هذه الحمائـم كانت قد ربيت فـي الأماكن التي تُرسـل اليهـا، وبهـذه الطّريقة يرسـلون رسـائلهم لأن الحمائم تعود إلـى الأماكن التي ربّيت فيها، وهذا ما تفعله عادة.

كما ينبغي أن تعلموا بأن بين المسـلمين يسـكن الكثير من المسـيحيين من مختلف المِلل والأسماء، وكلهم كانوا قد عُمِّدوا ولديهم قوانينهم المختلفة ولباسهم المختلف، ولكنهـم كلهم يؤمنـون بالرّب الآب والـرّب الابن وروح القدس، ولا يومنون بأشـياء أخـرى مـن عقائدنا. بعضهـم يدعـى اليعاقبـة Jacobits، وذلـك لأن القدّيس يعقوب James كان قد حوّلهم للمسيحية والقدّيس يوحنا كان قد عَمّدَهم. يقولون بأن الإنسان يجب أن يعترف لله فقط، وليس لإنسان، وبأن لله وحده ينبغي للإنسان أن يعترف بأنه مخطـئ فـي حال ضل السّـبيل. وأن الله لم يعيّـن أي كاهن ولم يـورث أي نبي ليحلّل النّـاس مـن خطاياهم (كما يقولون) ولكن يجب فعل هذا الله وحده، كما كتب موسـى في التّوراة، وكما قال داود في المزامير:

Confitebor tibi, Domine, in toto corde meo,
Delictum meum tibi cognitum feci,
Deus meus es tu, & confitebor tibi,
Quoniam cogitatio hominis confitebitur tibi, etc.

وذلـك لأنهـم يعرفون التّـوراة والمزامير لذلك يزعمـون بأنهم يتبعونهـا، كما أنهم يدَّعـون بعدم ضرورة المرجعية للغة اللاتينية حيـث أن لغتهم واضحة تماماً، ويقولون بأن داود وأنبياء آخرين قالوا كذلك.

وبالرغـم من أن القدّيس أغسـطين Augustine والقدّيـس غريغوريوس Gregory قالا:

Augustinus *Qui scelera sua cogitat, & conversus fuerit, veniam sibi credat*

وقال القدّيس غريغوريوس:

Gregorius *Dominus potius mentem quam verba respicit*

وقال القدّيس هيلاريون:

Longorum temporum crimina, in ictu oculi pereunt, si cordis nata fuerit compunctio

وبناءً على هذه المرجعية كما يقولون، بأن الإنسان يجب أن يطلع الله وحده على أخطائه، ويعترف بذنوبه ويبكي ويطلب منه الرّحمة ويعده بأن يصلح نفسه. ولذلك عندما يَحِلّون أحداً من خطاياه، يجلبون ناراً ويضعونها بالقرب منه وينثرون فيها مسحوقاً من البخور، وفي الدّخان المتصاعد تذهب خطاياه إلى الله، فيعطيه بدلاً منها رحمة.

ولكن ومن الواضح أن الاعتراف بالخطايا كان على هذه الطّريقة في السّابق، ولكن القدّيس بطرس التلميذ والذين أتوا بعده شرَّعوا بأن يكون الاعتراف بالخطايا لإنسان وذلك لسبب منطقي، وهو أن يروا فيما إذا كان هذا الإنسان لا يعاني من مرض من الممكن معالجته، وعندها من الممكن أن يعطوه دواءً، فإذا لم يعرف أي إنسان بطبيعة مرضه فمن غير الممكن أن يعطى دواءً شافياً، وذلك لأن الخطيئة قد تكون مختلفة من شخص إلى آخر ومن مكان إلى آخر أو من وقت إلى آخر، ولهذا ينبغي أن يعرف نوع الخطيئة إنسان ما، وهكذا يغفر له خطاياه.

كما يوجد آخرون يدعون بالسّريان، وهؤلاء يؤمنون بنفس عقائدنا ومنهم اليونان. ولهم لحى كاليونان تماماً، ويصنعون سرّهم المقدّس من الخبز، وفي لغتهم يستعملون الأحرف العربية، ولكن وبعد غموض الكنيسة المقدّسة أصبحوا يستخدمون الأحرف اليونانية، ويعترفون بخطاياهم تماماً كما يفعل اليعاقبة Jacobites.

كما يوجد أناس آخرون يدعون الجورجيين، هؤلاء الذين بشّرهم بالمسيحية القدّيس جورج، فإنهم يبجّلونه أكثر من أيّ قدّيس آخر، ويتوسّلون إليه ليساعدهم، وأصولهم من جورجيا. وهؤلاء النّاس لهم جُمّات شعر محلوقة، فالمحاسب له جُمّة

دائرية الشّكل والفاسقون لهم جُمّات مربعة. وهم يتبعون القانون المسيحي، كما يفعل النّاس في اليونان الذين ذكرتهم سابقاً.

ويوجد أيضاً هناك أناس آخرون يسمّيهم المسيحون بالمحزّمين Girding وذلك لأنهم يرتدون الأحزمة. كما يوجد آخرون يدعون بالنّساطرة Nestorians وبعضهم يدعون بالأريانيين Arians، وبعضهم يدعى بالنّوبيين Nubians وبعضهم من اليونان، وآخرون من الهند وبعضهم من أرض الرّاهب يوحنا[1]. وكل هؤلاء لديهم الكثير من قوانينا ومعتقداتنا، ولديهم الكثير غيرها مختلف. ولكثرة اختلافهم من غير الممكن ذكرهم، لذلك سأترك هذا بدون الإطالة في ذكرهم أكثر من ذلك.

* * *

(1) تقدّم ذكر هذا الملك الأسطوري أعلاه، في الفصل السادس.

الفصل الرّابع عشر

عن مدينة دمشق، وعن الطّرق الثّلاث المؤدية للقدس، أحدها براً وبحراً، الآخر براً أكثر منه بحراً والطّريق الثّالث للقدس كله براً

والآن وبعد أن أخبرتكم عن جزء من النّاس في هذه البلاد، أعود ثانية على طريقي لأرجع إلى هذا الموضع:

فمن أراضي الجليل - التي تحدّثتُ عنها - يعود المسافرون أدراجهم إلى دمشق، وهي مدينة جميلة وفخمة جداً، ومليئةٌ بكل أنواع البضائع. تبعد عن البحر ثلاثة أيام، وعن القُدس خمسة أيام. يحمل إليها التجّار بضائعهم على الجمال والبغال والخيول والهجن والدّواب الأخرى، كما تصل إليها البضائع بحراً من الهند وإيران والعراق Chaldea وأرمينيا، ومن ممالك أخرى عديدة.

كانت مدينة دمشق قد بُنيت أصلاً على يد «هِليزيوس داماسكوس» Helizeus Damascus، الذي كان تابعاً لإبراهيم النبي وخادماً، قبل مولد إسحاق. ولأنه كان يأمل أن يرث إبراهيم، فقد بنى المدينة وسمّاها باسمه الشخصي «داماسكوس» Damascus. وفي هذا المكان الذي شُيِّدت فيه دمشق قتل قابيل أخاه هابيلَ. وبقرب دمشق جبل سنير[1] Seir.

(1) جبل سَنير قديماً هو حرمون، لكن الشائع في القرون الوسطى أنه سلسلة لبنان الشرقية. ومعنى اسم شنير في الكنعانيّة: المَجلَدة، أي القمم المكسوة بالثلوج.

يوجد بدمشق عدد كبير من ينابيع المياه، وتنتشر فيها وحولها البساتين الغنّاء المترعة بعموم أصناف الفاكهة. إنها مدينة لا تجارى من حيثُ نضارة بساتينها للاستجمام. وهي حاضرة كبيرة تغصّ بالسّكان، ويدور بها سورٌ قويّ مزدوج، وبها العديد من الأطبّاء.

والواقع أن القدّيس بولس نفسه كان بدمشق طبيباً، يزاول تطبيب أجساد الناس، قبل اهتدائه وتكريسه طبيباً للأرواح. كما كان لوقا الإنجيلي واحداً من مُريدي بولس وتلامذته في الطبّ، فضلاً عن الكثيرين غيره، إذ أن بولس كان يقوم على مدرسة لتعليم الطب. ثم اهتدى بالقُرب من مدينة دمشق، وعقب اهتدائه أقام بهذه المدينة ثلاثة أيام فاقد البصر، دون طعام أو شراب. وفي هذه الأيام الثلاثة رُفع إلى السّماء، فأطلعه الله على بعض حقائق الكون.

وغير بعيد عن دمشق تقع قلعة Arkes[1]، وهي قلعة جميلة وقويّة في آن واحد.

ومن دمشق يعود الرّجال إلى دير سيّدة صيدنايا Lady of Sardenak، وهو يبعد عن دمشق مسافة خمسة أميال. والدّير يستقرّ على صخرة، وهو مكان جميل ويبدو وكأنه حصن، كما كان أصلاً فيما مضى، لكنه صار الآن كنيسة بغاية البهاء، وفيها رُهبان وراهبات مسيحيون.

وثمّة دارة تحت الكنيسة يقطنها المسيحيون أيضاً، ولديهم كُروم جيّدة. وفي جدار الكنيسة خلف المذبح، توجد لوحة من الخشب الأسود، كان مرسوماً عليها بالسّابق صورة للسيّدة العذراء، وكانت تتجسّد إلى لحم حيّ، لكنها الآن تبدو بالكاد باهتة. غير أنها ما زالت على الدّوام - ببركة الله - ترشح زيتاً قريب الشّبه بزيت الزّيتون. ولقد وُضع تحت اللّوحة حوضٌ رُخاميّ، ليتجمّع فيه الزّيت الذي يقدّمون منه إلى الحجّاج،

---

(1) كذا بالأصل، ولم يكن غير الواضح ما يعنيه ماندڤيل بهذه القلعة غير البعيدة عن دمشق. يبدو الاسم قريباً من Krak (والاسم آرامي)، أي حصن الأكراد (قلعة الحصن)، كما تسمّى بالفرنسية، وعنها نقلت باقي اللغات الأوروبية: le Crac des Chevaliers، غير أنها لا تقع بالقرب من دمشق. ولكن من خلال كلامه أدناه (حيث يسمّيها Arkez) يتضح أنه يقصد بها قلعة عَرقة القريبة من طرابلس.

حيث أن له خواصاً في إشفاء الكثير من الأمراض. وهذا الزّيت يبقى صافياً لمدّة سنة واحدة، فإذا انقضت السّنة استحال إلى لحم ودم [1].

ومن صيدنايا Sardenak يذهب الرّجال عبر وادي البقاع Bochar وهو وادٍ جميل جداً يقع بين الهضاب ويوجد فيه الكثير من الفواكه من جميع الاشكال والألوان، وهناك توجد أيضاً أنهار ومروج ومراعٍ غاية في الجمال ترعى فيها الحيوانات. ويذهب الرّجال عبر جبال لبنان Lebanus التيّ تمتد من أرمينيا حتى شمال دان Dan، التي هي نهاية أرض الميعاد Repromission من جهة الشّمال، كما كنت قد ذكرت سابقاً. والتلال هناك مثمرة جداً ويوجد فيها الكثير من الينابيع وأشجار الأرز والسّرو، كما يوجد العديد من القرى الجميلة تمتدّ حتى رؤوس هذه الهضاب التي هي مليئة بالناس.

وبين مدينة عَرقة [2] Arkez ومدينة رفنية Raphane يوجد نهر يدعى Sabatory وهو يجري سريعاً يوم السّبت، أما باقي أيام الأسبوع فإنه يقف ولا يجري إلا قليلاً، وبين الهضاب المذكورة توجد مياه تتجمّد في أثناء الليل ولا تجد أي أثر للجليد عليها في أثناء النّهار. وبعد التقدّم عبر هذه الهضاب توجد تلة أعلى من غيرها، يسمّونها

---

(1) أفاض الرّحالون الغربيون بذكر هذه الأيقونة العجائبية وزيتها، ولا زالت تتمتّع بشهرة فائقة إلى يومنا هذا، يقصدها النّاس وأصحاب الأمراض، من جميع الملل والدّيانات. راجع ما يذكره ابن فضل الله العُمَري ؛ وانظر كتابي: وصف دمشق في القرن السابع عشر، ص 66. أما أوسع مرجع عن تاريخ صيدنايا وأديرتها وأيقونتها فهو: «خبايا الزّوايا من تاريخ صيدنايا» لحبيب الزيّات، المنشور في حريصا 1932. والزّيّات يدّعي في كتابه أن الأيقونة سُرقت منذ زمن بعيد. غير أن القائمين على الدّير من الرُّوم يرفضون ما جاء في كتابه، ويعدّونه مارقاً لا يُقبل كلامه.

(2) يخيّل لي هنا أنه يقصد عرقة في عكّار، التي تبعد عن طرابلس 25 كيلومتراً إلى الشمال، وعن حَلبا 3 كيلومترات إلى الغرب. وكذلك فرفنيّة موقع قريب من طرابلس. وعلى ذلك يتأكد لنا أن ماندڤيل كان يقصدها عندما ذكر قلعة غير بعيدة عن دمشق. وكانت في عرقة قلعة صليبيّة تتبع كونتيّة طرابلس وتحتل موقعاً ستراتيجياً حيث تتحكم بالطريق بين طرطوس وطرابلس، وتشكّل مع حَلبا والقليعات مثلثاً يحمي طرابلس من غزو يأتي من ناحية حمص.

الهضبة العاليـة[1]، حيث توجد مدينة كبيرة وجميلة تسـمّى طرابلـس، وبها الكثير من المسيحيين الصّالحين، الذين يتبعون نفس طقوسنا وتقاليدنا.

ومن هناك يمرّ الرّجال بمدينة تدعى بيروت، حيث قتل القدّيس جورج التنين، وهي مدينـة جيـدة ويوجـد فيها قلعة جميلـة، وهي تبعد رحلـة ثلاثة أيام من مدينـة صيدنايا Sardenak المذكورة سـابقاً. وبالذهاب سـتة عشر ميلاً من أحد أطراف بيروت نصبح بالقرب من مدينة صيدا. ومن بيروت يعبر الحجيج البحر للذهاب إلى قبرص، ويصلون إلى ميناء صور، وهكذا يصلون عبر مسافة صغيرة، أو بإمكان النّاس أن يذهبوا من مرفأ صـور Surry وقد لا يذهبـون إلى قبرص وإنما يذهبون إلى مكان مـا من بلاد اليونان، كما كنت قد ذكرت لكم سابقاً.

لقـد كنت قد ذكـرت لكم كيف يمكـن للناس الوصـول بطريقة طويلـة وبعيدة إلى القـدس، وذلـك كان عن طريق بابل وجبل سـيناء وعدة أماكن أخـرى أخبرتكم عنها، وكذلـك عبـر الطّريق التي يجب علـى النّاس أن يلتفوا بها للوصـول إلى أرض الميعاد Land of Repromission. أمـا الآن فسـأخبركم بالطريـق الصّحيحـة والقصيـرة إلى القـدس، وذلـك لأن بعـض النّاس لا يرغبـون بالذهاب مـن طرق أخرى بسـبب أنهم لا يريـدون صـرف الكثير من المال، أو بسـبب عـدم وجود رفقة جيدة مـع البعض، أو لعـدم قـدرة البعض الآخر على تحمل السّـفر الطّويـل أو لخوفهم البعـض من أخطار الصّحراء، أو بسـبب استعجال البعض الأخر في الوصول إلى أرض الوطن لاشتياقهم إلـى زوجاتهـم وأبنائهم، أو قد يكـون لدى الآخرين أسـبابهم المنطقيـة للوصول إلى بلادهم سريعاً.

ولهذا سـأعرض عليكم كيف يمكن للناس أن يصلوا بسرعة ويأدّوا حجّهم للقدس بوقـت قصير. فيمكـن للمرء القادم من بـلاد الغرب أن يذهب عبر فرنسـا ومن ثم عبر

---

(1) كلام ماندڤيل تغلب عليه الدّقة وصحّة الوصف، وهو هنا يشير إلى قرنة السّودا، أو ظهر القضيب، التي هي فعلاً أعلى قمّة في بلاد الشام ويبلغ ارتفاعها 3093 متراً. وهي بالفعل قريبة من طرابلس.

بورغونيا Burgoyne ولومبارديا Lumbardy. وكذلك يمكن أن يذهب إلى البندقية أو جنوة Genoa أو مدن أخرى ويبحر من هناك وينطلق عبر البحر إلى جزيرة Greff التي لها علاقة بالجنويين Genoans.

وعند وصوله إلى اليونان عند مرفأ ميروك Mirrok أو ڤالون Valoun أو دوراس Duras أو أي من المدن الجميلة الأخرى في هذا البلد، يريح نفسه هناك ويشتري مؤونته ويبحر مرة أخرى إلى قبرص حيث يصل إلى فاماغوستا Famagost وليس إلى جزيرة رودوس. حيث أن فاماغوستا هي أكبر المرافئ في قبرص، وهناك يرتاح وينتعش قليلاً ثم يشتري مؤونته ومن ثم يبحر ثانية، حيث أنه إذا أراد فلن يرسو على أي أرض مرة أخرى قبل ميناء يافا، التي هي المرفأ للوصول إلى القدس، وتبعد فقط رحلة يوم ونصف من القدس، أي مايقارب ثلاثة وستين ميلاً.

ومن ميناء يافا يذهب الرّجال إلى مدينة الرَّملة Rames التي ليست ببعيدة من هناك، وهي مدينة جميلة وكبيرة ومليئة بالناس، ومن هذه المدينة باتجاه الجنوب توجد كنيسة لسيدتنا العذراء، حيث أظهر مخلّصنا لها نفسه على ثلاث غيمات، يمثلن الثّالوث المقدّس. وبالقرب من هناك يوجد مدينة أخرى يسميها النّاس Dispolis ولكنها سميت في وقت مضى اللُّدّ Lidda، وهي مدينة جميلة وفيها عدد جيد من السّكان، وهناك يوجد كنيسة للقدّيس جورج وكان قد توجّه اليها. ومن هناك يذهب الرّجال إلى قلعة عمواس Emmaus وكذلك إلى جبل المسرّة Joy ومن هناك يستطيع الحجّاج أن يروا القدس للمرّة أول.

وبجانب هذه الطّرقات توجد مدينة الرّامة Ramatha وجبل مودين Modyn ومن هناك كان متاتيا Matathia والد يهوداه المكابي Judas Machabeus. كما يوجد هناك قبور المكابيين Machabees. وما وراء الرّامة Ramatha توجد مدينة تقوَع Tekoa والتي منها كان النّبي عاموس Amos وفيها قبره كذلك.

* * *

قد كنت قد ذكرت لكم مسبقاً كل شيء عن الأماكن المقدّسة في القدس، ولهذا لن أتكلم عنها مجدداً هذه المرة، ولكن سأنتقل لاخبركم عن طرق برّية أخرى يمكن للمرء أن يعبرها، وخاصة فيما إذا كان لا يريد أن يتكبّد مشاق السّفر في البحر كثيراً، وإذا أراد السّفر عبر البرّ أكثر، إذا كان السّفر عبر البحر يشكل له عذاباً أكبر. حيث يمكن للمرء أن يعبر البحر حتى أحد مرافئ لومبارديا Lumbardy حيث أنها أفضل المناطق للتزوّد بالمؤن، أو من الممكن أن يعبر إلى جنوة Genoa أو إلى البندقية أو أي مدينة أخرى. ويجب أن يعبر البحر إلى اليونان عند مرفأ ميروك Mirrok أو ڤالون Valoun أو دوراس Duras أو أي مرفأ آخر في هذا البلد.

ومن هناك يجب الذهاب عبر البرّ إلى القسطنطينية، ويجب على المرء عبور المياه التي تدعى دعامة القدّيس جورج، وهي فرع من البحر، ومن هناك يجب الذهاب عبر البرّ إلى Ruffynell حيث يوجد قلعة قوية وجميلة. ومن هناك يجب الذهاب إلى Puluual وعندها يصل إلى قلعة Sinope. ومن هناك إلى كپادوقيا Cappadocia التي هي بلد عظيمة، حيث يوجد كثير من التلال الكبيرة. ويجب عليه من ثم الذهاب عبر تركية إلى ميناء Chiutok وإلى مدينة نيقية Nicaea، التي تبعد مسافة سبعة أميال من هناك. هذه المدينة استولى عليها الأتراك من إمبراطور القسطنطينيّة، وهي مدينة جميلة ومسوّورة بشكل جيد من طرف واحد، أما من الطّرف الآخر فيوجد بحيرة كبيرة ونهر كبير، يسمّى Lay، ومن هناك يذهب الرّجال عبر تلال Nairmount وعبر وديان Mailbrins والمنحدرات الضيقة، كما يمرّون بمدينة Ormanx أو بالمدن التي على Riclay وعلى Stancon وهما نهران عظيمان وجليلان، ومن هناك إلى أنطاكية التي تقع على نهر Riclay. وحول المنطقة هناك يوجد الكثير من التلال الجميلة والكثير من الغابات الرّائعة والكثير من الحيوانات البرية للصيد.

كما من الممكن الذهاب من طريق أخرى، حيث يمكن للمرء الذهاب عبر سهول Romany المحاذية لبحر الرّومان. على هذا السّاحل توجد قلعة جميلة يسميها النّاس Florach وهي توجد في موضع منيع، وأعلى قليلاً بين الجبال توجد مدينة جميلة

تدعى طرسوس Tarsus ومدينة Longemaath ومدينة Assere كما توجد مدينة Marmistre. وعندما يعبر المرء هذه الجبال وهذه المنحدرات يمر من مدينة مرعش Marioch ومدينة Artoise حيث يوجد جسر عظيم فوق نهر Ferne، الذي يسمّى فرفر[1] Farfar وهو نهر كبير تعبر فيه السّفن وينبع من الجبال القريبة من مدينة دمشق، وبجانب مدينة دمشق يوجد نهر آخر يأتي من هضاب لبنان اسمه أبانا[2] Abbana، وعند عبور هذا النّهر فقد القدّيس أوستاخيوس Eustace الذي كان يسمّى في وقت مضى پلاكيداس Placidas زوجته وولديه. وهذا النّهر يعبر سهول Archades حتى البحر الأحمر، ومن هناك يذهب الرّجال إلى مدينة Phenice حيث يوجد ينابيع حارة وحمامات ساخنة.

وبعدها يذهب الرّجال إلى مدينة Ferne وبين مدينة Phencie ومدينة Ferne مسافة عشرة أميال، حيث يوجد الكثير من الغابات الجميلة. وبعدها يصل الرّجال إلى أنطاكية Antoioch التي تبعد عن هناك عشرة أميال. وهي مدينة جميلة ومسوّرة جيداً في جميع أطرافها كما يوجد عدة أبراج جميلة، وهي مدينة عظيمة ولكنها في وقت مضى كانت أعظم ممّا هي عليه الآن، لأنها كانت سابقاً تبلغ ميلين طولاً وميلين ونصف عرضاً. وعبر منتصف هذه المدينة تجري مياه نهر فرفر[3] Farphar كما يوجد فوقها جسر كبير، وفي وقت مضى كان يوجد على الأسوار التي حول المدينة ثلاثمئة وخمسون برجاً، وعلى كل عمود من عواميد الجسر كانت يوجد صخرة. وهذه تعتبر أكبر مدينة في مملكة سوريا. وعلى بعد عشرة أميال من هذه المدينة يوجد مرفأ القدّيس سمعان

---

(1) هذا غلط، والمقصود هنا نهر العاصي Orontes، فنهر فرفر في الواقع هو الأعوج الذي ينبع من سفح جبل الشيخ إلى الجنوب الغربي من دمشق.

(2) نهر أبانا ما هو إلا نهر بردى نهر دمشق، سمّي باليونانيّة: Βαννας (باناس) التي تعني نهر الحمّام، وذلك لأن أحد فروع بَرَدى (وهو بانياس الذي حافظ على التسمية) يدخل إلى المدينة متوجهاً إلى حمّامات معبد زيوس الوثني القديم (هَدَد سابقاً، ثم جوپيتر لاحقاً) الواقعة في جهته الجنوبية، وصار موضعها في عهد الحكم الرّوماني معبداً لحوريّات الماء. ولذلك أظن أن تسمية باناس غلبت على الاسم الكنعاني القديم: بَرَدى (وهو ليس آرامياً كما يُظن).

(3) ذكرنا أعلاه أن المقصود هنا نهر العاصي Orontes وليس فرفر الذي هو نهر الأعوج.

Symeon وهناك تصب مياه فرفر Farpar في البحر.

ومن Antioch يذهب الرّجال إلى مدينة تدعى اللاذقيّة Lacuth وبعدها إلى جَبلة Gebel وبعدها إلى طرطوس Tortouse. وبالقرب من هناك توجد أرض Channel حيث توجد قلعة منيعة تسمّى قلعة المرقب[1] Maubek. ومن طرطوس Tortouse يعبر الرّجال إلى طرابلس عبر البحر، وإلا كانوا سيعبرون في البرّ عبر المضائق التي في الجبال والمنحدرات. وهناك مدينة تدعى جبيل[2]. ويذهب الرّجال من طرابلس إلى عكّا Acres ومن هناك يوجد طريقان للوصول إلى القدس، واحد منهما على النّصف الأيسر والآخر على النّصف الأيمن. فمن الطّريق الأيسر يذهب النّاس عبر دمشق وعبر نهر الأردن. ومن الطّريق الأيمن يذهبون عبر Maryn وعبر أرض Flagramy وقرب الجبال في أرض حيفا Cayphas. ويدعو النّاس القلعة التي هناك بقلعة الحجيج. ومن هناك إلى القدس رحلة ثلاثة أيام، يعبر الرّجال خلالها من قيصريّة فيليبي Caesarea Philippi وهكذا نصل إلى يافا وإلى الرَّملة Rames وإلى قلعة عمواس Emmaus إلى أن نصل بعدها إلى القدس.

* * *

الآن وبعد أن أخبرتكم عن بعض الطّرق البرية والبحرية التي يتبعها النّاس للذهاب إلى الأرض المقدّسة بعد المرور بعدة أقطار وبلدان مختلفة، أذكر مع ذلك أنّ كل هذه الطّرق تنتهي إلى نهاية واحدة. وما يزال هنالك طريق آخر يذهب إلى القدس وكله عن طريق البر، ولا يعبر البحر أبداً، والذي هو من فرنسا أو الفلاندر Flanders، ولكن هذا الطّريق طويل جداً وخطر ومتعب، ولهذا فقليل من النّاس من يذهب عليه. فمن يريد أن يذهب عبر هذا الطّريق ينبغي له أن يمرّ من ألمانيا وبروسيا Prussia وأرض التّتار[3]

(1) التسمية غير واضحة وقد أثبتّها المرقب على سبيل الترجيح، فهل يريد قلعة المرقب قرب بانياس، أم قلعة الحصن القريبة من طرطوس، أم مثلاً قلعة المضيق قرب أفاميا بمحافظة حماة؟ المفترض جغرافياً أنه يقصد قلعة المرقب أو قلعة الحصن.

(2) وفي هذه المدينة بالذات أخطّ هذه الكلمات وأحرّر هذا الكتاب.

(3) بلاد التتار Tartary تعبير شاع في أوروبا بالقرون الوسطى على سهوب آسيا الوسطى والشماليّة،

Tartary. وأرض التّتــار هذه تقع في مُلك خان كاثاي[1] Caan of Cathay الذي أفكر بذكره لاحقاً.

وهــذه الأرض القاحلة والرّملية لا تطرح مــن الثّمار إلا القليل، فهناك لا تنمو الذرة ولا العنب ولا البقول ولا أي شيء من الثّمار الأخرى التي من الممكن أن تكون صالحة للإنســان أن يســتخدمها للعيش، ولكــن يوجد هناك فقــط الحيوانات بكميــات كبيرة، ولهذا فالسّــاكنون هناك لا يأكلون إلا الأســماك دون أي نوع من أنواع الخبز ويحتسون الحساء، ويشربون أي حليب من الممكن أن يستخرج من أي حيوان. كما أنهم يأكلون الـكلاب والقطـط والجـرذان الصّغيرة وكل أنــواع الحيوانات البرية، كمــا أنه لا يوجد أشجار أو أي شيء مشابه، ولهذا فإنهم يطهون لحومهم بروث الأحصنة وروث الأبقار أو أي روث من الحيوانات الأخرى، ويجففونه بالشمس. والأمراء والآخرون أمثالهم يأكلون مرة واحدة في اليوم، وهذا قليل جداً. كما أنهم أناس مفسدون وأشرار.

وفي الصّيف تعصف بجميع الأقطار هناك عواصف شـديدة والكثير من العواصف الرّعديــة المريعة، فتقضي على الكثير من النّاس والحيوانات وهذا يحدث في كثير من الأحيان. وفجأة تشتدّ الحرارة وفجأة تنخفض جداً، كما أنها من أقبح البلدان وأكرهها ويوجد فيها أفقر ناس يمكن أن نراهم. وأميرهم الذي يحكم البلاد يدعى Batho يسكن في مدينة Orda وحقاً لا يمكن لأي إنســان عادي أن يســكن هنــاك، حيث أنها صالحة لســكن الكلاب فقط. وهي بــلاد صالحة لزراعة الشّــوكيات وبعــض النّباتات الجبلية والبرية والأشــواك، ولا يمكن لأي شــيء آخر أن ينمو هناك، مع أن بعض النّاس قالوا بأنه يوجد بعض الأراضي الجيدة في بعض المناطق ولكنها لا تعطي سوى القليل.

لــم أذهب إلــى هذه البلاد، ولا من هذه الطّرق، ولكني كنت في أراضٍ أخرى تصل

من بحر قزوين غرباً إلى جبال الأورال وصولاً إلى المحيط الهادي شرقاً، وتضمّ أراضي سيبيريا وتركستان ومنغوليا ومنشوريا.

(1) في تعابير أوروپا بالقرون الوسطى كاثاي تعني الصّين، وما زالت تسمّى كذلك في الرّوسيّة: Китай كيتاي. وقوله هنا خان كاثاي ينطبق على فرع إمبراطوريّة التّتار في الصّين.

إلى هذه البلاد، كروسيا وكأرض Nyflan، كما كنت في مملكة كراكوف[1] Cracow وليتو[2] Letto، وفي مملكة داغستان[3] Daristan وفي عدة مناطق أخرى تؤدي إلى هذه الطّرق. ولكنني لم أذهب أبداً إلى القدس من هذه الطّريق ولذلك لن أستطيع أن أخبركم جيداً عنها.

ولكن إذا كان هذا الأمر قد راق لأي رجل ذي شأن قد سبق له السّفر عبرها، فمن الممكن أن يخبر عنها إن كان يرغب بذلك، بقصد إرشاد الذين سوف يذهبون من هذه الطّريق ويسافرون عبر طرقها، لكي يعرفوا ما هي هذه الطّريق. هذا لأنه ليس من الممكن أن يعبر أحد هذه الطّريق بسلام، أما في الشّتاء، فتوجد المياه الخطرة والأمطار الكريهة التي تكون في هذه البلاد، وكذلك لا يمكن لأي إنسان أن يعبر، وبسبب الصّقيع والثّلوج أيضاً، حيث أن الثّلوج لا تبقي أحداً، فلا يستطيع أي إنسان أو حصان أو عربة أن يمرّ فوق ذاك الجليد هناك.

تستغرق الرّحلة ثلاثة أيام من هذه الطّريق للعبور من پروسيا Prussia حتى الوصول إلى أرض المسلمين المأهولة. وينبغي للرّجال المسيحيين أن يحاربوهم مرة في كل سنة ليأخذوا المؤونة منهم، لأنهم سوف لا يجدون أي شيء جيد، ولذلك فعليهم أن يحملوا مؤونتهم فوق الجليد بواسطة عربات دون عجلات، يسمّونها الزّلاجات. وبقدر ما تبقى مؤوتنهم يبقون مقيمين هناك، ولكن ليس أكثر، وذلك لأنهم لا يستطيعون أن يجدوا أي مخلوق يبيعهم أيّة مؤونة أو أي شيء آخر. وعندما يرى الجواسيس أي رجل مسيحي اقترب منهم، فإنهم يركضون إلى المدن ويصرخون بصوت عالي: كيرّا، كيرّا، كيرّا.. *Kerra, Kerra, Kerra*. وبعد ذلك سرعان ما يهاجمونهم ويربطونهم معاً.

---

(1) كراكوف مدينة قديمة مشهورة في جنوبي پولونيا على نهر ڤيسلا (ڤيستولا بالإنكليزية).
(2) من الواضح أنه يعني ليثوانيا في شمال أوروبا على بحر البلطيق.
(3) هكذا يبدو لي الاسم كما يكتبه، وداغستان تقع في شمالي هضبة القفقاس الواقعة إلى الجنوب الغربي من روسيا وشمال شرقي البحر الأسود.

كمـا ينبغـي عليكم أن تعلموا بـأن الصّقيع في هذه البلدان هو أشـدّ فـي هذا الجزء منها، حيث أن كل إنسان يطبخ في بيته، ومن هذا الشّواء يأكلون ويمارسون مهنهم كلٌّ حسـب استطاعته، وذلك لأن هذا هو الجزء الشّمالي والنّاس يسمّونه Septentrional حيث لا يوجد إلا البرد، والشّـمس لا تسـطع إلا بشكل ضئيل جداً أو حتى شبه معدوم فـي هذه البـلاد. ولهذا ففي Septertrion التي هي أقصى الشّـمال تكون الأرض باردة جداً ولا يسـتطيع أحد أن يسـكن فيها، وعلى العكس باتجاه الجنوب يكون الجو حاراً جداً ولا يسـتطيع أيّ أحد أن يسـكن هناك، بسـبب الشّمس التي تسـقط أشعتها بشكل مستقيم على الجزء الجنوبي هذا.

* * *

الفصل الخامس عشر

عن عادات المسلمين، وعن قوانينهم
وكيف نصحني السُّلطان أنا مؤلف هذا الكتاب، وعن بداية محمّد

والآن، بما أنني قد تحدّثت عن العرب وعن بلادهم، وإذا كان لكم الرّغبة بأن تعرفوا شيئاً عن قانونهم ومعتقدهم، فسوف أخبركم عن كتابهم الذي يسمّى القرآن *Alkaron*، وبعضهم يسمّونه مصحف *Meshaf*، وآخرون يسمّونه حُرمة *Harme*، وذلك وفقاً لاختلاف لغة البلد. وهذا الكتاب هو الذي هداهم به محمّد. في هذا الكتاب ومن بين الأشياء الأخرى كُتِب كما رأيت وقرأت عدة مرات، بأن الصّالح سوف يذهب إلى الجنة والآثم يذهب إلى النّار، وهذا اعتقاد كل المسلمين.

وإذا سألهم أحدٌ ماذا يعنون بالجنّة، يقولون بأن الجنة هي ذلك المكان المضيء حيث يجد النّاس كل أنواع الثّمار في كل الفصول، وتجري فيها الأنهار بحليب وعسل، وبخمر ومياه عذبة، وبأنه سيكون لهم فيها بيوت جميلة وفخمة، وكل إنسان له فيها أرضه، جُعلت من أحجار كريمة وذهب وفضة، وبأن كل رجل سيكون له أربع زوجات عذراوات، وبأنه ينتابهن كل يوم، ودائماً يجدهن عذراوات.

كما يعتقدون ويتكلّمون بخير عن مريم العذراء وعن تجسّد المسيح. ويقولون بأن مريم عُلِّمت على يد ملاك، وبأن جبريل قال لها بأنها قد اختيرت من بداية الخلق وقد أراها تجسيد عيسى المسيح، وبأنها حملت ووضعت ولدها وهي عذراء ويصف كتابهم هذا الأمر.

كما يقولون بأن يسوع تكلّم عند ولادته، وبأنه كان نبياً كريماً وصادقاً بكلماته وأفعاله، وأنه كان مسكيناً ومستضعفاً، كما أنه كان على حق ومطهّراً من الرّذائل والعيوب.

ويقولون أيضاً، بأنه عندما أرى الملاك تجسيد المسيح لمريم، كانت صغيرة وخافت منه كثيراً، وذلك لأنه في ذلك الوقت كان يوجد ساحر في البلاد يمارس السّحر والشّعوذة وكان يدعى تكنيا Taknia، وبواسطة سحره كان يمكنه أن يحوّل نفسه إلى هيئة ملاك ويذهب ليغشى العذراوات، ولهذا خافت مريم في ذلك الحين خشية أن يكون هذا الملاك هو تكنيا Taknia وقد جاء ليخدع العذراوات. ولذلك وفي وقتها سألت الملاك بأن يقول لها فيما إذا كان هو تكنيا أو لا، فأجابها الملاك بأنها يجب ألا تخاف منه لأنه رسول ليبشّرها بيسوع المسيح.

كما أن كتابهم القرآن *Alkaron* يقول بأنها عندما كانت تضع مولودها تحت النّخلة كانت تشعر بخجل كبير بسبب هذا الطّفل، وبأنها بكت وتمنت لو أنها ماتت، وحينها تكلم المولود إليها وواساها، حيث قال: «يا أمي، لا تخافي ولا تحزني، لأن الرّب قد وضع فيكِ سرّه لخلاص البشرية»، وفي مواضع كثيرة أخرى يقول قرآنهم بأن عيسى المسيح تكلَّم حين ولادته، كما يقول بأن عيسى المسيح كان قد أرسل من ملكوت الله ليكون مرآةً وعبرة وآية لكل النّاس.

كما أن القرآن *Alkaron* يتحدث عن يوم القيامة، وكيف أن الرّب سيأتي إلى كل النّاس وبأنه سيأخذ الصّالحين ويباركهم، والمفسدين سيضعهم في عذاب جهنم. ومن بين كل الأنبياء كان يسوع الأكثر امتيازاً وخصوصية والأكثر جدارة عند الرّب، وبأنه جاء بالإنجيل وفيه القوانين الصّحيحة والسّليمة، وبأنه كامل ومليء بالحق والإرشادات الصّادقة للإيمان بالرَّب. وبأنه كان نبياً صادقاً حتى أنه كان أكثر من نبي، وعاش كل حياته دون أيّة خطيئة، وأعاد البصر للأعمى، وشفى الأبرص، وأحيى الموتى، ورُفع إلى الجنة.

وعندما يحمل النّاس هناك كتاب أناجيل سيّدنا وتحديداً *Missus est Angelus*

Gabriel، فإنهم يقدّسونه ويقبّلونه، ويردّدون مراراً في صلواتهم من فحواه.

وهم يصومون شهراً كاملاً في السّنة فلا يأكلون شيئاً في النّهار وإنما يأكلون فقط في الليل، كما أنهم يبقون بعيدين عن زوجاتهم طوال هذا الشّهر، ولكن النّاس المرضى لا يُجبرون على الصّيام.

كما أن هذا الكتاب يتحدّث عن اليهود ويقول بأنهم ملعونون، لأنهم لم يؤمنوا بأنّ يسوع قد أرسل من الله، ولأنهم ادّعوا بالباطل على مريم وابنها يسوع المسيح، ويقولون بأنهم أرادوا أن يصلبوا يسوع ابن مريم ولكنهم لم يفعلوا أبداً، كما يقولون، ولكن الرّب رفعه إليه دون موت أو سوء. ولكن شُبّه به يهوذا الإسخريوطي وهو الذي صلبه اليهود، وزعموا بأنه هو يسوع. ولكن يسوع رُفع إلى السّماوات بسرعة.

وبذلك يقولون بأن المسيحيين مخطئون وليس لديهم معلومات صحيحة حول هذا الموضوع، وبأنهم يؤمنون مخطئين بأن المسيح قد صُلب. ويقولون أيضاً بأنه وبصلبه فإن الله يكون قد فعل شيئاً مخالفاً لحكمته بأن يجعل المسيح يتعذّب على الصّليب وهو بريء، وأن يوضع على الصّليب دون أي ذنب جنته يداه. وبهذا الخصوص يقولون بأننا مخطئين وبأن حكمة الله وعدله من غير الممكن أن تفضي إلى هذا الخطأ الكبير، فهم يؤمنون بخطئنا هذا وبأنهم يعلمون جيداً بأن أعمال يسوع المسيح كانت كلها جيدة وبأن كلماته وأفعاله وإرشاداته التي في الإنجيل كانت كلها صادقة وصحيحة، ومعجزاته كلها كانت صحيحة وأن مريم العذراء امرأة قدّيسة وصالحة، وكانت عذراء مباركة قبل وبعد ولادة يسوع المسيح، وبأن كل أولئك الذين يؤمنون بالله حقيقة سينجون، ولذلك فإنهم يقتربون كثيراً من إيماننا، حتى من الممكن تحويلهم إلى الدين المسيحي إذا وعظهم بعض الرّجال وأروهم تمييز دين يسوع المسيح وأخبروهم عن النّبوءات.

ويقولون أيضاً بأنهم يعرفون بحسب النّبوءات بأن دين محمّد سوف يؤول إلى الختام، كما آل في السّابق دين اليهود، وبأن دين المسيح سيبقى حتى يوم القيامة، وإذا سألهم أحد ما عن معتقداتهم فيجيبون بهذا الشّكل: «نحن نؤمن بأن الله خلق

السّـماوات والأرض وكل شـيء آخر هو صانعه، ودونه لا يمكن لأي شيء أن يوجد، كما أننا نؤمن بأن في يوم القيامة سيأخذ كل إنسان ما يستحقة بناء على ما كان قد فعله، كما أننا نؤمن بأن كل شيء قيل من الله على لسان الأنبياء هو حق».

كمـا أن الله قد شـرّع في قرآنـه *Alkaron*، بأن كل رجل يجـب أن يكون له زوجتان أو ثلاث أو أربع، ولكنهم الآن يتزوجون تسـعاً، ومن الجواري يسـتطيع المرء أن يأخذ بقـدر مـا يريد، وفيما إذا عصت واحدة من هذه الزّوجات زوجها، يمكن له أن يطرحها خارج البيت، وينفصل عنها ويتّخذ غيرها، ولكن يجب أن يعطيها من ممتلكاته.

وأيضـاً عندما يتحدث النّاس هناك عن الآب والابن والـرّوح القُدُس يقولون بأنهم ثلاثة أشخاص، وليسوا إلهاً واحداً، ذلك لأن قرآنهم *Alkaron* لا يتحدث عن الثّالوث المقـدّس، ولكنهم يقولون بأن الله قد تحدّث عن بعض الأشـياء وترك أشـياءً أخرى، وبـأن الله لـه روحٌ يعرفونها جيداً، كما يقولون بأنه لم يكن حيـاً. وعندما يحدّثهم أحد عن تجسيد المسيح وكيف أنه بكلمة مع ملاك من الله أرسل حكمته للأرض ووضعها في مريم العذراء، وبأنه بكلمة من الله سيبعث الأموات للحياة في يوم القيامة، يقولون بـأن ذلـك حق وبأن كلمـة الله لها قوة عظيمـة. كما يقولون بأنه من لا يعرف شيئاً عن كملة الله فإنه لا يعرف شـيئاً عن الله نفسـه. كما يقولون أيضاً بأن يسـوع المسـيح هو كلمـة اللـه، وكذلك يقول قرآنهم، حيث ذكر أن مـلاكاً تكلم إلى مريم وقال: «يا مريم، إن الله سيمنحك فضلاً من فمه واسمه سيكون يسوع المسيح».

ويقولون أيضاً بأن إبراهيم كان خليلاً للرّب، وأن موسـى كان يتكلم مع الرّب، وأن يسوع كان كلمة الرّب وروحه، وبأن محمّداً كان الرّسول الحقيقي من الله، كما يقولون بـأن من هـؤلاء الأربعة، كان يسـوع كان الأكثر جدارة والأكثر فضـلاً وكمالاً وعظمة. وبذلـك يوجـد لديهم الكثير من المعتقدات من إيماننـا، بالرغم من أنه ليس لهم الدّين الكامل والاعتقاد الصّحيح مثل الذي لدى المسـيحيين، ولهذا من السّـهل أن يتحولوا إلى المسـيحية وبخاصة أولئـك الذين يعرفون الكتاب المقـدّس والنّبوءات، حيث أنّ لديهـم الكتاب المقـدّس والنّبوءات والأناجيل مكتوبة بلغتهـم، فلذلك فإنهم يعرفون

الكثير عن الصّحف المقدّسة، ولكن لا يفهمونها بالشكل صحيح لأنهم يتبعونها حرفياً، وكذلك يفعل اليهود فإنهم لا يفهمون الرّسائل بشكل روحاني كامل ولكن بشكل مادي، ولذلك تحتاج إلى إعادة شرح ليتم فهمها روحانياً. ولهذا قال القدّيس بولس:

Litera occidit; spiritus autem vivificat.

كما يقول المسلمون بأن اليهود ملعونين، لأنهم حرّفوا دين الله بعدما أُرسل لهم مع موسى، وأنّ المسيحيّين ملعونون أيضاً، كما يقولون، لأنهم لم يحفظوا الوصايا والأوامر التي علّمهم إياها إنجيل يسوع المسيح.

* * *

ولهذا يجب أن أخبركم ماذا قال لي السُّلطان[1] Soldan يوماً ما في مجلسه. إذا أمر يومها جميع الرّجال بأن يخلوا المجلس، الأمراء والأخرين، لأنه أراد أن يتكلم معي وينصحني، وهنا سألني كيف يحكم الرّجال المسيحيون بلادهم، فأجبته: «بشكل جيد، حمداً لله».

ثم قال لي: «لا، الحقّ أنّ هذا غير صحيح، لأنكم أنتم المسيحيون غير منتبهين كيف أنكم تعبدون الله بشكل خاطئ! يجب عليكم أن تكونوا قدوة جيدة للناس الفاسدين ليصبحوا صالحين، ولكنكم قدوة سيئة تجعل النّاس يفعلون الشّر. وذلك بسبب عاداتكم في أيام الاحتفالات، حين يذهب النّاس الكنائس لعبادة الله وبعدها يذهبون إلى الحانات، حيث يأكلون ويشربون بشره تماماً كالبهائم التي بلا عقل ولا يكفّون عندما يشبعون. وكذلك فالمسيحيون يقوون أنفسهم في كل الأمور التي

(1) هذا مقطع مهمّ للغاية، ولا أتوقع أن يجرؤ من يؤلف كتاب رحلات وهي مقيم في بلده دون أن يسافر (كما يتهمه بعض النقّاد) بأن يدّعي لقاء سلطان في القاهرة، ويذكر ما دار بينهما من حديث. وكنت رجّحت أعلاه أن يكون السّلطان المملوكي المذكور هو المظفّر حاجي ابن النّاصر محمّد بن قلاوون، الذي حكم بين 1346-1347 م / 747-748 هـ، وقال عنه: الذي كان سلطاناً عندما غادرتُ هذه البلاد. والجديد هنا أنه يبيّن لنا أنه كان يجيد الفرنسيّة.

تجعلهـم يقاتلون بعضهم ويخدعـون بعضهم، وفوق ذلك تجدهـم فخورين بأنفسـهم بأنهـم لا يعرفون كيف يلبسـون، فحيناً طويـلاً وحيناً قصيراً، حيناً ضيقاً وحيناً واسـعاً، حيناً يضعون سيوفاً وأخرى يضعون خناجر، وجميع أشكال الملابس الأخرى.

«ينبغـي لهـم أن يكونـوا بسـيطين وواقعييـن ومليئين بالمظاهـر الحسـنة، كما كان يسـوع والذي به يؤمنـون، ولكنهم يفعلون العكس تماماً، ودائماً يميلون لاتّباع السّـوء وأتباع السّـوء. كما أنهم جشعون جداً، فمقابل قليل من المال يبيعون أخواتهم وبناتهم وزوجاتهـم ويضعونهن في أماكن الفسـق والدّعـارة، والواحد منهم يبـادل زوجته مع الآخـر، ولا أحـد منهم يحفظ عهداً لأحد، ولكنهم يخالفون الدّين الذي أتى به يسـوع المسيح الـذي أتى لخلاصهـم. وهكذا وبسـبب ذنوبهم هـذه خسـروا أراضيهم التي نحكمها نحن الآن، بسـبب خطاياهم أخذ الله منهم هذه الأراضي وأعطانا إياها، ليس فقط بسبب قوتنا، ولكن أيضاً بسبب ذنوبهم، حيث أننا نعرف جيداً ونؤمن بأنك عندما تعبـد اللـه بإخلاص فإنّ الله يسـاعدك، وعندما يكون معك فلا أحد يسـتطيع أن يكون ضـدك، ومعـروف في نبوءاتنـا بأنهم سـيأخذون هذه الأراضي مـن أيدينا ثانيـةً عندما يعبدون الله بإخلاص أكبر، ولكن طوال بقائهم فاسـدين ومنغمسين في ضلالهم (كما هم عليه الآن) فلا خوف لدينا منهم بأي شـكل من الأشـكال، لأن ربّهم لن يسـاعدهم بأيّ طريقة».

وبعدها سـألته، كيف لـه أن يعرف عن أوضاع المسـيحيين، فاجابني بأنه يعرف كل هذا الأشياء عن أوضاع الملوك والأمراء المسيحيين، وأيضاً أوضاع العامّة، من موفديه الذيـن يبعثهـم إلـى جميع البلـدان والأراضي، بصفة تجّـار أحجار كريمـة، أو ملابس فاخرة ذهبية أو أشياء أخرى، وذلك ليعرف أوضاع كل بلد ومن بينها بلاد المسيحيين. وبعدهـا دعى كل الأمراء الذين أخرجهم من مجلسـه، وعرض علـي أربعة منهم كانوا أسـياداً فـي البـلاد، حيث أخبرونـي الكثير عـن بلدي وعـن كثير من بلاد المسـيحيين الأخرى التي كانوا فيها، كما أنهم يتكلمون الفرنسـية بطلاقة وكذلك السُّلطان، الشّيء الذي أدهشني فعلاً.

كمـا أنـه افتراء وتشـويه كبير لعقيدتنا ودينـنـا عندما يحاول النّـاس الذين بلا دين أن يحاولـوا إصلاحنا ويوبّخونا علـى خطايانا[1]، فيجب عليهـم أن يتحوّلوا ويعودوا إلى دين يسـوع المسـيح وأن يكونـوا القدوة الحسـنة بقبولنـا ورضانا بالحيـاة التي منحها ياها الرّب، وهكذا فإنّ الرّجوع إلى دين يسـوع من الضّلال وحياة السّـوء التي نعيشـها والبعيـدة عن المعتقدات المقدّسـة، سـيحمينا مـن النّاس الحمقـى والكريهين. وحقاً قالوا بأن المسلمين صالحون ومخلصون، لأنهم قد حفظوا كل أوامر الكتاب المقدّس القرآن، الذي بعثه الله إليهم عبر رسوله محمّد، والذي كما يقولون كان القدّيس جبريل الملاك غالباً ما ينبئه بإرادة الله.

* * *

كمـا ينبغـي أن تعلمـوا بأن محمّداً قد ولـد في جزيرة العـرب، وكان في بادئ الأمر فتـىً فقيـراً يرعى الجمال ويذهب مع التجار لبيـع البضائع، وفي مرة من المرّات ذهب مع التجار إلى مصر[2]، وهناك كان يوجد مسيحيون في بعض المناطق من هذه البلاد. وفـي جزيرة العـرب كان يذهب إلى معبد حيث كان يسـكن كاهـن، وعندما دخل إلى المعبـد وكان صغيـراً جداً وله باب صغير، تحوّل مدخل المعبد عند دخوله إلى مدخل عريض وعالٍ وكبير، وبدا وكأنه قصر كبير ومسكن عظيم، وهذه كانت المعجزة الأولى لمحمّد في صغره كما يروي المسلمون[3].

وبعدهـا بـدأ يغدو كبيراً وحكيماً وغنياً، ثم أصبح فلكياً مهماً وبعدها صار حاكماً وأميراً على أرض Cozrodane التي أدارها بحكمة بالغة[4]، فمثلاً عندما مات الأمير تزوج سـيدة

---

(1) يقصد بهذا الكلام كما هو واضح الفاسدين من رؤساء الدّين في أوروبا، وليس أبناء المشرق، لأنه يبادر هنا أدناه لامتداح المسلمين والإشادة بإخلاصهم لمبادئ دينهم وصلاحهم الدّيني والخلقي، وهذا ما يدعو القارئ إلى احترامه ككاتب ورحّالة حرّ، وصف ما رآه بعين الناقد المنصف لا الحاقد الموتور.

(2) لم يؤثر عن الرّسول عليه الصّلاة والسّلام أنه زار مصر، بل كان ينتاب الشام في رحلات التجارة.

(3) غريب، لم نسمع أبداً بمثل هذه الرّواية.

(4) جميع هذه المعلومات خياليّة وليس فيها أيّ شيء صحيح، فالرّسول عليه الصّلاة والسّلام

تدعى خديجة Gadrige، وكان محمّد يصاب في كثير من الأحيان بمرض شديد، وكان النّاس يسمّون هذا المرض بالسّقوط الشّرير، ومن أجل هذا كانت هذه السّيدة حزينة جداً بأنها تزوجت منه، ولكن محمّداً أسرّ لها بأنه في كل الأوقات التي يسقط فيها يأتي اليه جبريل الملاك ليتحدث معه، ومن شدّة ضياء هذا الملاك وسنا نوره فإنه لا يستطيع أن يتمالك نفسه ويسقط أرضاً، ولهذا يقول المسلمون بأن جبريل أتى وتكلم معه.

محمّدٌ[1] هذا حكم جزيرة العرب في السّنة 610 بعد ولادة سيّدنا المسيح، وهو من سلالة إسماعيل الذي كان ابن إبراهيم، والذي حملت به هاجر زوجة إبراهيم الأولى. ولهذا يوجد بعض المسلمين الذين يسمّون بالإسماعيلين وآخرين يسمّون بالهاجريين نسبة إلى هاجر، والآخرون سمّوا بالسّاريين نسبة إلى سارة، وبعضهم سمّوا بالمؤابيين Moabites وآخرون بالعمونيّين Ammonites نسبة إلى ابني لوط مؤاب Moab وعمّون Ammon اللذين أنجبهما من بنتيه وأصبحا بعد ذلك أميرين عظيمين.

كما أن محمّداً أحبّ حباً عظيماً كاهناً كان يسكن في الصّحارى على بعد ميل من جبل سيناء، بنفس الطّريق التي يذهب منها النّاس من جزيرة العرب إلى بلاد الكلدان Chaldea والهند Ind، التي تبعد رحلة يوم واحد من البحر، حيث كان تجار البندقية يأتون غالباً للاتجار ببضائعهم. وكثيراً ما كان محمّد يذهب إلى هذا النّاسك، وكان أتباعه يحنقون كثيراً منه، لأنه كان يحبّ الاستماع إلى هذا الكاهن وهو يرشد ويعظ ويبقي أتباعه مستيقظين طوال الليل. ولذلك فكر أتباعه بأن يقتلوا هذا الكاهن، وهكذا حدث في ليلة أن محمّداً كان يشرب شراباً من النّوع الجيد[2]، وبعدها نام فعندها

لم يكن فلكياً ولا حاكماً، ولم نفهم ما هي أرض Cozrodane هذه التي حكمها. لكننا طبعاً نبقي على هذه العبارات رغم أخطائها لنحافظ على نموذج من تصوّر الغرب لأحوال مجتمعاتنا الإسلاميّة آنذاك.

(1) عليه أطيب الصّلاة والسّلام وعلى آله وأصحابه أجمعين.

(2) أي من منقوع الزّبيب أو التّمر. وأمّا هذه القصّة فهي مغلوطة ومفبركة مئة في المئة، وليس في السّيرة النّبويّة العطرة مثل هذه الترّهات. ولولا الرّغبة في الحفاظ على فحوى الكتاب كنت حذفتها.

أخذ الرّجال سيف محمّد من غمده في أثناء نومه وبه ذبحوا الكاهن، وأعادوا السّيف المُدمى إلى غمده.

وفي اليوم التالي عندما وجد الكاهن ميتاً أصبح حزيناً جداً وغاضباً، وأراد أن يقتل كل أولئك الرّجال، ولكنهم جميعاً اتفقوا على أن يقولوا بأنه هو الذي قتل الكاهن في الليل، وأروه كيف أن سيفه مضمّخ بدم الكاهن، فظن أنهم يقولون الحقيقة، فبعدها لعن الشّراب وكل أولئك الذين يشربونه. ولهذا السّبب فمن الورع والتقى عند المسلمين عدم شرب ما يُسكر، ولكن بعضهم يشربه سرّاً، لأن شربه علانية يقتضي الحدّ على شاربه وتأنيبه. ولكنهم يشربون شراباً جيد الطّعم وحلو المذاق ومغذي، يصنع من الكراميل gallamelle ومنه يستخرج النّاس السّكر وله نكهة لذيذة، كما أنه مفيد للصدر.

ويحدث أحياناً بأن بعض المسيحيين يصبحوا مسلمين، إما بسبب الفقر أو بسبب بساطتهم أو بسبب جهلهم. وهكذا عندما يأتون إلى archflamen أو الإمام[1] flamen وهم كالقساوسة والرّهبان عندنا، يطلبون منهم أن يقولوا:
La ellec olla Sila, Machomete rores alla.

والذي معناه: «لا اله إلا الله، محمّد رسول الله».

الآن وقد أخبرتكم جزءاً من دينهم وعاداتهم، ينبغي لي أن أخبركم بأحرفهم مع أسمائها وبأشكالها كيف تكون، والتي هي:
Almoy, Bethath, Cathi, Ephoti, Delphoi, Fothi, Garothi, Hechum, Iotty, Kaythi, Lothum, Malach, Nabaloth, Orthi, Chesiri, 30ch, Ruth, Holath, Routhi, Salathi, Thatimus, Yrthom, A3a30th, Arrocchi, 30tipyn, Ichetus.

فهذه هي الألف باء تاء لديهم. أما الآن فيجب أن تعرفوا أشكالها... ولديهم أربعة أحرف زيادة عن الآخرين وذلك لاختلاف لغتهم وكلامهم، وذلك لأنهم يتكلّمون من حلوقهم، ونحن في إنكلترا لدينا حرفان زيادة عن أبجديّتهم والتي هي [حرف لا يمكن كتابته] وكذلك [حرف لا يمكن كتابته] اللذان يسمّيان شوكة و30gh.

(1) هذا ما أتخيّل أنّ المؤلف عناه بعبارة flamen.

الفصل السّادس عشر

عن أرض ألبانيا وليبيا
وعن الطموح لرؤية طائر الباشق
وعن سفينة نوح

والآن، بما أنني قد أخبرتكم سـابقاً عن الأرض المقدّسـة والبلاد التي حولها، وعن الطّرق العديدة المؤدية إلى جبل سيناء وإلى بابل الكبرى والصّغرى، وعن أماكن أخرى كنت قد ذكرتُها مسبقاً، فالآن حان الوقت لأخبركم عن الممرّات والجزر والحيوانات المختلفة، وعن الشّعوب المختلفة التي خلف هذه الطّرق.

فمـا وراء هـذه البلـدان، توجد بلـدان أخرى متنوعـة، حيث من الممكـن أن توجد ممالـك كبيـرة، تكون مفصولـة عن بعضهـا بالطوفان الذي جـاء من الجنّـة الأرضية، وذلـك لأن بلاد ما بين النّهريـن Mesopotamia ومملكة الكلدان وجزيرة العرب تقع بيـن نهري دجلة والفـرات، ومملكة ميديا Media وبلاد فارس تكـون بين نهري النّيل ودجلة ومملكة سـوريا التي ذكرتها سـابقاً، وفلسـطين وفينيقيا تقع بين الفرات والبحر المتوسـط، البحر الذي يمتدّ طـولاً من المغرب حتى نهر إسـپانيا وحتى البحر الكبير، وبذلك يمتد 3040 ميلاً لومبارديًا ما وراء القسطنطينية.

وباتجاه البحر المحيط في الهند Ind توجد مملكة سكيثيا Scythia وهي مغلقة من جميع الأطراف بالتلال، وبعد Scythia ومن بحر قزوين إلى نهر Thainy توجد أرض Amazonia، التي هي أرض مؤنثة feminye حيث لا يوجد فيها أي رجل وكل سكانها

من النّساء. وبعدها توجد ألبانيا، وهي مملكة عظيمة وقد سمّيت ألبانيا لأن النّاس هناك أبريـاء أكثر مـن أماكن أخرى قربها، وفي هذه البلد توجـد كلاب قويّة وضخمة تهاجم الأسـود وتقضي عليها. وبعد هذا توجد Hircania، و Bactria، و Hiberia وعدد من الممالك الأخرى.

وبيـن البحر الأحمر والبحر المحيـط، باتجاه الجنوب توجد مملكـة إثيوبيا، وليبيا العليـا، وأرض ليبيا (التي تسـمّى بليبيا الدنيا) تبدأ من بحر إسـبانيا حيث توجد أعمدة هرقـل، وتمتد حتى مصـر وإثيوبيا. وفي أرض ليبيا البحر أعلـى من الأرض، وعلى ما يبـدو بأنه كان يغطي الأرض وحتى الآن ما تزال آثار البحر موجودة على اليابسـة. كما يشـاهد النّـاس في هذه البلد جبـلاً لا يأتيه أحد. وفـي أرض ليبيا هذه وباتجاه الشّـرق يكون ظل الأشـياء على يمينها، وهنا في بلادنا يكون الظل على يسارها. وفي بحر ليبيا لا يوجد أسـماك؛ حيث أنها على الأرجح لا تعيش هناك بسـبب شـدة حرارة الشّمس، لأن المـاء هناك يغلي من شـدة الحرارة. كما يوجد الكثير مـن الأراضي والبلدان التي يطول عنها الحديث. ولكني سأتحدّث عن بعضها لاحقاً.

ومـن يريد الذهاب نحو Tartary باتجاه بلاد فـارس أو الكلدان Chaldea أو الهند Ind ينبغـي لـه أن يدخـل في بحـر جنوة أو ڤينيسـيا أو أي مرفـأ آخر من التـي كنت قد أخبرتكم عنهم سابقاً. وبعدها يعبر النّاس البحر ويصلون إلى تريبيزوند[1] Trebizond التـي هي مدينة جميلة، وكان اعتاد النّـاس أن يتخذوها مرفأ لپونتوس Pontus. وهناك يوجد مرفأ لبلاد فارس وميديا وللأراضي التي وراءها. وفي هذه المدينة يرقد القدّيس أثناسـيوس Athanasius الذي كان أسـقفاً في الإسكندرية، وهو الذي وضع الأنشودة الدينية *Quicunque vult*.

كان أثناسـيوس هـذا طبيباً روحانيـاً عظيماً، ولهذا كان يتحـدث بعمق عن الألوهية والرّبوبيـة، وقـد كان قـد اتّهِم من قبل بابا روما بأنه منشـقّ عن العقيدة، ولذلك أرسـل وراءه البابا ووضعه في السّـجن، وفي الفترة التي قضاها في السّـجن ألف أنشودة دينية

(1) التسمية يونانيّة، وهي اليوم مدينة طرابزون في تركية.

وأرسلها للبابا وقال له: بأنه إذا كان منشقاً فإذن المكتوب في هذه الأنشودة هو ضلال، وهي التي تعبّر عن عقيدته. وعندما رآها البابا ودرسها جيداً وجدها بأنها رائعة وجميلة جداً، وتطابق تماماً معتقداتنا وإيماننا، وهكذا أخرجه من السّجن وأمر بأن تُغنى هذه الأنشودة يومياً في الصّباح، وهكذا فقد اعتُبر أثناسيوس Athanasius رجلاً صالحاً. ولكنه لم يعد إلى المكان الذي كان يتحدّث فيه سابقاً، وذلك لأن النّاس هناك ظلوا يعتبرونه منشقاً عن العقيدة.

كانت تريبيزوند Trobisond تحت سيطرة إمبراطور القسطنطينيّة، ولكن اغتصبها منه رجل قوي كان قد أُرسل ليحمي هذه الأرض من الأتراك، فاحتفظ بها لنفسه وسمى نفسه إمبراطور تريبيزوند Trobisond.

ومن هناك يذهب النّاس عبر أرمينيا الصّغرى، ويوجد في هذا البلد قلعة قديمة تقبع فوق الصّخر، وتسمّى قلعة طائر الباشق والتي هي خلف مدينة Layas وبجانب مدينة Pharipee. والتي هي تحت سيادة Cruk وهو والٍ غني ورجل مسيحي صالح، وهناك وجد الرّجال طائر الباشق الرّائع الجمال واقفاً على عصا جميلة ومتقنة الصّنع، تعتني به امرأة جميلة من الجنّيات. وكما قال بعض النّاس بأن من يشاهد هذا الباشق وحيداً لمدة سبعة أيام وسبع ليالٍ وبعضهم قال ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ بلا نوم، فإن هذه الجنّية ستمنحه أول أمنية يتمناها على أن تكون الأمنية من الأشياء الدنيوية، وقد أُثبت هذا عدة مرات.

وفي يوم من الأيام حدث أن ملك أرمينيا، الذي كان فارساً باسلاً وجديراً بالاعتبار، وأميراً نبيلاً راقب هذا الباشق بعض الوقت، وفي نهاية السّبعة أيام والسّبع ليالٍ جاءت إليه المرأة وطلبت منه أن يتمنى أمنية لتحققها له، لأنه فعلاً يستحقها، فأجابها بأنه سيد عظيم ويعيش بهدوء وسلام، وأنّ له الكثير من الأموال، ولذلك فإنه لا يتمنى أكثر من ذلك، وأمنيته الوحيدة هي أن يضاجعها ويكون جسدها له كما يشاء. فأجابته بأنه لا يعرف ما يطلب وقالت بأنه أحمق بأن يطلب شيئاً ليس من الممكن تحقيقه، لأنه لا يمكن أن يتمنى منها إلاّ الأمنيات الدنيوية، وذلك لأنها لم تكن مخلوقة بشرية وإنما من

الجنّ، فقال لها الملك بأنه لا يريد أي شيء آخر، فأجابته: «الحقيقة أنني لن أسحبك من قلبك الفاسد هذا، ولكنّي سأحقق لك أمنية دون أن تتمناها، ولكل النّاس الذين تحت أمرتك. أنت أيها الملك من الآن فصاعداً لن تعيش بسلام أبداً ودائماً ستكون في نكد وتكون تحت إمرة أعدائك، وتكون فقيراً وبحاجة لكل الأشياء» ومنذ ذلك الحين، لم ينعم ملك أرمينيا ولا شعبه بأيّ سلام، وكانوا دائماً فقراء لكل الحاجات الأساسية، وظلّوا دائماً يدفعون الجزية للمسلمين.

أيضاً، ثمّة ابن رجل فقير راقب هذا الطّائر وتمنّى بأن يحقق شيئاً جيداً في حياته، وأن يُوفّق لكي يصبح تاجراً. وقد حققت المرأة له أمنيته وأصبح من أغنى وأشهر التجار على وجه الأرض، وأصبح من الثّراء لدرجة أنه لا يعرف كم من المال يملك. وهكذا كان حكيماً بطلبه أكثر من الملك.

وأيضاً، هناك فارس من المعبد راقب هذا الطّائر، وتمنّى بأن يكون لديه كيس من الذهب لا يفرغ أبداً، فحقّقت المرأة له طلبه ولكنها قالت له إنه بهذا الطّلب قد أفسد قانونهم، وذلك سيكون بتعلقه الزّائد واعتماده على هذا الكيس، وفخره الكبير به، وكذلك حدث فعلاً، فبسبب هذا الكيس كان يبقى مستيقظاً خوفاً من أن يضيع منه إذا نام ولأنه لا يريد أي أحد أن يراه.

هذه ليست الطّريق الصّحيحة للذهاب إلى الأماكن التي ذكرتها لكم، ولكن فقط لرؤية الأعجوبة التي ذكرتها. وأما من أولئك الذين يذهبون من الطّريق الصّحيحة فيذهبون من تريبيزوند Trebisond نحو أرمينيا الكبرى وصولاً إلى مدينة تسمّى أرضروم Erzeroum التي كانت مدينة جميلة ووفيرة الخير، ولكن الأتراك أضاعوا كل ما فيها. فما حولها لا يوجد أي نوع من العنب أو الفواكه، وإذا وُجد فيكون بكميات قليلة جداً أو معدومة. وفي هذا البلد مستوى الأرض أعلى من أي مكان آخر، ممّا يتسبب ببرودة في الطّقس، كما يوجد الكثير من المياه والينابيع العذبة التي تخرج من تحت الأرض من نهر في الجنة يسمّى الفُرات، ويستمرّ جريانه بجانب المدينة رحلة يوم كامل، ثم يتجه هذا النّهر نحو الهند Ind من تحت الأرض ويخرج ثانية فوق

الأرض عند Altazar. وهكذا يعبر النّاس أرمينيا هذه ويدخلون بحر بلاد فارس.

ويذهب الرّجال إلى هضبة تسمّى Sabissocolle وبجانبها يوجد هضبة أخرى تدعى أرارات Ararat ولكن اليهود يسمّونها Taneez، وهناك حيث رست سفينة نوح ولا تزال حتى الآن فوق هذه الهضبة، ومن الممكن للناس أن يروها إذا كان الطّقس صافياً. يبلغ ارتفاع هذا الجبل سبعة أميال، وبعض النّاس يقولون إنهم قد رأوا السّفينة ولمسوها، ووضعوا أصابعهم في الأماكن التي خرج منها الشّيطان عندما قال نوح: *Benedicite*، ولكن من الممكن أنهم يقولون ذلك وفقاً لأمانيهم فقط، وذلك لأنه لم يصعد أي إنسان إلى أعلى الجبل بسبب كميات الثّلج الكثيرة عليه والموجودة دائماً صيفاً وشتاء، ولذلك فمن غير الممكن أن يكون أحدٌ قد تسلق هذا الجبل، ما عدا راهباً وبرحمة من الرّب ذهب وجلب قطعة خشب من هناك، ما تزال موضوعة في كنيسة عند سفح الجبل.

وعلى جانب الجبل توجد مدينة Dain التي وجدها نوح، وقريباً توجد المدينة الوحيدة التي كان فيها ألف كنيسة.

وقد كان لهذا الرّاهب رغبة كبيرة بأن يذهب إلى أعلى الجبل، وفي يوم من الأيام تسلقه وعندما وصل إلى ثلثي الجبل أصبح منهكاً جداً ولم يستطع الذهاب أبعد، فاستراح قليلاً وغطّ في النّوم، وعندما استيقظ وجد نفسه مستلقياً عند سفح الجبل وعندها صلى بخشوع للرب وقال بأنه لا يستطيع أن يتحمل مشقة الصّعود مرة أخرى، فجاء إليه ملاكٌ وقال له بأنه يجب عليه الصّعود، وكذلك فعلاً فعل. ولكن في الواقع هذه القصة ليست حقيقية، ولا يجب على أي أحد أن يصدق ولا كلمه فيها.

ومن هذا الجبل يذهب النّاس إلى مدينة تبريز Thauriso التي جرت العادة على تسميتها Taxis، وهي مدينة جميلة وعظيمة، وواحدة من أفضل المدن في العالم للتجارة، يأتي إليها التجّار من بعيد ليشتروا بضائع بالوزن، وهي توجد في أراضي إمبراطور الفرس، ويقول النّاس إن الإمبراطور هناك يأخذ من التجار الذين في تلك المدينة ضرائب أكثر بكثير من التي يأخذها من الملوك المسيحيين الأغنياء وأكثر من

كل من يسكن في مملكته، فالضرائب هناك تصل لأرقام لا يمكن تخمينها. وبجانب هذه المدينة توجد هضبة من الملح، ويأخذ أيّ إنسان حاجته من هذا الملح كما يشاء. ويسكن هناك العديد من المسيحيين تحت جزية المسلمين. وبعد هذه المدينة يعبر النّاس الكثير من المدن والقلاع للذهاب إلى الهند Ind حتى الوصول إلى مدينة Sadonia التي هي على مسافة رحلة عشرة أيام من Thauriso وهي مدينة جليلة وعظيمة. وهناك يسكن إمبراطور الفُرس في الصّيف، لأن المكان هناك جميل البرودة وتعبر الكثير من السّفن في الأنهار هناك.

وبعدها يذهب النّاس إلى الهند Ind بعدة رحلات، ويمرّون بعدة بلدان حتى يصلوا إلى مدينة تسمّى Cassak، وهي مدينة جليلة وفيها الكثير من العنب والذرة ومن جميع الأصناف الأخرى. وفي هذه المدينة التقى الملوك الثّلاثة معاً عندما ذهبوا للبحث عن السّيد المسيح في بيت لحم، ليبجّلوه وليقدّموا له الذهب والبخور والمِرّ. ومن هذه المدينة حتى بيت لحم تستغرق الرّحلة خمسة وثلاثين يوماً. ومن هذه المدينة يذهب النّاس إلى مدينة أخرى تدعى Gethe وهي على بعد رحلة يوم واحد من البحر الذي يسمّى بحر Gravelly. وهي أفضل مدينة لإمبراطور الفرس في كل أرضه، ويسمّون اللحم هناك Dabago والنّبيذ Vapa. ويقول الوثنيّون Paynims بأنه لا يمكن لأيّ رجل مسيحي أن يسكن أو يتحمّل الحياة في هذه المدينة، فهو يموت في فترة قصيرة دون أن يعرف أي أحد سبباً لذلك.

وبعدها يذهب النّاس عبر عدة مدن وبلدات وبلدان كبيرة يطول الحديث عنها كثيراً، ثم يصلون إلى مدينة Cornaa التي كانت مدينة عظيمة جداً، حتى أن الأسوار حولها كانت بطول خمسة وعشرين ميلاً، وما تزال الأسوار موجودة حتى الآن، ولكنها ليست مأهولة. ومن Cornaa يذهب النّاس عبر عدة أراضٍ وكثير من المدن والبلدات حتى يصلوا إلى مدينة أيّوب Job. وهناك تنتهي إمبراطوريةً بلاد فارس، وإذا كنتم ترغبون بمعرفة الأحرف الفارسية وأسمائها، فإنها تماماً كما الأحرف الأخيرة التي ذكرتها قبلاً ولكن الكلمات تختلف عن تلك التي ذكرت سابقاً.

الفصل السّابع عشر

عن أرض أيّوب؛ وعن عمره
وعن نظام الكلدانيين
وعن الأرض التي تسكنها النّساء دون رجال
وعن معرفة وخصائص جميع أنواع الماس

بعـد مغادرتهم كورناء Cornaa، يدخل الرّجـال أرض أيّوب Job وهي بلاد جميلة جـداً ووفيرة بكل المنتجات. ويطلق على هذه البلاد أرض سوسـيانا Susiana. وفيها مدينة تيمان Theman.

كان أيّوب وثنياً، وكان ابنه آرام Aram of Gosre، وملك هذه الأرض بصفة حاكماً عليهـا. وكان غنياً جـداً لدرجة أنه كان لا يعرف مئات الأجـزاء من ممتلكاته. وبالرغم من كونه وثنياً، فإنه كان يعبد الرّب بشـكل جيد حسـب ديانته. وكان الرّب يقبل عبادته بقبـول حسـن. وعندما افتقر كان له من العمر ثمانية وسـبعون عامـاً. وبعد ذلك عندما اختبر الله صبره الذي كان شديداً، أعطاه ثانية الغنى والمكانة أكثر من ذي قبل. وأصبح ملـكاً علـى أدوم Idumea بعد الملك عيسـو Esau، وعندما أصبح ملكاً سـمي يوباب Jobab. وعاش في تلك المملكة مئة وسبعين عاماً. ومات وله من العمر 248 سنة.

في أرض أيّوب تلك لم يكن هناك أي نقص لمتطلبات حياة الإنسان. وعلى التلال، كان بإمكان النّاس أن يجمعوا الكثير من المَنّ أكثر من أي بلد آخر. وكان المنّ يسـمّى خبز الملائكة. وهو مادة بيضاء طعمها حلو ولذيذ جداً، وأحلى من العسـل أو السّـكر.

وهو ينشأ من ندى السّماء المتساقط على الأعشاب في تلك المنطقة. ويتكاثف لتصبح أبيـض وحلو الطّعم. وكانـوا يضعونه في أدوية الأغنياء كمليّـن للمعدة وللتخلّص من الدّم الفاسد. وبما أنه ينقّي الدّم فهو يبعد الكآبة. وتمتد أرض أيّوب حتى مملكة كلدان.

كانـت بلاد الكلدان رائعة. ولغة تلـك البلاد كانت أعذب من اللغات الأخرى على باقي السّـاحل. ويعبر الرّجال ليصلوا ما وراء برج بابل العظيم، الذي سبق وأخبرتكم عنـه، هناك حيث تغيّرت اللغات جميعها أولاً. وهو يقع على مسـير أربعة أيام من بلاد الكلدان. كان الرّجال في تلك المملكة ذوي مظهر حسن ويلبسون ثياب نبلاء مصنوعة من ذهب، مرصعة باللآلئ الكبيرة والحجارة الثّمينة بفخامة تامة. والنّسـاء يرتدين ثياباً كريهة ومريعة. ويسرن حفاة الأقدام وبثياب رديئة كبيرة وعريضة، وقصيرة طولها حتى الرّكبـة، وأكمامها طويلة جداً حتـى القدمين مثل عباءة النّسّـاك. والأكمام معلّقة حول الأكتاف. وقد كنّ نسـاءً ذوات بشـرة داكنة كريهات وبشـعات، وبالفعل كان مظهرهن كريهاً ومريعاً مثلهن تماماً.

في مملكة كلدة، وفي مدينة تسمّى أور Ur، عاش تارح Terah، والد إبراهيم. وهناك وُلِـد إبراهيم. وذلك حين كان نينـوس Ninus ملك البابليين في جزيرة العرب ومصر. ونينوس هذا هو الذي أنشأ مدينة نينوى Nineveh، التي كان قد شرع بإنشائها نوح من قبل. ولأن نينوس هو الذي بناها فقد سـمّاها نينوى نسـبة إلى اسمه. وفيها استقر طوبيا الرّسـول، الذي تحدّثت عنه الأسفار المقدّسة. وغادر إبراهيم من مدينة أور هذه، بأمر مـن الله، بعـد وفاة والده، واصطحب معه زوجته سـارة وابن أخيه لـوط. لأنه لم يكن عنده أولاد. وذهبوا ليسـتقرّوا في بلاد كنعان في مكان يدعى شـكيم Shechem. ونجا لـوط عندمـا احترقت مدينتـا سـدوم Sodom وعمـورة Gomorrah والمدن الأخرى وهَوَت في الجحيم، حيث يوجد البحر الميت الآن، كما أخبرتكم من قبل. وهناك في بلاد الكلدان كان لديهم لغات خاصة بهم وحروفهم الخاصة أيضاً، كما سترون لاحقاً.

وبالقـرب مـن بلاد كلـدة كانت تقـع بلاد الأمـازون، وهي بـلاد النّسـاء. وفي هذه المملكـة توجد نسـاء فقط دون رجال؛ وليس، كما يدّعـي بعض النّاس، بأن الرّجال لا

يريدون العيش هناك، ولكن لأن النّساء لا يرغبن بوجود الرّجال بينهن ليهيمنوا عليهن.

في زمن ما كان هناك ملك في تلك البلاد. والرّجال يتزوجون كما في البلاد الأخرى. وحدث أن قامت حرب بينهم وبين السّكيثيين Scythia، بقيادة ملكهم كولوبيوس Colopeus، الذي قتل في المعركة، كما حدث لكل نبلاء مملكته. وعندما وجدت الملكة نفسها مع كل نبيلات مملكتها وقد غدون أرامل، وأنّ الدّم الملكي قد أُهدر، جنّدن أنفسهن، وتصرفن كمخلوقات مجنونة، وقمن بقتل ما تبقى من الرّجال في المملكة، لتصبح كل النّساء أرامل كحالهن أنفسهن وكما الملكة أيضاً. ومن ذلك الزّمن وبعده لم يرغبن في أن يقطن بينهن رجل أكثر من سبعة أيام وسبع ليال؛ ولم يُسمح لأي طفل ذكر أن يعيش بينهن بعد فطامه، فكان يُرسل إلى والده.

وعندما يرغبن بصحبة رجل، كنّ يرافقنه إلى الأراضي المجاورة لمملكتهن حيث يعاشرنه ويقمن معه لثمانية أو عشرة أيام وبعدها يعدن إلى بلادهن. وإن أنجبن مولوداً ذكراً يحتفظن به حتى عمر معيّن، ثم يرسلنه إلى والده بعد أن يكون قد أصبح قادراً على أن يعتمد على نفسه ويأكل بمفرده، أو أنّهن يقمن بقتله. وإذا كانت المولودة أنثى كن يقمن بإزالة إحدى حلمتيها بكيّها بحديد محمّى، فإن كانت من سلالة عريقة فكن يكوين حلمتها اليسرى لتقوم فيما بعد بحمل الدرع، أما إذا كانت من العامة فيكوين الحلمة اليمنى لترمي بالسّهام عن القوس، حيث كنّ ماهرات برمي السّهام.

كانت في تلك البلاد ملكة تحكم كل المنطقة، وكلهن خاضعات لها. وكانت دائماً تُنصّب ملكة بعد انتخابات لأنها مهمّة جداً للجيش، فقد كن مقاتلات ماهرات وفصيحات وحكيمات ونبيلات وذوات شأن. وكن غالباً ما يذهبن مع الجيوش لمساعدة الملوك الآخرين في حروبهم، من أجل الذهب والفضة كما يفعل باقي الجنود؛ وكن يحافظن على كامل قوتهن. وبلاد الأمازون هذه هي عبارة عن جزيرة، يحيط بها البحر من جانبين، ولها منفذان. وخلف تلك المياه كان يقطن الرّجال الذين كانوا عشاقاً لهن، حيث كن يذهبن لتسليتهن عندما يرغبن في ذلك.

بالقرب من بلاد الأمازون تقع أرض تارميغيت Tarmegyte وهي أرض واسعة

مليئة بالمباهج. وبسبب جودة تلك البلاد أنشأ الملك الإسكندر فيها أول مدينة تسمّى الإسكندرية، وبعد ذلك أنشأ اثنتي عشر مدينة أخرى تحمل الاسم ذاته؛ ولكنها تدعى الآن سيلسايت Celsite.

وعلى السّاحل الآخر لبلاد الكدانيين، باتجاه الجنوب، تقع إثيوپيا، وهي بلاد كبيرة تمتد حتى نهاية مصر. وإثيوپيا مقسمة إلى قسمين أساسيين هما الجزء الشّرقي والجزء الجنوبي؛ وهذا الجزء الجنوبي يسمّى موريتانيا؛ والقوم في هذه البلاد بشرتهم داكنة جداً حتى أنهم أشد سواداً منهم في الجزء الآخر، ويسمّون المغاربة. وفي هذه المنطقة يوجد بئر، وهذا البئر يكون في النّهار بارداً جداً بحيث لا يستطيع أحد أن يشرب منه، وفي الليل حاراً جداً لدرجة لا يستطيع معها أحد أن يضع يده فيه. وخلف هذا الجزء، باتجاه الجنوب، وبمحاذاة البحر المحيط، تقع أرض واسعة وبلاد كبيرة؛ لكن لا أحد يقطن تلك البلاد بسبب حرارة الشّمس الحارقة التي تجعل البلاد حارّة جداً.

في إثيوپيا كل الأنهار وكل موارد المياه تعتبر مشكلة، وهي مالحة نوعاً بسبب شدة الحرّ هناك. والنّاس في تلك البلاد يشربون قليلاً وشهيتهم قليلة للطعام. وهم يعانون من إسهال بشكل دائم، ولا يعيشون طويلاً. ويوجد في إثيوپيا أقوام مختلفة كثيرة؛ وتدعى إثيوپيا كوسيس Cusis. ومن الممكن أن يكون للقوم في هذه البلد قدم واحدة ويعتقدون أنها معجزة. وتكون القدم كبيرة جداً حتى أن ظلها في الشّمس عندما يستلقون للراحة ممكن أن يعادل كامل الجسم. ولون الأطفال في إثيوپيا أصفر عندما يكونون صغاراً، وبعد أن يكبروا قليلاً يتحوّل الإصفرار إلى سواد. وتقع مدينة سابا Saba في إثيوپيا، والأرض التي كان ملكاً عليها أحد الملوك الثّلاثة الذين قدّموا الهدايا للمسيح في بيت لحم.

وينطلق الرّجال من إثيوپيا باتجاه الهند ويعبرون بلاداً كثيرة مختلفة. وكانوا يطلقون على بلاد الهند العليا اسم «أملاك» Emlak. وتقسم الهند أساساً إلى ثلاثة أقسام: فكان هناك الهند الكبرى the more وهو القسم الحار جداً من البلاد، والهند الصّغرى the less وهي البلاد المعتدلة، والممتدة حتى أراضي ميديا؛ والقسم الثّالث الواقع باتجاه

الشمال Septentrion وهو البارد تماماً، ولذلك وبسبب البرد القارس والصّقيع الدائم أصبحت المياه جليدية. وعلى قمم هذه الصّخور الجليدية يتشكل ماسٌ جيد ملوّن. فالجليد الأصفر يعطي لوناً بلون الزّيت. وهذا الماس صلب جداً ولا يمكن لأحد صقله. ويسمّى الماس في تلك البلاد، وهَميس *Hamese* في بلاد أخرى. والماس الذي وُجد في جزيرة العرب لم يكن ذا جودة عالية، وكان لونه بنياً أكثر وأقل صلابة. كما وُجد الماس في جزيرة قبرص، وكانت صلابته أدنى حتى من ذاك، ولذلك استطاعوا صقله. كما وُجِد الماس في أرض مقدونيا أيضاً. لكن بقي الماس الأفضل والأثمن هو الموجود في الهند.

وكانوا ما يجدون الماس القاسي أيضاً في الكتل المستخرجة من الذهب، عندما كانوا يقومون بتنقيتها وتكريرها خارج المنجم؛ فحين تُكسر الكتلة إلى قطع صغيرة كانوا أحياناً يجدون فيها قطعاً من الماس بحجم حبة البازلاء وأحياناً بحجوم أصغر من ذلك، وكانت هذه الحبّات المستخرجة بقساوة تلك الموجودة في الهند.

وإن يكن النّاس وجدوا ماساً نفيساً في الهند، فإنهم وجدوه أيضاً وبشكل أكبر على الصّخور المتواجدة في البحار وعلى الهضاب حيث وجدت مناجم الذهب. وكان يوجد العديد من قطع الماس مع بعضها، منها صغير الحجم ومنها الكبير. فقد وجدت قطع كبيرة بحجم حبة الفول وقطع أخرى بحجم حبة البندق. وكانت مربعة وزواياها حادة أساساً، من الجهتين العليا والسّفلى كليهما، دون أن تتدخل في صنعها يد الإنسان. وتتشكل مع بعضها، ذكوراً وإناثاً. وترتوي من ندى السّماء. وكانت تتكاثر دائماً وتنتج أطفالاً صغاراً، تتراكب وتنمو على مدار العام.

وقد كنت أفكّر دائماً أنه لو ترك الإنسان هذه القطع الصّغيرة في الصّخور ورطّبها بندى شهر أيار، كانت لتنمو كل عام حتى لتصبح أصغرها هائلة الحجم. فكما هو صحيح أن اللؤلؤ يتحجّر وينمو بفعل ندى السّماء، كذلك هو حال الماس تماماً؛ وكما أن اللؤلؤ بطبيعته ذو شكل دائري، فإن الماس أيضاً وبإرادة الله ذو شكل مربع. ويضع النّاس الماس على جانبهم الأيسر لأنه أفضل من الجانب الأيمن؛ لأن قوة نموه تكون

باتجاه الشّمال الذي هو الجزء الأيسر من العالم، وبالنسبة للإنسان فإن الجهة اليسرى تكون عندما يدير وجهه باتجاه الشّرق.

وإذا رغبتم بعرفة خصائص الماس (فمعظم النّاس لا يعرفون شيئاً فيما يتعلق بفن صقل الحجارة الثّمينة)، سأخبركم ما يقوله ويؤكده النّاس الذين وراء البحر والذين خرج من بينهم جميع العلماء والفلاسفة. من يحمل الماس معه تمنحه القوة والرّجولة، وتحافظ على سلامة أطرافه، وتنصره على أعدائه في الخصومات والحروب، إذا كان على حق. وتجعله فطيناً، وتحفظه من النّزاعات والمشاجرات، ومن الأرواح الشّريرة evil swevens والحزن والسّحر، ومن خيالات وأوهام الأرواح الشّريرة. وإذا ما قامت أيّة مشعوذة ملعونة أو ساحر بعمل لسحر حامل الماس، فإن كل الأسى والنّحس الذي فعلاه سينقلب عليهما بفضل هذا الحجر. وأيضاً لن يجرؤ أي وحش على مهاجمة شخص يحمل ماساً. ويجب أن يُقدّم الماس مجاناً دون أن يشتهيه المرء أو يشتريه، وبذلك تكون قيمته أكبر. ويجعل المرء أشدّ قوة وشجاعة في مواجهة خصومه. ويشفي من أصيب بمسّ، ومن لازمه أو عذّبه شيطان. وإذا ما وضع سُمّ في وجود ماسة فإنها تصبح رطبة وتتعرق.

وهناك في الهند نوع من الماس يسمّى ڤيولاستر violastres «البنفسجي» (لأن لونه يشبه البنفسج، لكنه داكن أكثر)، وهذا النّوع قاس جداً وثمين جداً. لكن بعض النّاس لا يفضلون هذا النّوع بدرجة الأنواع الأخرى؛ أما في الواقع فبالنسبة لي كنت لأحب هذا الماس مثل غيره فقد رأيته وأختبرته.

وأيضاً هناك نوع من الماس الأبيض كما الكريستال، ومن الممكن أن يكون أدكن قليلاً. وهذا الماس ذو نوعية جيدة وعظيمة، وجميعه بشكل مربع وبزوايا حادة بشكل طبيعي. بعضه سداسي الشّكل، وبعضه رباعي، وبعضه مثلث حسبما شكّلته الطّبيعة. ولذلك عندما كان السّادة العظماء أو الفرسان يذهبون للمشاركة في الحروب، كانوا يحملون الماس معهم بسرور.

سأحدثكم أكثر قليلاً عن الماس، بالرغم من أنني أرجئ موضوعي قليلاً حتى

الخاتمة، فهؤلاء الذين لا يعرفون الماس لن يخدعوا بالباعة الذين يمرّون في البلاد لبيعه. فلأولئك الذين يرغبون بشراء الماس من الضروري لهم أن يعرفوه. لأن النّاس يقومون بتزييفه بالكريستال ذي اللون الأصفر وبحجر الصّفير ذي اللون الليموني الذي هو أصفر أيضاً، وبحجر الصّفير loupe وحجارة أخرى عديدة. ولكن هذه الحجارة المزيفة ليست بصلابة الماس، ويمكن لزواياها أن تتكسّر بسهولة، ويمكن صقلها بسهولة أيضاً. لكن بعض الحرفيين، بسبب خبثهم، لا يصقلونه وذلك بقصد جعل النّاس يعتقدون أنه لا يمكن صقله. ولكن يمكن للناس فحصه، أولاً بالقصّ بواسطة الحجر أو الكتابة به على الصّفير أو أي حجر ثمين آخر. بعد ذلك، يؤخذ حجر المغناطيس adamant الصّلب، الذي يسمّى حجر البحّارة، الذي يجذب الإبرة إليه، وتوضع الماسة فوق الحجر، والإبرة أمامه؛ فإذا كانت الماسة جيدة وعالية الجودة فإن الحجر لا يتمكن من سحب الإبرة بسبب وجود الماسة. وهذا الإثبات على أنها تشكلت خلف البحار.

ومع ذلك فكثيراً ما يحدث أن تفقد الماسة مزاياها بسبب إثم حاملها وفجوره. ولذلك من الضروري أن يعود إلى فضائله وإلا فإن قيمتها ستصبح ضئيلة.

* * *

الفصل الثّامن عشر

حول العادات في الجزر المحيطة بالهند
والفرق بين الأوثان والصّور الزّائفة
وعن ثلاثة أنواع مختلفة من الفلفل تنمو على شجرة واحدة
وعن البئر الذي يغير نكهته كل ساعة في اليوم؛ وهذه معجزة

يوجد في الهند بلاد كثيرة مختلفة. وقد سميت الهند بهذا الاسم بسبب نهر يجري في تلك البلاد يدعى هِند Ind. وفي هذا النّهر توجد أسماك الأنقليس بطول ثلاثين قدماً وأكثر. والأسماك التي تعيش في تلك المياه ذات لون غريب، خضراء وصفراء.

يوجد في الهند وما حولها أكثر من خمسة آلاف جزيرة جميلة وواسعة وهي مأهولة بالسكان، هذا عدا عن الجزر غير المأهولة والأخرى الصّغيرة. في كل جزيرة كان يوجد العديد من المدن الكبيرة، والقرى، وعدد كبير من السّكان. والسّكان في الهند كان لديهم مبدأ بعدم مغادرة بلادهم أبداً، ولذلك فالتعداد السّكاني كبير جداً. ولكنهم كسولون وخاملون، لأنهم في المنطقة المناخية الأولى الواقعة تحت تأثير زحل؛ وزحل بطيء وقليل الحركة، وهو يقوم بدورته بين الإشارات الإثنتي عشرة خلال ثلاثين عاماً. بينما يمرّ القمر بين الإشارات الفلكية خلال شهر واحد. وبما أن زحل بطيء جداً في حركته، فإن سكان تلك البلاد الذين تحت تأثيره لم يكن لديهم الرّغبة في الحركة ولا النّشاط للبحث في بلاد مجهولة. بينما في بلادنا العكس تماماً؛ فنحن واقعون في المدار السّابع، وهو القمر. والقمر سرع الحركة، وهو كوكب ذو

مسار؛ وبسبب هذه الخاصية مُنحنا خفة الحركة واتباع اتجاهات مختلفة، والبحث في الأشياء الغريبة وفي الاختلافات الأخرى في العالم؛ فالقمر يدور حول الأرض بسرعة تفوق جميع الكواكب الأخرى[1].

ويعبر الرّجال في طريقهم إلى الهند بالعديد من البلاد المختلفة وصولاً إلى المحيط العظيم. وبعدها يجدون هناك جزيرة تدعى كروز Cruse يقصدها التجار من البندقية وجنوة، وجهات أخرى، ليشتروا بضائعهم. ولكن الحرارة مرتفعة جداً في هذه الوجهات، وتحديداً في تلك الجزيرة، ولشدة القيظ تتدلى خصى الرّجال حتى ركبهم نظراً لذبول أجسادهم. والرّجال في تلك البلاد، كونهم يعرفون ذلك، يقومون بربطها للأعلى وإلا فإنها ستذوي، كما يقومون بدهنها بمراهم خاصة لجعلها تتماسك للأعلى.

في تلك البلاد كما في إثيوبيا، وبلاد أخرى كثيرة، يستلقي النّاس عراة في الأنهار والمياه، رجالاً ونساءً مع بعضهم، من فترة الضحى وحتى بعد الظهر. ويبقون في الماء للمحافظة على أجسامهم نظراً لشدة الحرّ. ولا تبدي النّساء خجلاً من الرّجال، فكلهم يعومون مع بعضهم جنباً لجنب حتى تنخفض الحرارة. وممكن أن يُشاهد الكثير من الأشخاص محتشدين، وتحديداً قرب القرى الخصبة.

والسّفن في تلك الجزيرة ليس فيها مسامير مصنوعة من الحديد أو أربطة، بسبب الصّخور الصّلبة، المنتشرة في ذلك البحر، التي من المدهش الحديث عنها. فإذا ما عبرت سفينة من هذه المنافذ وكانت تحوي على أربطة أو مسامير حديدية، فإن مصيرها الهلاك فوراً؛ لأن هذه الصّخور تجرّ الحديد إليها. ومن الممكن أن تجرّ السّفينة بكاملها لوجود الحديد فيها، ولن يكون من الممكن فصلها ومن جرّاء ذلك لا يمكن أن تتحرك أبداً.

ومن هذه الجزيرة يمضي الرّجال إلى جزيرة أخرى تدعى شانا Chana، وفيها

---

(1) هذا لأنه قمر تابع وليس كوكباً، يا حاج ماندڤيل. ودورته الفلكيّة قصيرة، إذ أنه يدور حول الأرض وهو قريب منها، وليس حول الشمس.

الكثيـر من الحبـوب والخمور، وكانت جزيـرة كبيرة وذات مرفأ ضخـم وجيد؛ ولكن البحر خرّبه بشـدة وأنهكه. كان الملك في تلك البلاد قوياً جداً وعظيماً جداً فقد شـنّ حرباً على الملك الإسكندر.

وللنـاس في تلك الجزيـرة أديان مختلفة. فبعضهم يعبد الشّـمس، وبعضهم القمر، وبعضهم النّار، وبعضهم الشّـجر، وبعضهم الأفاعي، أو أي شيء ممكن أن يقابلوه في الصّبـاح. والبعض منهم يعبـد الصّور simulacres وآخرون يعبـدون الأوثان idoles. وهناك فرق شاسع بين الصّور والأوثان. فالصور عبارة عن تصوير يشبه رجلاً أو امرأة، أو الشّـمس، أو القمر، أو أي حيوان، أو أي شـيء طبيعي. بينما الأوثان تصوير مبتذل لإنسـان، لا يندرج تحت الأشـياء الطّبيعية، كأن يكون تمثالاً لـه أربعة رؤوس، أحدها رأس إنسان وآخر رأس حصان أو ثور، وممكن أن يكون رأس حيوان، بحيث لا يمكن أن يكون رآها في الأحوال الطّبيعية.

وأولئك الذين يعبدون الصّور، يعبدونها كونها تصوّر شـخصاً مهماً عاش في زمان مـا، مثل هرقـل، وآخرين كثر قاموا بعمل أشـياء جليلـة في زمانهم. ويقولـون إنهم لم يكونـوا آلهـة؛ لأنهم يعرفون أنـه يوجد إله واحد خلق كل شـيء، ويوجد في السّـماء. كما أنهم يعرفون أن هذا الشّـخص لم يقم بهذا الفعل الجليل بنفسـه، ولكن إن حدث فهو بفضل هبة من الله؛ ولذلك فهم يقولون إنه كان مطيعاً لله وبسـبب طاعته له فإنهم يعبدونه. وهذا ما يقولونه عن الشّـمس، فهي تغيّر الوقت، وتعطي الدِّفء، وتغذّي كل شـيء على وجه الأرض؛ وبسـبب أنهـا ذات فائدة عظيمة، ويعرفـون أن هذا ممكن أن يكـون صحيحـاً، فإن اللـه يحبها أكثر من أي شـيء آخر، ولذلك السّـبب، أعطاها الله أعظم مكانة في العالـم. وهذا سبب جيد، حسب ما يقولون، ليقوموا بعبادتها وتبجيلها. فهـذا مـا كانوا يقولونه لإيجاد أسـبابهم عن الكواكـب الأخرى وعن النّـار أيضاً كونها مفيدة جداً.

وعـن الأوثـان يقولـون إن الثّور هـو الحيوان الأكثر قدسـيّة على وجـه الأرض والأكثر صبـراً، وهـو مفيد أكثر مـن أي مخلوق آخر. فهو يقـوم بأعمال جيدة ولا يقـدم على أفعال

شـريرة؛ ويعرفـون تمامـاً أنـه لا يمكـن أن يكـون دون نعمة إلهيـة مميزة. ولذلـك يقومون بتصوير جزء من إلههم على صورة ثور، والجزء الثّاني على صورة إنسـان. لأن الإنسان هو المخلوق الأنبل في الأرض، ولأن لديه سيطرة على كل الحيوانات، ولذلك كانوا يصنعون النّصف الأعلى من الوثن على صورة الإنسـان والنّصف السّفلي على صورة ثور، أو أفعى، أو حيوان آخر وأشياء عديدة، من التي يعبدونها، والتي تكون أول ما يقابلونه في الصّباح.

ويعبدون أيضاً بوجه خاص كل تلك الأشياء التي كان لقاؤهم بها فأل خير؛ وعندما يوفّقون في رحلاتهم، بعد لقاءهم بها، وخصوصاً عندما يثبتون ذلك ويختبرونه بالتجربة علـى المدى البعيـد؛ فهم يقولون إن ذلـك اللقاء الجيد كان بفضل نعمـة الله. ولذلك يصنعون تماثيلاً لتلك الأشـياء التي آمنوا بها، ليحتفظوا بها ويعبدوها في بداية يومهم، وإلا فإنهم سـيواجهون نقيـض ذلك. وهناك أيضاً بعض المسـيحيين الذين يقولون إن اللقاء ببعض الحيوانات فأل جيد، ويمكن القول عندما يكون اللقاء بها في بداية اليوم، وبعض الحيوانات فأل سـوء؛ وأثبتوا مع الوقت أن اللقاء بالأرنب (hare) سـيء جداً، كما هو الخنزير والعديد من الحيوانات الأخرى. وقد وجدوا أنه عندما يقوم باشـق أو طائر آخر من الوادي بمطاردة فريسته ويتمكن من الإمساك بها قبل الرّجال المسلحين، فهذا مؤشّـر خير، أما إذا أخفق بإمساك الفريسة فهذا مؤشر شرّ. وبالنسبة لهؤلاء النّاس فإن اجتماع الغربان دليل شر.

بهـذه الأشـياء وبغيرهـا يعتقـد الكثيـر من النّـاس؛ لأنه حـدث كثيـراً أن تتطابق مع أوهامهـم[1]. ويوجـد أيضـاً العديد من النّـاس الذين لا يؤمنون بهذه الأشـياء. وبما أن ثمّة أشـخاصاً مسـيحيين لديهم هذه الاعتقادات، وهم يتعلمون ويدرسون طوال اليوم بالتعاليـم المقدّسـة، التـي يجب أن يؤمنـوا بها، فمن غيـر المدهش أن تجـد الوثنيين، الذين ليس لديهم عقيدة جيدة غير طبيعتهم، يؤمنون بهذه الأشـياء بشـكل أكبر بسـبب سـذاجتهم. وفـي الواقع لقد رأيت مـن الوثنيين والعرب أشـخاصاً يُدعَـون العرّافين،

(1) جيّد، هنا يبدأ الكاتب بالتفكير على نحو إيجابي، ولو كان طبّق هذا المبدأ على نفسه أيضاً لكان أفضل. إنما في عصره بالقرون الوسطى هكذا كان المستوى الفكري للنّاس.

وعندما كنا نسير مسلّحين ببلاد مختلفة خلف أعدائنا، من طيران الطّيور كانوا يخبروننا بتكهناتهم عما سيحدث لاحقاً؛ وهذا ما كانوا يفعلونه في أغلب الأحيان، ويعرّضون رؤوسهم للقطع إذا لم يحدث ما قالوه. ولذلك يجب على المرء ألا يؤمن بأشياء كهذه، بل يجب أن تكون ثقته وإيمانه بالله مولانا الجبّار.

لقد ظفر العرب بجزيرة شانا واستحوذوا عليها. وكان في تلك الجزيرة الكثير من الأسود والحيوانات البرية، والجرذان في تلك الجزيرة كبيرة حجمها بحجم الكلاب هنا؛ وكانوا يصطادونها بواسطة الكلاب الضخمة، لأنه من الممكن ألا تتمكن منها القطط. وعلى هذه الجزيرة الكثير من النّاس لا يقومون بدفن موتاهم، لأن الحرارة مرتفعة جداً، وبذلك يتحلّل الجسد عن عظام الجثة بفترة قصيرة.

ومن ذلك المكان يذهب الرّجال إلى الهند عن طريق البحر إلى مدينة تدعى سارش Sarche. وهي مدينة جميلة وخصبة، ويعيش فيها الكثير من المسيحيين المؤمنين حقاً. وفيها الكثير من الأتقياء، وتحديداً الرّهبان.

بعد ذلك يتّجه الرّجال إلى أرض لومب Lomb. وهناك تنمو ثمار الفلفل في الغابة والنّاس يسمّونها كومبر Combar. وهي لا تنمو في أي مكان آخر في العالم، فقط في تلك الغابة، وهذا ما أثبتته ثماني عشرة رحلة بطولها. وفي الغابة يوجد مدينتان جيدتان؛ واحدة تسمّى فلادرين Fladrine والأخرى زينغلانتز Zinglantz، ويسكن في كليهما المسيحيون واليهود بأعداد كبيرة. وبالرغم من كونها مدينة خصبة وفيها كثافة سكانية فيوجد فيها حرّ شديد جداً.

ولعلمكم فإن نبات الفلفل ينمو كما تنمو الكرمة التي تزرع بجانب أشجار الغابة كدعامة لها، كما هو حال الكرمة. وتتدلى الثّمار كما العنب. وعندما تنضج تكون كلها خضراء، مثل ثمار العلّيق. ويقومون بقطفها، مثلما يقطفون الكروم، ويضعونها على النّار حتى تصبح سوداء وهشة. وتوجد ثلاثة أصناف مختلفة من الفلفل على الشّجرة الواحدة؛ ثمار فلفل طويلة، وسوداء وبيضاء. تسمّى الطّويلة بالسوربوتين *sorbotin*، والسّوداء فلفلة *fulfulle*، والبيضاء بانو *bano*. والثّمار الطّويلة تبدأ بالنمو أولاً عندما

تُورق الشّـجرة، وتظهر قبل نمو الأوراق بشـكل كرات بندقية اللون، وتتدلّى للأسفل. وبعد ذلك تصبح سـوداء مع الأوراق، ومثل عناقيـد العنب، كلها خضراء. وبعد جنيها تنمو الثّمار البيضاء والتي تكون بكميات أقل من السّـوداء. ويحضر النّاس قسماً يسيراً مـن هـذه الثّمـار إلى هذه البـلاد؛ لأنهـم يحتفظون بها لأنفسـهم لأنها أفضـل وأطيب من السّوداء. ولذلك لا تتوافر بكميات كبيرة مثل السّوداء. attempre

فـي تلك البـلاد يوجد الكثيـر من الأفاعـي والهوام نظـراً لارتفاع الحرارة الشّـديد وبسـبب الفلفل. والبعض يقول، عندمـا يجنون الفلفل يقومون بإضـرام النّار وإحراق الجـوار لجعـل الأفاعي والهوام تهرب. ولكن لا يفعلون شـيئاً ممّـا يقولونه، لأنهم لو كانـوا ليضرموا النّار حول الأشـجار المثمـرة لاحترقت ثمار الفلفل، وليبسـت تماماً، كما يحدث لأي شـيء آخر؛ وأيضاً لتأذوا هم أنفسهم، ولما تمكنوا من إخماد النّيران. ولكـن هذا ما يقومون بفعله: يدهنون أيديهم وأقدامهم [بسـائل] مصنوع من الحلزون وأشـياء أخرى مصنوعـة لهذه الغاية، تعاف الأفاعي والوحـوش الضارية طعمها وتنفر منه؛ ممّا يجعلها تفرّ هاربة من وجههم، بسبب الرّائحة، ثم يقومون بجني الثّمار بأمان.

وأعلـى تلك الغابة تقع مدينة پولومبـه Polombe، وفوق المدينة يوجد جبل ضخم يسمّى پولومبه أيضاً. وهذه المدينة تسمّى باسمه.

وفـي أسـفل ذلك الجبل يوجد بئر واسـع وكبير، وله رائحة ومـذاق بكل النّكهات. وفي كل سـاعة من اليوم تتغيّر رائحته ومذاقه كلياً. ومن يشـرب من ماء هذا البئر ثلاث مـرات على الرّيق يتعافى مـن كل أمراضه. وأولئك الذين يقطنون هناك ويشـربون من مائه دائماً لا يمرضون أبداً؛ ويبدون دائماً شباباً.

لقد شـربت منه أربع أو خمس غرفات، ومع ذلك، أعتقد، بأنني أشـعر بتحسّـن. بعض النّاس يسـمّونه بئر الشّـباب، لأن الذين يشـربون منه دائماً يبدون وكأنهم شباب، ويعيشون دون أمراض. ويقول النّاس إن هذا البئر ينبع من الجنة، ولذلك فإن له مزايا كثيرة.

وفي جميع تلك البلاد ينمو الزّنجبيل الجيد، ولذلك يقصدها تجار البهارات.

يعبد النّاس في تلك الأرض الثّور لبساطته وخنوعه، وللفائدة التي يقدمها. ويقولون إنه أقدس حيوان على وجه الأرض. لأنهم يعتبرون أن كل من كان يتحلّى بالخنوع والصّبر فهو مقدّس ومفيد؛ ولذلك فهم يقولون إنه يشتمل على كل الفضائل. إنهم يجعلون الثّور يكدح لست أو سبع سنوات وبعد ذلك يأكلونه. وملك البلاد يلازمه ثور دائماً. ويُمنح كل من يقتني ثوراً أجراً يومياً مجزياً، ويحتفظ بمخلفاته البول والرّوث في إناءين ذهبيين ويعرضها على أسقفهم الذي يسمّونه archi-protopapaton الذي يقوم بحملها إلى الملك ويقوم عندها بعبادة عظيمة. ويرطب الملك يديه منها، وهذا ما يطلقون عليه اسم gall، ويدهن جبهته وصدره بها. وبعد ذلك يقوم بالفرك بالرّوث والبول بإجلال عظيم، فأن تتحلى بفضائل الثّور وتصبح مقدّساً بفضل هذا الشّيء المقدّس هو شيء لا يقدّر بثمن. وعندما ينتهي الملك من ذلك، يقوم الأمراء بذلك؛ ثم بعدهم وزراؤهم وباقي الرّجال، إن بقي شيء لهم.

وهم يصنعون في تلك البلاد الأوثان، نصفها إنسان ونصفها ثور. ولهذه الأوثان أرواح شريرة تتكلم وتجيب على أسئلة النّاس لهم. وكثيراً ما يذبح النّاس أبناءهم أمام هذه الأوثان، ويتركون الدّم ينفر على الأوثان؛ وكذلك يقدّمون أضاحيهم.

وعندما يموت أحد في هذا البلد يقومون بإحراق جثته باسم الكفّارة، وبفضل ذلك لن يعاني من الألم في الأرض عندما تأكله الديدان. وإذا لم يكن لدى زوجته أولاد أحرقوها معه، ويقولون إن السّبب في ذلك، لتكون رفيقته في العالم الآخر كما كانت في هذا العالم. وإذا كان لديها أبناء منه، يدعونها لتعيش معهم، لتربيهم إذا رغبت في ذلك. وإذا أحبّت العيش مع أبنائها أكثر من أن تموت مع زوجها اعتبروها مخادعة وملعونة؛ ولن يحبّها أحد أبداً أو يثق بها النّاس. وإذا ما ماتت المرأة، قبل زوجها، يحرقونه معها إن رغب في ذلك؛ وإذا لم يرغب، لا يجبره أحد على ذلك، ومن الممكن أن يتزوّج مرة ثانية دون لوم أو توبيخ.

وينمو في ذلك البلد الكثير من الكروم القوية. وتشرب النّساء الخمر. وتحلق النّساء لحاهن بينما لا يقوم الرّجال بذلك.

الفصل التاسع عشر

عن القدر الذي وقع على يد القدّيس توما
وعن الإخلاص والأضاحي التي تقدّم للأوثان هناك، في مدينة كالاماي
وعن الموكب الذي سيجوب في المدينة

يعبـر الرّجال حدوداً كثيرة من ذلك البلد، مسـيرة عشـرة أيام، حتـى يصلوا إلى بلد تسمّى ماباورن Mabaron؛ وهي مملكة كبيرة، وفيها الكثير من المدن الجميلة والقرى.

ويرقد في تلك المملكة جثمان القدّيس توما الرّسول بلحمه وعظمه، في قبر جميل في مدينة كالاميه Calamye؛ حيث استشـهد ودفن. ونقل الآشوريون جثمانه إلى بلاد الرّافدين إلى مدينة تسمّى إيديسا[1] Edessa، ومن ثمّ نقل إلى هنا ثانية. وما تزال ذارعه ويده التي وضعها على جنب المخلّص عندما ظهر أمامه بعد انبعاثه وقال له:

Noli esse incredulus, sed fidelis.

أي: «لا تـدع الشّـك يـراودك، كن مؤمنـاً»، واليـد موضوعة في وعاء خـارج القبر. ويعتمـدون في قضائهم على هذه اليد، مَن على حق ومَن على باطل. فعند نشـوب أيّ نـزاع بين طرفين، وكل منهما يقدم الأدلة على حجته، ويقول إن حجته هي الصّحيحة، والطّـرف الآخـر يقول عكـس ذلك، يقـوم الطّرفان كلاهمـا بكتابة حجّته فـي ورقتين توضعـان فـي يد القدّيـس توما. وحالاً يقـوم برمي الورقـة التي تحوي الحجـة الزّائفة ويمسك الورقة ذات الحجّة الصّحيحة. ولذلك يأتي النّاس من البلاد البعيدة للتحكيم

(1) هي مدينة أورفا اليوم في كيليكيا جنوبي تركية، وكانت تُدعى في القرون الوسطى: الرُّها.

عندما يواجهون مسائل مشكوكاً في أمرها. ولا يتمكنون من فصلها.

وأيضاً الكنيسة، حيث يرقد القدّيس توما، كبيرة وجميلة، وتملؤها الصّور، وهذه تماثيل الكبيرة يدعونها بآلهتهم، وأصغرها بحجم رجلين.

وبين هذه التماثيل يوجد تمثال ضخم أكثر من البقية، ومغطى كلياً بذهب جميل وأحجار كريمة ولآلئ فخمة؛ وذلك الوثن هو إله المسيحيين الضالين الذين نقضوا إيمانهم. وهو يجلس على كرسي ذهبي، بجلال مُتناهٍ، ويحيط بجيده طوق مصنوع من الذهب والحجارة الكريمة واللآلئ. وهذه الكنيسة بكاملها مصنوعة بترف، وداخلها كله من الذهب. ويحج النّاس إلى ذلك الصّنم، كما يذهب المسيحيون عادة إلى القدّيس يعقوب وبالإخلاص ذاته، أو كحال الحجّاج الآخرين.

ويأتي أقوام كثر من بلاد بعيدة إلى هذا الصّنم بسبب إخلاصهم العظيم، وهم لا ينظرون أبداً باتجاه الأعلى، فأبصارهم تتجه إلى الأرض، خشية أن تقع أبصارهم على أي شيء من شأنه أن يزعزع إخلاصهم هذا. والبعض ممّن يأتون للحج إلى هذا الصّنم يحملون في أيديهم السّكاكين، القاطعة والحادة جداً، وبينما هم يسيرون يطعنون أنفسهم في أذرعهم وأرجلهم وأفخاذهم مسببين جروحاً مريعة؛ وبذلك هم يريقون دماءهم حباً في ذلك الصّنم. ويقولون إنه مبارك ومقدس، لأنه مات حباً في ربه. وآخرون يسوقون أولادهم إليه ليذبحوهم، ويقدمونهم قرباناً له؛ وبعد ذبحهم يرشون الدّماء على الصّنم. وبعض أولئك الذين يأتون من البعيد؛ يسعون إلى هذا الصّنم، وبعد كل ثلاث خطوات يمشونها من بيتهم يركعون؛ ويتابعون السّير حتى يصلون إليه. وعندما يأتون إلى هناك يأخذون معهم البخور والأشياء الأخرى العطرية ذوات الرّوائح الزكيّة، ويبخّرون الصّنم، كما يمكن أن نفعل هنا لجسد المخلّص العزيز. وأيضاً تأتي أقوام لعبادة هذا الصّنم، بعضهم من بعد مئة ميل، والبعض الآخر من مسافة أبعد من ذلك بكثير.

يوجد أمام كاتدرائية هذا الصّنم، مَربى vivary وهي بحيرة كبيرة يملؤها الماء. ويلقي فيها الحجّاج الذهب والفضة، واللآلئ والأحجار الكريمة بأعداد لا تحصى،

بدلاً من تقديمها. وعندما يريد الوزير القائم على تلك الكنسية أن يقوم بترميم الكنيسة أو أيّ من الأصنام، يأخذ الذهب والفضة واللؤلؤ والأحجار الكريمة من البحيرة ليسدّد نفقات الأعمال والإصلاحات؛ وبذلك لا يكون هناك أي خلل لأنه حالاً سيتمّ تصحيحه. وللعلم فإنه عندما يكون هناك عيد أو احتفال يتعلق بهذا الصّنم، كتكريس الكنيسة أو تنصيب الصّنم، تتجمع كل البلدة هناك. ويضعون الصّنم على عربة بإجلال كبير، بأبهى حلّة يلبس ثياباً من الذهب، مصنوعة من القماش التتري الفاخر من الكمخة، وأقمشة أخرى نفيسة.

ثمّ يسيرون به عبر المدينة بوقار شديد، وتسير أمامه في الموكب كل الفتيات اثنتين اثنتين بنظام تام، وبعد الفتيات يسير الحجّاج. ويقع بعضهم أرضاً تحت عجلات العربة، ويتركون العربة تسير فوقهم، فيموتون فوراً. ومنهم من تنكسر ذراعه أو أحد أطرافه وبعضهم أضلاعه. وكل ذلك يقومون به بسبب حبّهم لربهم، وبإخلاص عظيم. ويعتقدون أنه كلما ازداد ألمهم، وكلما عانوا من المحن في سبيل ربّهم، سعدوا في الحياة الأخرى. وباختصار، إنهم يعانون من آلام جسيمة ومن عذاب عظيم في سبيل حبهم لربهم، وحسب اعتقادي، إنه لا يمكن لأيّ مسيحي أن يجرؤ على تحمل عُشر هذا الألم في سبيل حب سيّدنا المسيح. وبعد ما الموكب أمام العربة الذي أخبرتكم عنه، يسير العازفون بأعداد كبيرة ويحملون معهم آلات متنوعة ويعزفون كل الألحان التي يعرفونها.

وبعد أن ينتهوا من الطواف حول المدينة، يعودون إلى الكاتدرائية ويعيدون الصّنم إلى مكانه. ثم ومن أجل حبّهم وعبوديتهم لذاك الصّنم، وتوقيراً للعيد، يذبحون أنفسهم، مئتان أو ثلاثمئة شخص، بمدى حادة، ويقومون بوضع الجثث أمام الصّنم. ويقولون عن هؤلاء الأشخاص إنهم قدّيسون لأنهم قتلوا أنفسهم بملء إرادتهم الطّيبة لأجل حبّهم لهذا الصّنم. وبالنسبة للناس الذين يوجد قدّيس من أنسابهم يعتقدون أن ذلك تبجيلاً كبيراً لهم كما نعتقد نحن هنا، وممكن أن يكتب النّاس بإخلاص حياة القدّيسين العظماء ومعجزاتهم، ويلتمسوا تمجيدهم، لأنهم في ذلك المكان

قتلوا أنفسهم عن قصد في سبيل حبّهم لصنمهم. ويقولون لقد كانوا شهداء وقدّيسين عظماء، ويذكرونهم في كتبهم وفي ابتهالاتهم، ويتفاخرون فيما بينهم، بأقربائهم الذين يصبحون قدّيسين أيضاً، ويقولون لدينا في عائلتنا قدّيسين أكثر منكم في عائلتكم.

وهذه أيضاً إحدى العادات هناك، عندما يكون لديهم الإخلاص والنّية لقتل أنفسهم بسبب حبّهم لربهم، يرسلون في طلب كل أصدقائهم ويحضرون أكبر عدد من العازفين؛ فيذهبون إلى أمام الصّنم ويقودون معهم الشّخص الذي سيقوم بذبح نفسه من أجل إخلاصه، وبرهبة عظيمة. ويكون ذلك الشّخص عارياً تماماً يحمل بيده مدية حادة جداً، ويقوم باقتطاع قطعة كبيرة من لحم جسده ويرمي بها على وجه صنمه، مردداً صلواته، مزكياً بها لربه. ثم يطعن نفسه بقوة محدثاً جروحاً كبيرة وعميقة، هنا وهناك، حتى يسقط ميتاً. وبعدها يقوم أصدقاؤه بتقديم جثته إلى الصّنم. ويقولون، مغنين: «أيها الرّب المقدّس! انظر ماذا فعل العبد الحقيقي بنفسه لأجلك. لقد نبذ زوجته وأولاده وممتلكاته، وكل ما في هذا العالم وحياته لأجل حبّك، وقدّم لك قرباناً لحمه ودمه. ولذلك، أيها الرّب المقدّس، ضعه مع قدّيسيك الأثيرين في جنّتك المباركة، لأنه يستحقها». وبعد ذلك يضرمون ناراً كبيرة، ويحرقون جثته. ثمّ يقوم كل واحد من أصدقائه بأخذ كمية من الرّماد، ويحتفظ بها بدلاً من الرّفات، ويقول إنها شيء مقدّس. وهم لا يخشون أيّ خطر طالما لديهم هذا الرّماد المقدّس معهم. ويضيفون اسمه إلى ابتهالاتهم كقدّيس.

* * *

الفصل العشرون

عن العادات الغريبة المتبعة في جزيرة لاماري وكيف أن الأرض والبحر تبدو على شكل دائري، بدليل النّجم المسمّى بالقطبي الجنوبي Antarctic، المتوضع في الجنوب

يبحر الرّجال من ذلك البلد عبر البحر المحيط، ويمرّون بالعديد من الجزر المختلفة والكثير من البلاد التي يطول الحديث عنها هنا. وعلى مسافة اثنين وخمسين يوماً من البلد الذي حدثتكم عنه يوجد بلد آخر رائع جداً ويسمّى لاماري Lamary. الحرارة في تلك البلد مرتفعة جداً. والعادات هنا هي أن الرّجال والنّساء يتجولون عراة تماماً، ويسخرون إذا ما رأوا أي قوم غرباء يرتدون ثياباً. ويقولون إن الله خلق آدم وحواء عاريين، ولذلك لا يجب على أي إنسان أن يخجل من أن يظهر كما خلقه الله، فلا شيء يلوّث طبيعته الطّيبة. ويقولون إن أولئك الذين يرتدون الثّياب إما أنهم من عالم آخر أو أنهم لا يؤمنون بالله. وأنهم يؤمنون بالله الذي خلق العالم، والذي خلق آدم وحواء وكل الأشياء الأخرى.

وهم لا يرتبطون بزوجات، لأن النّساء هناك مشتركات ولا يرفضن أي رجل. ويقولون إنهن يرتكبن إثماً إذا ما رفضن أي رجل؛ وهذا ما أمر الله به آدم وحواء وكل من يأتي بعدهم عندما قال:

Crescite et multiplicamini et replete terram.

لذلك من الممكن ألا يقول أحد في تلك البلد: هذه زوجتي؛ وممكن أن لا تقول أيّ

امرأة: هذا زوجي. وعندما يضعن طفلاً، ممكن أن يعطينه لأي رجل كان في صحبتهن. وأيضاً كل الأرض مشاع؛ ففيها كلها يقوم رجل بأخذ أرض هذه السّنة، وفي السّنة القادمة يأخذها رجل آخر؛ وكل شخص يأخذ الجزء الذي يعجبه. ومحاصيل الأرض مشاع أيضاً، الحبوب وكل المحاصيل الأخرى: فلا يحتفظ بأي شيء في أماكن مغلقة، ولا يوضع أي شيء وراء قفل، وكل شخص يأخذ ما يريده دون أيّة ممانعة، والجميع أغنياء بنفس القدر.

ولكن يوجد في تلك البلد عادة بغيضة، فهم يأكلون لحوم البشر بشهية أكثر من أي شيء آخر؛ مع أنه يوجد عندهم فائض من اللحوم والأسماك والحبوب والذهب والفضة وكل شيء آخر. يذهب التجار إلى هناك ومعهم أولاد ليبيعوهم لهم، وهم يشترونهم. فإن كانوا بدينين يأكلونهم فوراً. أما إن كانوا نحيلين فهم يطعمونهم حتى يسمنوا ثم يأكلونهم. ويقولون: هذا أفضل أنواع اللحم وأطراه على الإطلاق.

وفي تلك البلاد، وفي العديد من البلاد المحيطة، لا يتمكن الجميع من رؤية النّجم المقابل[1] Transmontane الذي يسمّى بنجم البحر، وهو ساكن لا يتحرك وموقعه باتجاه الشّمال، ونسميه نحن نجم الطّريق Lode-star. ويتمكن النّاس من رؤية نجم آخر، يواجه ذاك النّجم، باتجاه الجنوب ويسمّى القطبي الجنوبي Antartic. وكما يقوم البحارة هنا بالاقتداء بنجم الطّريق، فتماماً يفعل البحارة خلف تلك الأجزاء ذلك مع نجم الجنوب، الذي لا يظهر لنا. وهذا النّجم الذي بالجهة الشّمالية الذي نسميه نجم الطّريق فهم لا يرونه. وبسبب ذلك يمكن للنّاس أن يدركوا تماماً أن الأرض والبحر ذات شكل دائري؛ وقبة السّماء تظهر في بلد ولا تظهر في البلد الآخر. ويمكن لهم أن تمكنوا من الإثبات بالتجربة وبالتحقق الدقيق أنه إذا شق الإنسان طريقه بواسطة سفينة ليستكشف العالم، فمن الممكن أن يتمكن وبواسطة السّفينة من الدّوران حول العالم والذهاب إلى فوقه وتحته.

وهو الشّيء الذي تمكنت من إثباته بعدما كنت قد رأيته. فقد ذهبت باتجاه

---

(1) المقصود به نجم القطب North Pole Star.

أجـزاء برابانت Brabant، وبفضل الأسـطرلاب وجدت أن النّجـم الذي يدعى النّجم المقابـل Transmontane على ارتفاع ثلاث وخمسـين درجة؛ وأبعد بقليل في ألماين Almayne وبوهيميـا فهـو على ارتفاع ثمان وخمسـين درجة؛ وأبعـد باتجاه الجهات الشـماليّة septentrional علـى ارتفاع اثنين وسـتين درجة وبضع أجـزاء؛ حيث قمت أنا بنفسـي بقياسـه بواسـطة الأسـطرلاب. والآن أعلمكم أنـه مقابل النّجـم المقابل[1] يوجد نجم جنوبي ويسـمّى القطبي الجنوبي، كما أخبرتكم سـابقاً. وهذان النّجمان لا يتحرّكان أبداً، وتدور بهما قبة السّماء كما تدور العجلة حول محورها[2]. وبذلك تقسم هذه النّجوم قبّة السّـماء إلى قسـمين متسـاويين، فيكون القسـم العلوي مساوياً للقسم السّفلي.

وبعـد ذلـك اتجهتُ نحو الجنوب، ووجدت أن النّاس فـي ليبيا Lybia هم أول من يـرى النّجـم القطبي الجنوبي. وحتى الآن لقد جُبت أكثـر في تلك البلاد، ووجدت أن النّجم يكون أعلى؛ وباتجاه إلى أعلى ليبيا يكون على ارتفاع ثمانية عشرة درجة وبضع أجـزاء (والدرجـة عبارة عن سـتين جزءاً). وبعد السّـفر بحـراً وبرّاً خلـف ذلك البلد، وجدتُ النّجم القطبي الجنوبي على ارتفاع ثلاث وثلاثين درجة وأجزاء أكثر. ولو كان لدي الصّحبة ووسيلة للإبحار للذهاب أكثر من ذلك، أعتقد أننا، وبكل تأكيد، كنا رأينا دائرية قبّة السّـماء كاملة. لأنه وكما أخبرتكم من قبل، يقع نصف قبة السّـماء بين هذين النّجميـن، النّصـف الذي كنـت أراه. والنّصف الآخر قـد رأيته، باتجاه الشّـمال تحت النجم المقابل[3]، بارتفاع اثنتين وسـتين درجة وعشـرة أجزاء، وباتجاه الجزء الجنوبي رأيتُ النّجم القطبي الجنوبي، بارتفاع ثلاث وثلاثين درجة وستة عشر جزء.

وهكـذا فـإن نصف قبـة السّـماء بمجموعـه الكامل لا يتجـاوز التسـع مجموعات

---

(1) المقصود به نجم القطب North Pole Star.

(2) كلام جميل جداً وصحيح تماماً، وسبق به نظرية نيكولا كوپرنيك الشهيرة «مركزيّة الشمس» Heliocentrism التي وضعها عام 1532، لكن كلام ماندڤيل لا يعدو الجانب الوصفي، دون حسابات فلكيّة رياضيّة كاملة.

(3) المقصود به كما ذكرنا نجم القطب North Pole Star.

scores من الدرجات. وهذه التسع مجموعات من الدرجات، قد رأيتُ اثنتين وستين منها في هذا القسم وثلاثاً وثلاثين في القسم الآخر؛ فيكون مجموعها خمساً وتسعين درجة وتقريباً نصف الدّرجة. وبذلك بكل تأكيد رأيتُ قبّة السّماء كاملة، وهي تشكل أربع مجموعات وأربع درجات ونصف درجة، وهذا ليس الجزء الرّابع من الأفق؛ لأن الجزء الرّابع من دائرية الأفق يشكل أربع مجموعات وعشر درجات، وبالتالي فهناك خمس درجات وخمس في الجزء الرّابع.

وقد رأيتُ أيضاً ثلاثة أجزاء من الدائرة الكاملة للأفق وفوقها خمس درجات ونصف. والتي حدثتكم عنها أنه لا بدّ أن يكون النّاس قد أحاطوا بكل أرض العالم، وأيضاً من أعلاها إلى أسفلها، وعادوا إلى بلدهم، وكان لديهم الرّفقة والسّفن والإدارة. ويجب أن يكونوا دائماً يجدون النّاس، في الأراضي والجزر، كما يوجد تماماً في هذه البلد. فكما تدركون تماماً أنهم عندما يكونون في الاتجاه القطبي الجنوبي، تكون أقدامهم تواجه تماماً أقدام أولئك الذين يسكنون تحت النجم المقابل؛ وأيضاً فإن أقدامنا نحن تواجه أقدام الذين يسكنون تحتنا. لأن كل أجزاء البحر والأرض يوجد ما يقابلها، ومأهولة بالسكان، ويوجد نصف هنا ونصف فوق.

ويجب إدراك أنه بعد أن لاحظتُ وفهمت، وجدت أن أرض يوحنّا الكاهن Prester John، إمبراطور الهند، تقع تحتنا. لأنه بالذهاب من اسكتلندا أو إنكلترا باتجاه القدس يتجه النّاس نحو الأعلى دائماً. لأن أرضنا تقع في الجزء السّفلي للأرض وباتجاه الغرب، وأرض يوحنّا الكاهن «بريستر جون» تقع في الجزء السّفلي من الأرض باتجاه الشّرق. وهناك يكون عندهم نهار حين يكون عندنا الليل؛ وأيضاً العكس، فيكون عندهم ليل حين يكون عندنا نهار. لأن الأرض والبحر ذات شكل دائري، كما ذكرت مسبقاً[1]؛ عندما يتجه النّاس إلى الأعلى باتجاه أحد السّواحل، فهم يذهبون

(1) كلام رائع وجميل وينطبق على حقيقة كوكب الأرض، لكنه لو تكلم عن «كروية» الأرض بدلاً من استدارتها لكان أصحّ. وعبارته بحرفيتها ترد في الأصل:

For the earth and the sea be of round form and shape.

نحو الأسفل باتجاه ساحل آخر.

ولعلمكم فإن القدس تقع في وسط العالم. وهذا ما تم إثباته، ويظهر ذلك من خلال وضع رمح مثبت في الأرض، وفي منتصف النّهار، في وقت الاعتدال الرّبيعي، فلا يظهر أيّ ظل ولا بأي جهة. ويجب أن يحدث هذا في منتصف العالم[1]، وذكر داود ذلك في سفر المزامير عندما قال:

Deus operatus est salutem in media terrae.

لذا فإلى ذلك الجزء من تلك الأجزاء من الغرب التي باتجاه القدس، قامت رحلات كثيرة باتجاه الأعلى للذهاب إليها، وأيضاً الكثير من الرّحلات من القدس إلى الحدود السّطحية للأرض التي تقع خلفها. وعندما ذهبوا خلف تلك الرّحلات باتجاه الهند والجزر الخارجية، أظهرت كلها دائرية الأرض والبحر الذي يقع تحت بلادنا في هذا النّصف.

وقد حدث أمر عدة مرات فقد سمعت كثيراً، عندما كنت صغيراً، قصة شخص مهم غادر بلادنا في وقت مضى لاستكشاف العالم. ومرّ بالهند والجزر التي خلفها، والتي تتجاوز الخمسمئة جزيرة. ومضى طويلاً بحراً وبراً، وأحاط بالعالم بعدة فصول، ووجد جزيرة يتكلم النّاس فيها بنفس لغته، ينادون الثّيران التي تحرث، بنفس الكلمات التي يستخدمها النّاس في حديثهم إلى الحيوانات في بلده وهذا ما أدهشته جداً، فهو لم يكن ليعرف كيف يمكن أن يكون ذلك. وأقول، إنه ذهب طويلاً بالبحر والبر، حول الأرض كلها؛ وأنه عاد للدوران، أي أنه عاد تقريباً من حيث مضى، ولو أنه ذهب أبعد من ذلك، لوجد بلده ومعارفه. لكنه ارتدّ ثانية من هناك، وعاد من حيث أتى. وبذل الكثير من العناء والتعب، لأنه قال هو نفسه إنه وصل إلى بلده بعد فترة طويلة. وحدث بعدها أن ذهب إلى النّروج. وأخذته عاصفة بحرية إلى أن وصل إلى جزيرة. وعندما كان في تلك الجزيرة، عرف أنها الجزيرة نفسها التي سمع فيها لغته

(1) هذا الكلام ينطبق على خط الاستواء Equator وليس على القدس التي تقع على خط العرض 31 ونيّف.

ذاتها والنّداء للثيران أثناء الحراثة؛ وكان ذلك شيئاً ممكناً.

ولكن كيف يبدو الأمر للناس البسطاء غير المتعلمين أنه يمكن للناس أن يذهبوا إلى تحت الأرض، وأن الإنسان يمكن أن يسقط إلى السّماء من الأسفل. والأمر ليس كذلك، فهو لا يتعدّى عن كوننا ممكن أن نسقط باتجاه السّماء من الأرض التي نقف عليها. لأنه حسب الجزء من الأرض الذي يسكنه النّاس، إما العلوي أو السّفلي، يبدو لهم دائماً أن السّكن حيث هم هو أفضل من أي قوم غيرهم. وصحيح أنه يبدو لنا أنهم يعيشون تحتنا، وأنه يبدو لهم أننا نعيش تحتهم. فإذا ما وقع إنسان من قبة الأرض باتجاه قبة السّماء، من الرّوعة، أن المنطق يقول أن الأرض والبحر أكبر وأثقل فيجب أن يسقط إلى السّماء: لكن ذلك لا يحدث، ولذلك قال إلهنا الرّب:

Non timeas me, qui suspendi terram ex nihilo?

أي: «لا تخف مني، فمن ذا الذي جعل الأرض معلقة بلا شيء؟».

ولو أنه من الممكن أن يحيط الإنسان بكل العالم، فكيف بألف شخص، لما تمكن أحد منهم من أن يعود إلى بلده. نظراً لعظمة الأرض والبحر، فمن الممكن أن يذهب النّاس عبر ألف طريق وطريق، وأن لا يستذكر أيّ منهم الطّريق الذي أتى منه، وإن حدث بالمغامرة والحظ، أو بنعمة من الله. لأن الأرض كبيرة جداً وعظيمة جداً، وشكلها دائري ومحيطها، من الأعلى ومن الأسفل، حوالي 20425 ميل، حسب رأي الفلكيين الحكماء القُدامى؛ والذين لا يمكنني أن أنكر قولهم. ولكن بعد إدراكي البسيط، يبدو لي، مع احترامي لهم، أن محيطها أكثر من ذلك[1].

ولفهم أفضل أقول التالي: تخيل شكلاً ذا انحناء شديد، وحول النّقطة التي في الانحناء الكبير التي تسمّى المركز يوجد انحناء آخر صغير. وبعد ذلك، اقسم الانحناء الكبير بخطوط إلى أجزاء كثيرة، ولتكن كل الخطوط ملتقية في المركز. وبذلك فإن عدد الأجزاء التي سينقسم إليها الانحناء الكبير، يساوي عدد الأجزاء التي يتقسم إليها

(1) هذا أيضاً صحيح، فمحيط الأرض يبلغ 24859.82 ميلاً، لكن هذا الرقم لا يتجاوز بكثير تقدير الفلكيين القدامى الذين يستحقون الاحترام على قربهم من معرفة القيمة الحقيقية.

الانحنــاء الصّغيــر، الذي يحيط بالمركز بالرغم من أن مســاحته أصغر. والآن، إذا بدّلنا الانحنــاء الكبيــر بالأفق، والانحناء الصّغير بالأرض. والأفق مقسّــم مــن قبل الفلكيين إلى اثنتي عشــرة إشــارة، وكل إشارة مقســمة إلى ثلاثين درجة؛ والمجموع 360 درجة التــي يقســم إليها الأفــق فوق. وأيضاً تقســم الأرض إلى عدد الأجزاء فــي الأفق، وكل جــزء يعــادل درجة في الأفــق. ويجب الإدراك تماماً، أنه، حســب مؤلفــي علم الفلك، كل 700 فرلنــغ[1] في الأرض تعــادل درجة في الأفق، ويكون هذا ســبعة وثمانين ميلاً وأربعــة فرلنغات. وعند ضرب هذا النّاتج بــ 360 المذكورة، يكون الحاصل 31.500 ميلاً لكل ثمانية فرلنغات، بعد أميال من بلدنا. فالأرض ذات شكل دائري أكثر ومحيط أكبر، حسب رأيي وفهمي.

ولعلمكم، أنه حســب رأي الفلاســفة وعلماء الفلك الكبار والحكماء، فإن لا بلدنا ولا أيرلندا ولا ويلز ولا اســكتلندا ولا النّروج ولا الجزر الواقعة على ســواحلهم يعتبر ســطحها فوق الأرض، كما تظهر في كتب الفلك. حيث أن ســطح الأرض مقسّــم إلى ســبعة أقسام لسبعة كواكب، وتسمّى المناخات. ولا يقع جزءنا في المناخات السّبعة، لأنها تنحدر باتجاه الغرب [تنســحب] باتجاه دائرية العالم. وهذه الجزر في الهند التي تقابلنا لا تعتبر من المناخات أيضاً. لأنها تقع مواجهة لنا في بلد منخفض. والمناخات السّبعة تمتدّ لتغطي العالم.

* * *

(1) الفرلنغ مقياس قديم يعادل ثُمن الميل.

الفصل الحادي والعشرون

عن قصر الملك في جزيرة جاوة
وعن الأشجار التي تثمر الطّحين والعسل والخمر والسّم
وعن أشياء أخرى عجيبة، والعادات السّائدة في الجزر المجاورة

بجوار تلك الجزيرة التي حدثتكم عنها، توجد جزيرة أخرى تدعى سوموبور Sumobor. وهي جزيرة كبيرة، وملكها عظيم جداً. والنّاس في تلك الجزيرة يَسِمون أنفسهم على جبهاتهم بواسطة قطعة حديد محماة، رجلاً ونساءً، وهذا بدافع النّبالة، وليتميزوا عن الأقوام الآخرين؛ كونهم يعتبرون أنفسهم أكثر نبلاً وأعظم شأناً من سائر الآخرين في العالم. وهم في حالة حرب دائمة مع أولئك القوم الذين يسيرون عراة.

وبقربها تقع جزيرة أخرى، تسمّى بيتيمغا Betemga، وهي جزيرة خصبة ووافرة. وأيضاً ثمّة جزر كثيرة بالجوار، وفيها الكثير من الأقوام المختلفون، ويطول الحديث عنها.

ولكن بالقرب من تلك الجزيرة، بعد عبور البحر، يوجد جزيرة كبيرة وبلد عظيم يسمّونها جاوة. ولا يتجاوز محيطها الألفي ميل. وملكها حاكم عظيم وثري وقوي، ويوجد تحت سلطته سبعة ملوك آخرين يحكمون سبع جزر حوله. وهذه الجزيرة مأهولة بشكل كبير، وفيها أناس كثر. ويزرعون فيها كل أنواع التوابل وبوفرة أكثر من أي بلد آخر، مثل الزّنجبيل والقرنفل والقرفة canell والسّيدوال seedwal وجوز الطّيب والتّوابل mace. والمعروف أن جوزة الطّيب تحمل التّوابل maces؛ فكما أن البندق

تغطيها قشـرة، تبقى بداخلها حتى تنضج ثم تنفصل عنها كذلك هو حال جوزة الطّيب والتّوابـل maces. وغيرها الكثير من التوابـل والمحاصيل التي تنمو في هذه الجزيرة. وكل شيء متوفر بكثرة باستثناء الخمر. ولكن يوجد الذهب والفضة وبكميات كبيرة.

وملـك تلـك الجزيـرة لديه قصر فخـم جداً ورائـع، ومترف أكثر مـن أي قصر آخر فـي العالـم. وكل أدراجـه المؤدية إلى القاعـات والغرف مصنوعة واحـدة من الذهب والأخـرى من الفضة. وأيضاً ممرّات القاعات والغرف كلها مصنوعة بشـكل مربعات واحـدة مـن الذهـب والأخرى من الفضـة. والجدران كلها مكسـوة بالذهـب والفضة بشـكل لوحات جميلة، وهذه اللوحـات تحكي وتصوّر الفرسـان المميّزين enleved والتيجـان والأكاليـل حـول رؤوسـهم مرصعـة بالحجـارة الكريمـة واللآلـئ الغاليـة والنّفيسـة. والقاعـات والغرف بالقصـر كلها مغطاة بالذهب والفضـة ولا يمكن لأحد تصور فخامة ذلك القصر حتى يراه. وملك تلك الجزيرة عظيم جداً، وتمكن في مرات عديـدة من أن يقهر خان كاثاي[1] الأعظم في المعارك، وهو الإمبراطور الأعظم تحت هذه السّـماء سـواء ما وراء البحـر أو في هذا النّصف. وقد كانوا فـي حالة حرب غالباً، لأن الخـان الأعظـم أراد أن يجبره على ضمّ بلاده إليه؛ ولكـن الآخر كان دائماً يتمكن من الدفاع عن نفسه ضده.

وبعـد تلك الجزيرة، وبعد الإبحار، يجدون جزيرة أخرى، خصبة وكبيرة، وتسـمّى باثن Pathen، وهي مملكة عظيمة فيها الكثير من المدن الجميلة والقرى. وفيها أشجار تنتـج الطّحيـن، الذي يصنعـون منه خبزاً جيـداً وأبيض وطيـب المذاق؛ ويبـدو وكأنه مصنـوع من الحنطة، ولكن بمذاق مختلف. وهناك أشـجار أخرى تنتج العسـل الجيد والحلو، وأشجار أخرى تنتج السّم، الذي لا يوجد ترياق له إلا [واحداً]؛ وهو أن يأخذ المرء أوراقها الجيدة ويسـحقها ويلطفها بالماء ثم يشـربها، وإلا فإنه سـيموت؛ لأنه لا يوجـد تريـاق أو أي دواء آخر. وطلباً لهذا السّـم قـام اليهود بإرسـال بعض أصدقائهم

(1) في تعابير أوروبا بالقرون الوسطى كاثاي تعني الصّين، وما زالت تسمّى كذلك في الرّوسيّة إلى اليوم: Китай كيتاي.

ليسمّموا كل المسيحيين، كما سمعتهم يقولون في اعترافاتهم قبيل موتهم، ولكن الحمد لله العظيم! فشلوا في مسعاهم؛ ولكنهم دائماً يسببون الموت للكثير من النّاس.

وهناك أشجار أخرى تحمل خمراً ذا مفعول قوي. وإذا رغبت أن تعرف كيف يخرج الطّحين من الشّجر فسأخبرك بذلك، يقوم الرّجال بضرب الشّجرة بفأس صغير، في أسفل الشّجرة، حتى ينقسم لحاؤها إلى أجزاء كثيرة، ثم يخرج منها سائل كثيف، يقومون بتعبئته في أوانٍ، ويجففونه بواسطة حرارة الشّمس؛ ثم ينقلونه إلى الطّاحون لطحنه ويصير طحيناً ناعماً وأبيض. والعسل والخمر والسّم يتم استخراجها من الشّجرة بالطّريقة ذاتها، ثم توضع في الأواني وتحفظ.

يوجد في تلك الجزيرة بحر الموت، وهو عبارة عن بحيرة ليس لها قاع؛ وإذا ما سقط أي شيء في تلك البحيرة فإنه لن يخرج أبداً. وينمو فيها القصب على شكل عصي ويسمّى تابي thapy، طوله حوالي الثّلاثين قامة[1] fathom، ويصنع النّاس من هذا القصب بيوتاً جميلة. ويوجد قصب أيضاً أقصر من هذا، ينمو على الضفاف وله جذور عميقة تصل إلى ثلاثة أرباع الفرلنغ أو أكثر من ذلك؛ وفي عُقد هذا القصب توجد أحجار كريمة ثمينة جداً. ومَن يحمل أياً منها معه، لا يمكن أن يؤذيه لا الحديد ولا الفولاذ، ولا ينزف منه دم؛ لذلك، فإن الرّجال يحملون هذه الحجارة معهم حتماً في البحر والبر، لأنه لا يمكن للآخرين إيذاؤهم ولا بأي جزء. ولذلك أيضاً، فإن الذين يعرفون خصائصه ويشتبكون معهم في قتال، يرمونهم بسهام ويتقاتلون دون استخدام الحديد والفولاذ، وبذلك يتمكنون من إيذائهم وذبحهم. وهم أيضاً يبنون من هذا القصب البيوت والسّفن وأشياء أخرى، كما لدينا نحن هنا بيوت وسفن من السّنديان والأشجار الأخرى. ولا يعتقدنّ أحدٌ أنني أقول هذا عبثاً، فقد رأيت بأم عيني، مرّات عدة، القصب طافياً على سطح نهر تلك البحيرة، ولم يتمكن عشرون شخصاً من جماعتنا من رفعه أو نقله إلى اليابسة.

بعد هذه الجزيرة اتجه الرّجال إلى جزيرة أخرى تدعى كالوناك Calonak، وهي

---

(1) مقياس القامة fathom يعادل 1,8288 متراً.

جزيـرة جميلـة وفيها مزروعات وفيرة. ولدى ملك تلـك الجزيرة من الزّوجات بالقدر الـذي يريـد. فهو يرسـل فـي البحث فـي كل أصقاع البلد حتـى يجدوا لـه أجمل فتاة، ويحضروهـا إليـه. وهو يتزوج واحدة في هـذه الليلة وأخرى في الليلـة التالية، وهكذا دواليـك؛ حتى أصبح لديـه ألف زوجة وربما أكثر. وهو لا يبقى مع الواحدة منهن أكثر من ليلة واحدة، وفي الليلة التالية مع أخرى؛ إلا إذا كانت تلك أكثر قدرة على إسـعاده مـن الأخرى. ولذلك فلديه الكثيـر من الأولاد، أحياناً مئة، أحيانـاً مئتين، وأحياناً أكثر من ذلك، ولديه أيضاً 1400 فيل أو أكثر من ذلك وقد جمعها من السّكان في كل مدنه. ففـي حال نشـبت حرب بينـه وبين أي من الملوك من حوله، فهـو واثق من قدرة رجال جيشـه على الصّعـود باتجاه القصور المبنية من الأشـجار من أجـل المعارك، ويقفون ببراعـة على ظهور الفيلة ليقاتلوا الأعداء. وهذا ما يفعله الملوك الآخرون من حولهم. لأن أسـلوب الحروب هناك ليس كما هو عليـه هنا أو في البلاد الأخرى، ولا حتى في طقوس الحرب. وهم يسمّون الفيلة: *Warkes*.

وفي تلك الجزيرة أمرٌ مدهش جداً، والحديث عنه أكثر منه في أي جزء في العالـم. فكل أنواع السّمك، الموجودة في البحر المحيط بهم، تأتي مرة في العام – من كل أنواع السّمك المختلفة، كل نوع يلي النّوع الآخر. وهي تلقي بنفسها على ضفاف الجزيرة بكميات كبيرة ووافرة، ولا يمكن لأحد أن يرى شيئاً سوى السّمك. وتبقى هناك لمدة ثلاثة أيام، وكل امرئ في البلد يأخذ منها بمقدار ما يريد. وبعد ذلك، وبعد اليوم الثّالث ترحل أسـماك هذا النّوع وتعود إلى البحر. ثم تأتي أسـماك بكميات وافرة من نوع آخر وتقوم بما قامت به سـابقتها، ولمـدة ثلاثة أيام أخرى. وبعدها تأتي غيرها، حتى تتوافد أنواع السّـمك كلها، وحتى يأخذ النّـاس منهـا الكمّيات التي يريدون. ولا أحد يعرف السّـبب وراء ذلـك[1]. ولكنهم يقولون إنهـا تقـوم بذلك إجلالاً لملكهم، كونه الملك الأعظم في العالـم، كما يقولون؛ لأنه يمتثل لأمر الله الذي فرضه على آدام وحواء، عندما قال:

---

(1) السّبب في ذلك هو البحث عن مياه ضحلة ودافئة لطرح البيوض وتخصيبها، ولو كان في ذلك موت الأبويين. إنها سنّة الكون العظيمة التي لا تأبه للملوك ولا غيرهم من بني البشر.

Crescite et multiplicamini et replete terram.

ولذلك السّـبب فهو يضاعف أعداد العالم بالأولاد، والله يرسـل له هذه الأسـماك من كل الأنواع الموجودة في البحر، ليأخذ ما يشـاء منها هو وكل شـعبه. ولذلك تأتي الأسـماك لتقـدم له فروض الطّاعـة كونه أنبل وأفضـل ملوك العالـم، والأثيـر إلى الله، حسـب أقوالهـم. لا أعرف السّـبب في ذلك، الله أعلم؛ ولكن بالنسـبة لـي يبدو الأمر الأكثر غرابة في كل ما شاهدت. فهذه المعجزة غريبة كل الغرابة is against kind and not with kind، فكيف لهذه الأسماك التي تملك حرية التنقل على كل شواطئ البحر كمـا يحلـو لها، أن تأتـي بملء إرادتها لتقدم نفسـها للموت ودون إجبار من الإنسـان. ولذلك أنا متأكد أن ذلك لم يكن ليحدث إلا لدلالة عظيمة.

ويوجد في تلك البلد حلزونات كبيرة جداً، ويمكن لعدة أشـخاص أن يدخلوا إلى قواقعها، كما يجلسـون في بيـت صغير. وهناك حلزونات كبيرة ولكنها ليسـت بحجم تلـك. وهذه الحلزونات هي ديدان بيضاء كبيرة ولها رأس أسـود بحجم فخذ إنسـان، وبعضها أصغر حجماً بحجم الديدان التي يجدها النّاس في الغابات، ويحضّرون منها طعامـاً فاخـراً للملك وكبـار الحكّام. وفي تلـك البلاد إذا مات رجل متـزوج، يدفنون زوجتـه معه؛ لأنهم يقولون إأن السّـبب في ذلك أن ترافقه فـي العالم الآخر كما فعلت في هذا العالم.

ومـن ذلـك البلـد يبحـر الرّجال عبـر المحيط ويمـرّون بجزيـرة تسـمّى كافولوس Caffolos. والنّـاس في تلك الجزيرة عندما يمرض أصدقاؤهـم يعلقونهم في شـجرة، ويقولـون مـن الأفضـل أن تقوم الطّيـور، التي هي ملائكـة الله، بأكلهم مـن أن تأكلهم ديدان الأرض.

ومن تلك الجزيرة يمضون إلى جزيرة أخرى، حيث يوجد قوم بغيضون. فهم يربون كلاباً ضخمة ويعلمونها كيف تخنق رفاقهم عندما يمرضون، وبذلك لا يموتون برفق، فهم يقولون إنهم سـيعانون من آلام شـديدة إذا تُركوا ليموتوا من تلقاء أنفسـهم، عندما تشاء الطّبيعة. وعندما يُخنقون بهذه الطّريقة يأكلون لحمهم بدلاً من لحم الطّرائد.

وبعدمـا يجتـاز الرّجال الكثيـر من الجزر وصلـوا إلى جزيرة تسـمّى ميلكه Milke وفيها الكثير من النّاس البغيضين، فليس هناك شيء أكثر متعة لديهم من مهاجمة البشر وقتلهـم. وهـم يشـربون بابتهاج دماء البشـر، ويسـمّونه ديو Dieu. وكلمـا قتل الرّجل منهم عدداً أكبر من البشـر أصبح أكثر كرامة بينهم. وإذا نشـب شـجار بين شـخصين، وللمصادفـة، أن يحدث بين أحد أصدقائهم أو حلفائهـم، فعندها على كل واحد منهم أن يشـرب من دماء الآخر، وإلا فإن الترابط والتحالف يكون بلا قيمة. ولا شـيء يمنع توجيه التوبيخ للذي يخرق التحالف والتآلف، إلا بأن يشرب كل منهم من دم الآخر.

ومن تلك الجزيرة يبحر الرّجال من جزيرة إلى جزيرة، حتى يصلوا إلى جزيرة تسمّى تراكودا Tracoda، والأقوام في تلك الجزيرة مثل الوحوش، وغير عاقلين، ويسـكنون فـي كهـوف حفروها فـي الأرض، لأنهم لا إدراك لديهم لبناء البيـوت. وإذا ما رأوا أيّ إنسـان يمـر بجزيرتهـم اختبأوا فـي كهوفهم. وهم يأكلـون لحوم الأفاعـي، وبكميات قليلة. ولا يتكلمون بل فقط يصدرون هسيساً مثل الأفاعي. وليس لديهم لا أسعار ولا أوزان ولا مال، فقط لديهم جحر ثمين ذو سـتين لوناً، ونسبة إلى اسم الجزيرة يسمّونه «تراكودون» Tracodon. ويحبّون هذا الحجر أكثر من أي شـيء آخر؛ بالرغم من عدم معرفتهم لخواصه، لكنهم يعشقونه ويحبونه فقط لجماله.

ويبحر الرّجال بعد هذه الجزيرة في المحيط بالقرب من جزر عديد حتى وصلوا إلى جزيـرة ناكوميرا Nacumera، وهي جزيرة خصبة وجميلة. وتقع على مسـاحة تتجاوز الألـف ميل. وكل الرّجال والنّسـاء في تلك الجزيرة لديهم رؤوس كلاب، ويسـمّونها سينوسـيفال cynocephales. وهـم قوم عقلاء ومتفهمون، باستثناء أنهم يعبدون الثّور كإلـه لهم. وكل واحـد منهم يحمل ثور من الذهب أو الفضـة على جبهته، كدليل على صدق حبهم لربهم. ويسـيرون عراة باسـتثناء خرقة صغيرة يغطـون فيها عوراتهم حتى الرّكبة. وهم قوم أشـداء ومقاتلون جيدون. ولديهم درع targe يغطي كامل جسـدهم، ويحملـون رمحـاً في يديهـم ليقاتلوا به. وإذا أخذوا شـخصاً في المعركـة فهم يأكلونه فوراً.

وملـك هـذه الجزيرة غني جداً وقوي جداً وملتزم حقـاً بقوانينه. ويضع حول رقبته حوالـي 300 لؤلؤة متألّقـة، جيدة وكبيرة ومعقودة، كالرقية مـن الكهرمان عندنا. وكما نتلو نحن صلوات «أبانا» *Pater Noster* و«السّـلام عليك يا مريم» *Ave Maria* بعدد *Pater Nester* فملكهـم يتلـو بخشـوع 300 صـلاة لربـه، أو ما يـأكل[1]. وأيضاً يضع حـول رقبته ياقوتة متألقة، فخمة وجميلة، طولها قدم وعرضها خمسـة أصابع. وعندما يختـارون ملكهم، يعطونه هذه الياقوتة ليحملها بيـده؛ ويقودونه ليطوف بكل المدينة. ومـن تلـك اللحظة وصاعـداً يكونون تحت طاعتـه. ويحمل تلك الياقوتـة دائماً حول رقبته، لأنه إن لم يفعل ذلك يمكن ألا يعدّه النّاس بمثابة الملك. لقد اشتهى خان كاثاي العظيـم هذه الياقوتة كثيـراً، ولكنه لم يحصل عليها لا بحـرب ولا بالمقايضة ببضائع. وهـذا الملك عادل ومنصف جداً في أحكامه، وبإمكان النّاس التجول بحرية في بلاده وأن يحملـوا معهـم ما لديهم، ولن يقوم أحد بسـلبهم بضائعهـم، وإن حدث هذا، فإن الملك سيحاكمه فوراً.

ومن تلك الجزيرة يبحر الرّجال إلى جزيرة أخرى تسـمى سـيلها Silha. وهي تبعد 800 ميلاً تقريباً. وهي أرض خاوية تماماً لأنها مليئة بالأفاعي والتنانين والكوكودريل[2] cockodrills، لذلـك لا يجـرؤ امـرؤ على السّـكن فيها. وهـذا الكوكودريـل نوع من الأفاعـي، لونـه أصفر وأعلاه مخطّط، وله أربعة أقدام وأرجـل قصيرة، وأظافر ضخمة كأنهـا مخالب. وبعضه يصـل طوله إلى خمس قامات[3] fathom، ومنه سـتة أو ثمانية أو حتى عشرة. وعندما يدبّ في أماكن منخفضة، يبدو وكأن إنساناً يجرّ شجرة ضخمة بهذا المكان المنخفض. ويوجد أيضاً الكثير من الوحوش البرية، وتحديداً الفيلة.

يوجد في تلك الجزيرة جبل عظيم. وفي وسـط قمته توجد بحيرة كبيرة على مكان منبسط جميل؛ ويوجد فيها الكثير من الماء. وفي تلك البلاد يقولون إنّ آدم وحواء بكيا

---

(1) لم أفهم معنى العبارة، وهي في الأصل: or that he eat ولا بدّ أنها مصحّفة.

(2) هكذا يكتب ماندڤيل العبارة، وصوابها crocodile وهو يعني التّمساح بالطبع، ومن البديهي أن التّماسيح لم تكن مألوفة للأوروبيين آنذاك، وكانت من الأعاجيب.

(3) مقياس القامة fathom يعادل 1.8288 متراً.

على قمة هذا الجبل لمدة مئة عام، عندما طُردا من الجنة، وهذا الماء، حسب أقوالهم، هو دموعهما؛ لأنهما ذرفا دموعاً كثيرة، وهكذا تشكلت البحيرة المذكورة. وفي قاع هذه البحيرة يوجد الكثير من الأحجار الكريمة واللآلئ الكبيرة. وينمو فيها الكثير من القصب والخيزران الكبير؛ ويوجد بينه الكثير من الكوكودريل cockodrills والأفاعي والطّفيليات المائية الضخمة. وملك تلك البلاد، مرة في كل عام، يسمح للناس الفقراء بالذهاب إلى البحيرة لجمع الأحجار الكريمة واللؤلؤ، كصدقة، حباً في الله الذي خلق آدم. وعلى مدار العام يجدون الكثير منها. وبالنسبة للهوام الموجود في البحيرة، فهم يدهون أيديهم وأفخاذهم وأرجلهم بمرهم مصنوع من شيء يسمّونه ليمون lemon، وهو نوع من الفواكه يشبه البازلاّء الصغيرة، وبذلك لا يخشون أيّاً من الكوكودريل ولا الهوام الأخرى السّامة. ويجري هذا الماء، بين مَدّ وجَزر، على جانب الجبل، ويجد النّاس في هذا النّهر الأحجار الكريمة واللؤلؤ، بكميات كبيرة. ومن الأقوال الشّائعة بين النّاس في تلك البلاد، أن الأفاعي والوحوش البرية لا تؤذي ولا تمسّ بشرّ أي شخص غريب يدخل هذه البلاد، فقط النّاس الذين يولدون في هذه البلاد.

في هذه البلاد وما حولها يوجد إوز بري له رأسان. ويوجد أسود، لونها أبيض بالكامل وحجمها كبير بحجم الثّيران، ووحوش أخرى متنوعة وطيور لا نشاهدها بيننا.

وللعلم فإن في هذه البلد وفي الجزر المحيطة بها، البحر عالٍ جداً، ويبدو وكأنه معلق بالغيوم، وكأنه سيغطي العالم كله. ومن الإعجاز الكبير أن يحدث هذا، فبمشيئة الله فقط، يمسكه الهواء. ولذلك قال داود في المزامير:

Mirabiles elationes maris.

* * *

الفصل الثّاني والعشرون

كيف يعرف النّاس بفضل أوثانهم إذا كان الشّخص المريض سيموت أم لا وعن قوم ذوي أشكال مختلفة ومشوهين بشكل غريب وعن الرّهبان الذين يقدّمون بقايا طعامهم إلى السّعادين والقردة والحيوانات الأخرى

مـن تلك الجزيرة، وعبـر البحر باتجاه الجنـوب، يوجد جزيرة كبيرة تسـمى داندن Dandun. والأقـوام في تلك الجزيرة من أنواع مختلفـة، والأب يأكل ابنه والابن أباه، والـزّوج زوجته والزّوجة زوجها. وإن حدث ومرض الأب أو الأم أو أحد أصدقائهم، يذهب الابن فوراً إلى كاهنهم ويطلب إليه أن يسـأل صنمهم فيما إذا كان أبوه أو أمه أو صديقهم سـيموت بذلك المرض أم لا. ثم يذهـب الكاهن والابن معاً إلى أمام الصّنم ويركعان بخشـوع ويسـألانه مطلبهما. وإذا أجاب الشّـيطان الذي بداخله أنه سيعيش، فيتركونـه علـى حالـه؛ أمـا إذا كان الجواب أنه سـيموت، يذهب الكاهن مـع الابن مع زوجـة الشّـخص المريض، ويضعـون أيديهم على فمـه حتى يتوقف عـن التنفس، ثم يذبحونـه. بعـد ذلك يقطعون جسـده إلى قطـع صغيرة، ويدعـون كل أصدقائـه ليأتوا ويأكلوا من الميت. ويرسلون في طلب كل العازفين في البلاد ويقيمون احتفالاً مهيباً.

وبعـد أن يأكلـوا اللحم، يأخـذون العظـام ويدفنونها، ويغنّـون ألحانـاً مهيبة. وكل أنسـباؤه والذيـن يدّعـون أنهم أصدقـاؤه، الذين لـم يأتوا إلـى تلك الوليمـة، يوبَّخون علـى الدّوام ويُنعتون بالعار، ويواجهون بنقـد كبير، ومن بعد ذلك لا يمكن أن يُتخذوا

أصدقــاء. ويقولــون أيضاً، إنّ النّــاس يأكلون لحومهم ليخلصوهم مـن العذاب؛ لأنهم إذا أكلتهم ديدان الأرض ســتتكبد الرّوح آلاماً جســيمة، حسب قولهم. وإذا كان اللحم رقيقاً ونحيلاً، يقول الأصدقاء إنهم ارتكبوا إثماً كبيراً بتركه بهذا الوهن طويلاً وليعاني الكثيـر من الألــم دونما داع لذلك. وعندما يجدون اللحم كثيراً، يقولون إنهم أحســنوا صنعاً بإرساله فوراً إلى الجنة، ولم يتركوه يعاني طويلاً ويتحمّل الألم.

وملـك هذه الجزيـرة حاكم عظيم جداً وقوي، وتقع تحت سـلطته خمس وأربعون جزيـرة كبيرة تقدّم الجزية له. ويوجد في كل جزيرة من هذه الجزر ملك متوّج؛ وكلهم تحت ولاء ذلك الملك. ولديه في تلك الجزر الكثير من الأقوام المختلفين.

فـي إحدى هـذه الجزر يوجد أقـوام ذوو بنية ضخمة، مثل العمالقـة، ومرآهم مريعٌ جـداً. ولهـم عين واحدة، في منتصف جبهتهم، ولا يأكلون سـوى اللحوم والأسـماك النّيئة.

وفـي جزيرة أخرى باتجاه الجنوب يقطن قوم ذوو قوام كريه وشـكل بغيض وليس لديهم رؤوس. وعيونهم تقع على أكتافهم[1].

وفـي جزيرة أخـرى يوجد قوم وجوههم مسـطّحة تماماً، ومنبسـطة، دون أنف ولا فم. لكن لديهم فتحتان صغيرتان، مدورتان تماماً، بدلا من العيون، وفمهم دون شفاه.

وفـي جزيـرة أخرى يوجد قوم شـكلهم مقيـت فشـفتهم العليا كبيرة جـداً، وعندما ينامون تحت الشّمس يغطون كامل وجههم بتلك الشّفة.

وفي جزيرة أخرى يوجد قوم صغار جداً، كالأقزام. وليس لديهم فم؛ فبدلاً من الفم

(1) هذه الأوصاف جميعها خياليّة وغير معقولة أبداً، وفيها خيال جامح بأشدّ ممّا ذكره رحّالتنا الكبير ابن بطّوطة المعاصر لماندڤيل. وقد ظهرت رسوم كثيرة لهذه الأشكال التي وصفها ماندڤيل، وقد حصلت عليها جميعاً من طبعة آوغسبورغ الألمانيّة المطبوعة عام 1481 م، لكن نشرها يستلزم موافقة من المكتبة العامّة صاحبة النسخة الأصليّة، الأمر الذي سيستدعي منا إصدار طبعة مصوّرة لاحقاً من هذا الكتاب النفيس تضم الصور الكاملة المنفذة بنُقيشات على الخشب.

يوجد لديهم فتحة صغيرة مدورة، وعندما يريدون أن يأكلوا أو يشربوا، يأخذونه بواسطة أنبوب أو قلم أو ما شابه، ويمتصّونه لأنه ليس لديهم لسان؛ ولذلك فهم لا يتكلمون، ولكن يصدرون هسيساً كالصوت الذي تصدره الأفعى، ويستخدمون الإشارات فيما بينهم كما يفعل الرّهبان، ويتفاهمون من خلالها.

وفي جزيرة أخرى يوجد قوم لهم آذان كبيرة وطويلة، تتدلّى حتى ركبهم.

وفي جزيرة أخرى يوجد قوم لديهم حوافر الخيول. وهم أقوياء وأشدّاء، ويجرون بسرعة؛ فهم يمسكون الحيوانات البرية بالجري ويأكلونها.

وفي جزيرة أخرى يوجد قوم يسيرون على أيديهم وأرجلهم مثل الحيوانات. ويغطيهم جلد وريش، ويقفزون بخفّة إلى الأشجار وينتقلون من شجرة إلى أخرى كما لو كانوا سناجب أو قروداً.

وفي جزيرة أخرى يوجد قوم يمثل الواحد منهم رجلاً وامرأة معاً، ولديهم شكل يتراوح بين الرّجل والمرأة. ولديهم حلمة ثدي واحدة في جهة واحدة، ولا يوجد في الجهة الثّانية. ويوجد لديهم أعضاء تناسل ذكرية وأنثوية، ويستخدمون الجهازين كليهما كما يريدون، مرة هذا ومرة ذاك. ويحملون عندما يستخدمون العضو الذكري، ويلدون عندما يستخدمون العضو الأنثوي.

وفي جزيرة أخرى يوجد قوم يمشون على ركبهم بشكل غريب حقاً. ومع كل خطوة يمشونها، يبدون كأنهم سيقعون. ولهم في كل قدم ثمانية أصابع.

ويوجد الكثير من الأقوام المختلفين وبطبيعة مختلفة في الجزر الأخرى، ولكن الحديث عنهم يطول جداً، ولذلك مررتُ على ذكرهم باختصار.

ومن هذه الجزر وعبر البحر المحيط باتجاه الشّرق وبعد أيام طويلة، يصل الرّجال إلى بلد كبيرة ومملكة عظيمة تسمى مانسي Mancy. وهي تقع في الهند. وهي أفضل أرض ومن أجمل البلاد الموجودة في العالم، والأكثر بهجة ووفرة بكل أنواع المحاصيل التي يعرفها الإنسان. ويعيش في تلك البلاد الكثير من المسيحيين

والمسـلمين، لكونها بلداً خصبة وكبيرة. وفيها أكثر مـن 2000 مدينة كبيرة وغنية، عدا عـن القـرى الكبيرة. وفيها الكثير من السّـكان أكثر من أي مكان آخر في الهند، بسـبب سـخاء هـذه البـلاد. لا يوجد فـي هذه البـلاد أناس محتاجـون، ولا يوجد متسـولون. والنّاس ذوو شـكل حسن، ولكنهم كلهم شاحبون. وللرّجال لحى خفيفة وشعر قليل، لكن طويل؛ ولا يتجاوز تعداد شـعر لحية الرّجل منهم الخمسـين شـعرة، وشـعرة هنا وشـعرة هناك كلحية الفهود أو القطط. ويوجد هناك الكثير من النّساء الأكثر جمالاً من كل البلاد الأخرى ما وراء البحر، ولذلك يسمي النّاس تلك البلاد ألبانيا Albany لأن النّاس فيها ذوو بشرة بيضاء[1].

والمدينة الرّئيسـية في تلك البلاد تسـمى لاتورين Latorin، وهي قريبة من البحر، وهـي أكبـر من باريـس. وفيها نهر كبير يحمل السّـفن المبحرة إلى كل الشّـواطئ على البحر. ولا توجد أيّة مدينة في العالم تمتلئ بالسـفن مثلها. وكل سـكان المدينة والبلد يعبدون الأوثان. وفي تلك البلد حجم الطّيور ضعفا ما هو عليه هنا. ويوجد إوز أبيض اللـون، ولـه خط أحمـر حول الرّقبـة، وعُرف كبير مثل عـرف الدّيك يعتلي رؤوسـها؛ وأعدادها أكثر ممّا هي عليه هنا، ويشتريها النّاس هناك حيّى وبسعر زهيد جداً. ويوجد الكثير من الأفاعي التي يولـم النّاس عليها ويأكلونها باحتفالية كبيرة؛ والذي يقوم بوليمة لا تكلفه كثيراً، والذي لا يقدّم الأفاعي لا يُشكر على عنائه.

وهنـاك الكثيـر من المـدن الجميلة فـي تلك البـلاد، والنّـاس لديهم الكثيـر الوافر والرّخيـص جداً من كل أنواع الخمر والطّعام. وفيهـا الكثير من المعابد لرجال الدين، حسب دينهم. في هذه المعابد أصنام ضخمة جداً مثل العمالقة؛ ويقدّمون الطّعام لهذه الأصنـام في أيام المهرجانـات الكبيرة. يحضرون إليهم الأطعمة فـوراً وحارّة كلحظة خروجهـا مـن النّـار، ويتركون الدُّخـان يتصاعـد باتجاه الأصنـام؛ وهكـذا يقولون إن صنمهم قد أكل؛ وبعد ذلك يأكل رجال الدين.

يوجـد فـي تلك البـلاد دجاج أبيـض دون ريـش، ولكـن يغطيه صـوف أبيض كما

(1) في اللغة اللاتينيّة ألبينو albino تعني: الأبرص، شديد البياض.

الخراف هنا. والنّساء غير المتزوجات يوجد علامة على رؤوسهن مثل الإكليل ليُعرف أنهن عازبات. وأيضاً هناك حيوانات علّمها النّاس أن تذهب إلى المياه، إلى الأنهار والبحيرات العميقة لتصطاد السّمك؛ وهذه الحيوانات صغيرة وتسمى اللوير loirs. وعندما يرمي بها النّاس إلى الماء، فوراً تجلب سمكاً كبيراً، بقدر ما يريد النّاس. وإن أرادوا كمية أكبر يرمون بها مرة ثانية إلى الماء، فتخرج من السّمك الكمية التي يريدها النّاس.

ومن تلك المدينة وعلى بعد أيام إبحار كثيرة توجد مدينة أخرى، من أكبر مدن العالم، وتسمى كاساي Cassay وهي تعني «مدينة الجنة». مساحة هذه المدينة حوالي خمسين ميلاً، وهي مأهولة بالسكان بشكل كبير، ففي البيت الواحد تقطن عشر أُسر. ولهذه المدينة اثنتا عشرة بوابة رئيسية؛ وأمام كل بوابة، بطول ثلاثة أو أربعة أميال، توجد قرية كبيرة أو مدينة كبيرة. وتقع هذه المدينة على بحيرة كبيرة في البحر مثل البندقية. وفيها أكثر من 1200 جسر. وعلى كل جسر توجد حصون منيعة، يقطن فيها الحرّاس لحماية المدينة من الخان العظيم. وفي جزء آخر من المدينة يجري نهر كبير على طول المدينة. ويسكن فيها مسيحيون وتجار وأقوام مختلفة من أمم متنوعة، لأن هذه الأرض خصبة ووفيرة. ويُنتج فيها خمر جيد يسمّونه بيغون bigon، وهو ذو مفعول قوي ولطيف عند الشّرب. وهي مدينة ملكية وكان ملك مانسي Mancy يرغب أن يسكن فيها. ويقطن فيها الكثير من رجال الدين، وكأنها دير للرهبان، وهم يعيشون على الهبات.

يبحر الرّجال من تلك المدينة، ويتسلون ويتلهّون، حتى يصلوا إلى دير رهبان، وهم رجال أتقياء ملتزمون بدينهم ومعتقداتهم. وفي ذلك الدّير توجد حديقة كبيرة وجميلة، وفيها أشجار كثيرة تحمل فاكهة متنوعة. وفيها تلة صغيرة تملؤها أشجار بهيجة. وفي تلك التلة وتلك الحديقة توجد حيوانات متنوعة، مثل القرود، والقرود الصّغيرة، والسّعادين وحيوانات أخرى متنوعة. وفي كل يوم، بعد أن يأكل الرّهبان في هذا الدّير، يقوم الوكيل على الصّدقات بحمل بقايا الطّعام إلى الحديقة، ويطرق على

بوابة الحديقة بواسطة هراوة من الفضة يحملها في يده، فتبادر حالاً كل الحيوانات في التلة وفي أماكن أخرى في الحديقة يصل عددها إلى 3000 أو 4000، إلى القدوم كالفقراء، فيقدّمون لها بقايا الطّعام في أوانٍ فضية، نظيفة ولامعة. وبعد أن تأكل، يطرق الرّاهب على بوابة الحديقة بالهراوة، وفوراً تعود الحيوانات كلها من حيث أتت.

ويقولون إن لهذه الحيوانات روحاً كما للإنسان ومن العدل التساوي معها، ولذلك يعطونها الطّعام لأجل حبهم لله؛ وعن الحيوانات الأخرى الكريهة يقولون إن لديها أرواح النّاس الفقراء والعامّة البسطاء. ولذلك يعتقدون، أنه لا يجب على كل النّاس التفكير بها. وتلك الحيوانات المذكورة أعلاه أخذوها عندما كانت صغيرة وغذّوها بالصدقات، بقدر ما وجدوا. وسألتُهم فيما إذا كان من الأفضل أن يعطوا هذه البقايا للفقراء، بدلاً من هذه الحيوانات، فأجابوني أنه لا يوجد فقراء في تلك البلد، وأنه من الأفضل التصدّق لهذه الأرواح التي تؤدّي كفاراتهم. وهناك الكثير من الأمور العجيبة في تلك المدينة وتلك البلاد والتي يطول الحديث عنها.

ومن تلك المدينة يمضي الرّجال في تلك البلاد مسير ستة أيام إلى مدينة أخرى تسمى خيلينفو Chilenfo، والتي يحيط بها سور بطول عشرين ميلاً. وفيها ستون جسراً من الحجر، جميلة جداً لا يمكن أن يُرى أجمل منها. وفي تلك المدينة كان أول حصار لملك مانسي بسبب كونها جميلة ووفيرة بكل شيء.

وبعد ذلك يعبر الرّجال نهراً كبيراً يسمّى دالاي Dalay، وهو أكبر نهر ذي ماء عذب في العالم. فهو، في أضيق أجزائه، يصل عرضه إلى أكثر من أربعة أميال. ثم يدخل الرّجال إلى أرض الخان الأعظم.

ويمرّ ذلك النّهر في أرض الأقزام، حيث يوجد قوم بنيتهم صغيرة، وطولهم لا يتعدّى الثّلاثة أشبار. وهم جميلون ودمثون، بأجمعهم رجالاً ونساءً. وهم يتزوجون بعمر نصف سنة وينجبون. ولا يعيشون أكثر من ست أو سبع سنوات كحدّ أقصى؛ ومن يعيش ثماني سنوات، يعتبرونه مسناً جداً. وهم أفضل حرفيي الذهب والفضة والقطن والحرير وما شابه ذلك، أكثر من أي أحد آخر في العالم. ولديهم حرب دائمة

مـع الطّيـور في تلـك البلاد ليصطادوهـا ويأكلوها. وهـؤلاء القوم الصّغـار لا يعملون فـي الأرض أو فـي الكـروم؛ لكـن يوجد بينهـم أناس كبـار بحجمنا يحرثـون الأرض لهـم ويعملون في الكـروم. والنّاس الذين بحجمنا موضع سـخرية وعجب كما يكون العمالقة بيننا، إن وجدوا بيننا.

وتوجـد مدينة خصبة، بين المدن الأخـرى، ويقطنها الكثير من القوم الصّغار، وهي مدينة كبيرة وجميلة. ويوجد ناس بحجم كبير يعيشون بينهم، ولكن عندما يولد لديهم أطفـال يكونـون صغاراً جـداً بحجم الأقزام. ولذلـك فهم كلهم بأغلبيتهـم أقزام؛ لأن طبيعة هذه الأرض كذلك. والخان الأعظم يحافظ على هذه المدينة بشكل جيد، فهي ملكـه. وإن يكن الأقزام صغاراً فإنهم عقلاء جداً حسـب عمرهم، ويمكنهم أن يكونوا ظرفاء وطيبين وخبثاء أيضاً.

ومـن تلك المدينـة يذهب الرّجال عبر تلـك البلاد وعبر الكثير مـن المدن والقرى وصـولاً إلى مدينة تسـمى جامـكاي Jamchay، وهي مدينة راقيـة ومترفة وذات فائدة كبيـرة للحاكـم، ويتجه الرّجـال إلى هنـاك ليتبضعوا مـن كل البضائع. ولهـذه المدينة إيرادات سـنوية كبيرة تعود على سـيد البلاد. فهو يحصل لقاء خراج هذه المدينة (كما يقولون في المدينة) 50,000 قطعة عملة ذهبية cumants of florins، فهم يحسبون كل شيء بالكومانت، وكل كومانت يعادل 10,000 فلورين من الذهب. والآن يمكنكم أن تعرفوا تماماً كم يعادل هذا المبلغ.

وملـك تلك البلاد قوي جداً، ولكنه تحت سـلطة الخـان الأعظم. وتقع تحت إمرة الخـان الأعظم اثنتا عشـرة مقاطعة كهـذه. وفي هذه البلاد وفي المـدن المعتبرة توجد عادة جيدة: فأيّ شـخص يريد أن يقيم وليمة لأصدقائه، توجد خانات مخصّصة لذلك في كل مدينة جيدة، ويطلب هذا الشّخص صاحب الوليمة إلى صاحب الخان[1] قائلاً:

(1) أرجو التمييز هنا بين لقب الخان في اللغات الأورالو ألطائيّة (ومنها التركيّة)، وعبارة الخان التي تعني النُّزل. وأنبّه إلى أنه ليس في التركيّة حرف الخاء على الإطلاق، بل لفظ العبارة: Han هان، وهو الصّواب وليس الخان. وثمّة لقب شبيه به هو: Hakan يُلفظ: هاكان، وشاع في

رتّب لي عشاءً ليوم غد لكذا شخص، ويذكر له العدد، ويزوّده بالمؤونة، ويقول له: هذا القدر الذي سأقدّمه وليس أكثر من ذلك. وفوراً يقوم صاحب الخان بالترتيب له بشكل جميل وجيد وبأمانة، بحيث لا ينقصه شيء، ويتم التحضير بسرعة وبكلفة أقل ممّا يفترض أن يدفعه الشّخص في بيته.

وعلى بعد خمسة أميال من تلك المدينة، باتجاه منبع نهر دالاي، توجد مدينة أخرى تسمى مينكه Menke. وفيها أسطول بحري قوي، وسفنه كلها بيضاء مثل الثّلج بلون خشب الأشجار التي صنعت منها. وهي سفن كبيرة وجميلة، ومشيّدة بشكل جيد، وفيها قاعات وغرف ومرافق أخرى، وكأنها على اليابسة.

ومن هناك يذهب الرّجال، مروراً بالكثير من القرى والمدن، عبر البلاد إلى أن يصلوا إلى مدينة تسمى لانتيرين Lanterine، وهي على بعد مسيرة ثمانية أيام من المدينة آنفة الذكر. وتقع هذه المدينة على نهر جميل، كبير وعريض، ويسمّونه كاراماورن Caramaron. وهذا النّهر يجري عبر كاثاي، وغالباً ما يسبب أذى عندما تزداد غزارته، كونه غزيراً جداً.

* * *

التراث العربي بالقرون الوسطى بلفظ: خاقان. ومعنى الخان في التّركية والمغوليّة الأويغوريّة: السيّد. لكن اللفظ التتري أقرب إلى: قان، وهكذا ترد في نص المملوك صارم الدّين أوزبك الذي نذكره أدناه.

الفصل الثّالث والعشرون

عن خان كاثاي الأعظم، وعن فخامة قصره وكيف يجلس إلى الطّعام؛ وعن عدد الموظفين الكبير الذين يخدمونه

بـلاد كاثاي[1] كبيرة وجميلة، فخمة وغنية، ومليئـة بالتجّار. فهم يؤمونها على مدار العـام طلباً للتوابل وكل أصناف البضائع، بشـكل أكبر من أي جزء آخر. وكما تعلمون فـإن التجـار القادمين من جنوة أو البندقية أو رومانيـا أو أيّة أجزاء أخرى من لومبارديّا، يأتون عن طريق البحر والبرّ لمدة تتراوح بين أحد عشر شهراً أو اثني عشر، أو أكثر من ذلـك، ليصلوا إلى جزيرة كاثاي المنطقة الرّئيسـية بيـن المناطق التي حولها؛ وهي بلاد الخان الأعظم.

ومـن كاثاي يبحر الرّجال شـرقاً لعدة أيام. ثم يجدون مدينـة خصبة أكثر من المدن حولها، وتسـمى سـوغارماغو Sugarmago. وهذه المدينة هي أفضل منتج في العالم للحرير والبضائع الأخرى.

وبعدها اتجهوا إلى مدينة أخرى قديمة باتجاه الشّرق. وتقع في مقاطعة كاثاي. وبجانب تلك المدينة سمح رجال دولة التّتار Tartary بإنشاء مدينة أخرى تدعى كايدون Caydon. ولهذه المدينة اثنتا عشرة بوابة، والمسافة بين بوابة وأخرى ميل دائماً؛ ولذلك فإن المدينتين، أي القديمة والجديدة، يزيد محيطهما على العشرين ميلاً.

---

(1) في تعابير أوروبا بالقرون الوسطى كاثاي تعني الصّين، وما زالت تسمّى كذلك في الرّوسيّة: Китай كيتاي. وحديثه هنا عن كاثاي ينطبق على فرع إمبراطوريّة التّتار في الصّين.

في هذه المدينة عرش الخان الأعظم في قصر منيف، وهو الأجمل في العالم، محيط سوره يتجاوز الميلين. وداخل هذا السّور توجد القصور الأخرى. وفي حديقة القصر الكبير توجد تلة، وعليها يوجد قصر آخر؛ وهو الأجمل والأغنى ممّا يمكن أن يتصوره إنسان. ويوجد حول القصر وعلى التلة الكثير من الأشجار المتنوعة. وحول التلة توجد قنوات مياه كبيرة وعميقة، وبجانبها يوجد حظائر vivaries على هذه الجهة واحدة وعلى الجهة الأخرى واحدة. ويوجد جسر جميل للعبور فوق القنوات. وفي هذه الحظائر vivaries يوجد الكثير من الإوز البري والبط والبجع ومالك الحزين بأعداد لا تحصى. وحول هذه القنوات والحظائر توجد حديقة كبيرة تملؤها الحيوانات البرية. وبذلك عندما يريد الخان الأعظم أن يلهو فيمكنه أن يصطاد أي حيوان أو طير من النّافذة دونما حاجة ليغادر غرفته.

وهذا القصر، حيث يوجد العرش، كبير وجميل جداً. وبداخله، في القاعة، يوجد أربعة وعشرون عموداً من الذهب الخالص. وكل الجدران مغطاة بجلود حمراء لحيوانات يسمّونها النّمور panthers، وهي حيوانات جميلة وذات رائحة شذية؛ وبسبب تلك الرّائحة الجميلة الصّادرة عن هذه الجلود لا يمكن أن تدخل إلى القصر روائح كريهة. وهذه الجلود لونها أحمر بلون الدم، وهي تلمع بشدّة عند تعرّضها للشمس، وعندها لا يمكن لأي إنسان أن يمسك بها. والكثير من النّاس يعبدون هذا الحيوان، عندما يكون أول ما يشاهدونه في الصّباح، نظراً لصفاته المميزة ورائحته الجميلة. وهم يثمّنون هذه الجلود أكثر من لو كانت صفائح من ذهب.

وفي وسط هذا القصر يوجد عرش mountour للخان الأعظم، وهو مزخرف بالذهب والأحجار الكريمة واللآلئ الثّمينة. وعلى أركان العرش الأربعة توجد أربع أفاع من الذهب. وحوله يوجد شبكة كبيرة منسوجة من الحرير والذهب واللآلئ الكبيرة معلقة فوق العرش. وتحته توجد قنوات للمشروبات التي يتناولونها في قصر الإمبراطور. وبجانب القنوات توجد أوانٍ ذهبية، يستخدمونها للشرب من الأقنية.

وقاعة القصر مصمّمة بفخامة كاملة، ومزينة بشكل رائع بكل جوانبها وبكل الأشياء

التـي يزيّـن بها النّاس أي قاعـة. فأولاً، في صدر القاعة يوجد عـرش الإمبراطور، وهو عـالٍ جداً، حيث يجلس إلـى الطّعام. وقد صُنع من الحجـارة الثّمينة الجميلة، محاطة بالذهـب الخالص والأحجار الكريمة، واللآلئ الكبيـرة. والدرج المؤدي إلى المنصة من الأحجار الثّمينة المموّهة بالذهب.

وعلـى الجانب الأيسـر من عرش الإمبراطور يوجد عـرش زوجته الأولى، أخفض بدرجـة واحدة من عرش الإمبراطور؛ وهو من حجر اليشـب الكريم، يحيط به الذهب والحجارة الكريمة. ثم عرش زوجته الثّانية، وهو أيضاً أخفض بدرجة من عرش الزّوجة الأولى؛ وأيضاً مصنوع من اليَشب ومحاط بالذهب مثل السّابق. وعرش الزّوجة الثّالثة أخفض أكثر، بدرجة عن الزّوجة الثّانية. لأنه يكون مع ثلاث زوجات دائماً، أينما حلّ.

وبعد زوجاته، وبنفس الجهة، تجلس سـيدات ذرّيته ولكن بمجالس أخفض، وبعد ذلك الحاشـية. وكل النّسـاء المتزوجات يضعن على رؤوسهن قلنسوة على شكل قدم رجـل، طولها ذراع، مرصعة باللآلئ الكبيرة، الجميلـة والمتلألئة، وفوقها يوجد ريش طاووس وريش آخر ملون؛ وترتفع فوق رؤوسـهن مثل العُرف، كإشـارة على وقوعها تحت قدم رجل وأنها خاضعة لرجل. أما العازبات فلا يضعن شيئاً كهذا.

ويلـي الإمبراطور على الجهة اليمنى ابنه الأكبر الذي سـيحكم من بعده. وهو أيضاً يجلـس أخفض عن الإمبراطور بمقدار درجة، وعلى عرش شـبيه بعرش الإمبراطورة. ثـم يجلس كبار الشّـخصيات من ذرّيته، كل واحد أخفض بدرجة عن سـابقه، حسـب مكانتهم.

وللإمبراطور طاولته الخاصة به وحده، المصنوعة من الذهب والحجارة الكريمة، ويحيـط بها الكريسـتال والذهـب. وهي مليئة بالحجـارة الثّمينة أو الجمشـت، ونبات الصّبـر lignum aloes الـذي يأتي مـن الجنة، أو بحواف من العـاج أو الذهب. ولكل واحـدة مـن زوجاتـه الطّاولـة الخاصة بها أيضـاً. ولابنه الأكبـر ولكبار الشّـخصيات، وللنبيـلات، وكل مـن يجلس مع الإمبراطور يكون له طاولـة خاصة، فخمة تماماً. وما من طاولة إلا وتكون ممتلئة بالأطعمة الغنية.

وتحت طاولة الإمبراطور يوجد أربعة كتّاب يكتبون كل ما يقوله الإمبراطور، سواء كان خيراً أم شرّاً؛ لأن كل ما يقوله يجب أن يحفظ، حتى لا يغيّر أقواله أو يتراجع عنها.

وفي طقوس احتفالية مهيبة، يدني الرّجال من الإمبراطور طاولة كبيرة من الذهب، وعليها طاووس من الذهب وطيور أخرى مختلفة، كلها من الذهب ومرصعة بسخاء ومصقولة. والنّاس يجعلون الطيور ترقص وتغنّي، وتصفّق بأجنحتها، وتحدث ضوضاء كبيرة. وإن كانت خدعة أو سحراً فلا يمكنني إدراكها أبداً؛ ولكن كان من الجيد رؤية مشهد كهذا، وكان جميلاً؛ وأمراً مثيراً للدهشة بشدة. ولكن دهشتي كانت أقل بهذا، لأنهم كانوا القوم الأكثر براعة بكل العلوم والمهارات في العالم كله؛ فهم يتفوّقون على كل النّاس الموجودين تحت السّماء بالبراعة والحيلة والتكهن. ولذلك يقولون عن أنفسهم إنهم يرون بعينين اثنتين بينما يرى المسيحيون بعين واحدة، لأنهم أكثر براعةً منهم. ويقولون عن باقي الأمم كلها أنه عميان blind في فنون البراعة والعمل مقارنة معهم. أنجزتُ عملاً عظيماً بتعلّم تلك الخدعة، ولكن معلّمي أخبرني أنه أقسم لربّه ألا يعلمها لأي مخلوق، فقط لابنه الأكبر.

وأيضاً على طاولة الإمبراطور والطّاولات الأخرى، وعلى جزء كبير من القاعة توجد نباتات كرمة مصنوعة من الذهب. ومنتشرة في كل أرجاء القاعة. وفيها عناقيد كثيرة من العنب، بعضها أبيض وبعضها أخضر والبعض أصفر والبعض أحمر والبعض أسود، كلها من أحجار ثمينة. الأبيض مصنوع من الكريستال والبيريل beryl والإيريس iris؛ الأصفر من حجر الطّوباز، والأحمر من الياقوت والغريناز grenaz والألبراندين alabrandines؛ الأخضر من الزّمرد والپيريدوز perydoz والكريسوليت chrysolites؛ والأسود من العقيق والغارنتيز garantez. وكلها مصنوعة بدقة متناهية فتبدو وكأنها كروم حقيقية تحمل هذا العنب.

وأمام طاولة الإمبراطور يقف كبار السّادة وأغنياء الأعيان وآخرون ليقوموا بخدمة الإمبراطور على الطّعام. ولا يتفوّه أحد بكلمة، إلا عندما يخاطبه الإمبراطور؛ أو إذا وجد منشدون ليغنوا أو للمزاح أو التسالي الأخرى لإبهاج الإمبراطور. وكل الأواني

التي تقدم فيها الأطعمة في القاعة وفي الغرف من الحجارة الثّمينة، وخصوصاً الأطباق الكبيرة فيجب أن تكون من اليشب أو الكريستال أو الجمشت أو من الذهب الخالص. والكؤوس من الزّمرد أو الزّفير، أو الطّوباز أو الپيريدوز peryodoz، والعديد من الأحجار الكريمة الأخرى. ولا يوجد أنية من الفضة، لأنها ليست ذات قيمة، لكنهم يعملون من الفضة grecings وأعمدة والممرات للقاعات والغرف. وأمام مدخل القاعة يقف الكثير من الأعيان والفرسان يحملون أسلحة ليمنعوا النّاس من الدخول، إلا إذا كانت تلك رغبة أو أوامر الإمبراطور، أو إذا كان من الخدم والعازفين العاملين في القصر؛ وغير أولئك لا يُسمح لأحد أن يصل إلى مدخل القاعة.

ولعلمكم، أنني قمت ورفاقي مع مساعدينا بخدمة هذا الإمبراطور، وكنا جنوداً عنده لمدة خمسة عشر شهراً ضد ملك مانسي، الذي وقف ضده. والسّبب في ذلك كان توقنا لرؤية فخامة وحالة بلاطه وكل أملاكه، لنرى فيما إذا كانت كما سمعنا عنها أم لا. وبالفعل وجدناها أكثر فخامةً وأكثر تميزاً، وأفخم وأكثر روعة ممّا كنا سمعناه عنها، بشكل لم نكن لنصدقه ما لم نره. فأنا متأكد أن أحداً لن يصدّق مدى الفخامة والترف والحشد الكبير من النّاس الموجود في قصره، إن لم يكن رأى ذلك؛ لأنها هناك ليست كما هي عليه هنا. لأن النّبلاء هنا لديهم من الحاشية عدد محدّد وهو ما يفي بالغرض؛ لكن الخان الأعظم لديه كل يوم من النّاس في ضيافته وعلى نفقته أعداد لا تحصى. لكن الطّقوس، في تقديم الطّعام والشّراب، وفي الأمانة وفي النّظافة، ليست منظمة كما هي هنا؛ فكل العامة هناك يأكلون دون فوطة على ركبهم، ويأكلون كل أصناف اللحوم وبعض الخبز، وبعد اللحوم يمسحون أيديهم بملابسهم، ويأكلون مرة واحدة في اليوم. ولكن الوضع مع النّبلاء فخم جداً ومترف ونبيل.

وإن لم يكن البعض ليصدقني، ويعتقدون أنني أختلق الكلام عن فخامة شخصه وحاله وقصره والعدد الكبير من النّاس الذين يعملون عنده، ومع أنني أخبركم القليل عنه وعن قومه، بعد أن رأيت عاداتهم ونظامهم مرات عدة. فليصدقني من يشاء، وليكذبني من يشاء. لأنني أعرف جيداً أنه لو وصل أحد إلى هذه البلاد، وحتى إن لم

يصـل إلى المكان الذي يقطن فيه الخان الأعظم، سيسـمع النّاس يتكلمون عنه أشـياء رائعة جداً، والتي لن يصدقها بسهولة. وفي الواقع، حتى أنا شخصياً، لم أصدقها حتى رأيتها. وهؤلاء الذين حدث أن كانوا في ممتلكات الخان الأعظم يعرفون تماماً الشّيء الذي أقوله. ولا أسـتثني منهم بأنه لا يعرف ولا يصدُق إلا مَن رأى بنفسـه، وسـأروي لكم شيئاً عنه وعن أحواله عندما يسافر من بلد لآخر وعندما يقوم باحتفالاته المهيبة.

* * *

الفصل الرّابع والعشرون

لماذا يسمّى الخان الأعظم، وعن أسلوب رسائله ومضمون خاتمه الكبير وخاتمه السّرّي

أولاً سأخبركم عن سبب تسميته بالخان الأعظم.

لعلمكـم، أنـه تدمّر العالم بأسـره بعد فيضان نـوح، وأبقي فقط علـى نوح وزوجته وأولاده. وكان لديه ثلاثة أبناء هم سام Shem وحام Cham ويافث Japhet. وحام هذا رأى مرة عورة أبيه وهو نائم، واسـتهزأ به، وأومأ إلى أخويه بإشـارة من إصبعه متهكماً، ولذلك لعنه الله. أما يافث فقد أشاح بوجهه وغطّى أباه.

وانتشـر الأخـوة الثّلاثـة فـي كل البقاع. وحام هذا، بسـبب جشـعه، اتجـه إلى أكبر وأفضل جزء، باتجاه الشّـرق، والذي يسـمّى آسيا. وسـام أخذ أفريقيا، ويافث أوروبا. وبذلك قسم الأخوة الثّلاثة العالـم إلى ثلاثة أقسام. كان حام الأعظم والأقوى، وكانت ذريتـه أكثـر من الآخريـن. وابنه كوش Chuse أنجـب النّمرود الجبـار، الذي كان أول ملـك فـي العالم؛ والذي بدأ بإنشـاء برج بابـل. وفي ذلك الوقت، كان شـياطين جهنم يأتون باستمرار ويواقعون نساء ذرّيته وينجبون مخلوقات غريبة، كالوحوش ومشوّهة، بعضها دون رؤوس، وبعضها بآذان كبيرة، وبعضها ذوات عين واحدة، ومنها العملاقة، ومنها من له حافر الأحصنة، وأشـكال أخرى مختلفة عن الشّـكل البشـري. ومن ذرّية حام أتى الوثنيّون paynims وأقوام مختلفة وتوضعت في الجزر في البحر بكل الهند. ولأنـه كان جباراً ولا يمكن لأحد مقاومته فقد أطلق على نفسـه اسـم ابن الله وسـيطر

على العالم كله. وبسبب حام هذا، أطلق هذا الإمبراطور على نفسه اسم حام، وسيطر على العالم.

ومن ذرّية سام جاء العرب. ومن يافث بنو إسرائيل. وعلى الرّغم من أننا نقطن في أوروبا، فالمُعتقد أن السّريان والسّامريين بينهم البعض منهم. وهذا ما أخبروني به قبل أن أذهب باتجاه الهند، ووجدت العكس. بالرغم من أن الحقيقة هي كالتالي: أن التّتار الذين يسكنون آسيا الكبرى، هم ذرّية حام؛ ولكن إمبراطور كاثاي لم يسمِّ نفسه حام وإنما «خان» Can، وسأخبركم كيف كان ذلك.

إنها لم تكن أكثر من ثمان سنوات وكان التّتار خاضعين وفي خدمة الأمم التي حولهم. لأنهم كانوا قوماً همجيين وكل ما كانوا يقومون به هو تربية الحيوانات وأخذها إلى المراعي. وكان بينهم سبع أمم أساسية كانت تسيطر عليهم جميعهم. ومنهم: الأمة الأولى أو الذرّية الأولى كانت تسمى التّتار Tartar، وكانت الأرقى والأعلى قدراً. والذرّية الثّانية كانت تسمّى التانغوت Tanghot، والثّالثة Eurache، والرّابعة Valair، والخامسة Semoche، والسّادسة Megly، والسّابعة Coboghe.

وحدث أن تولّى حكم الذرّية الأولى رجلٌ ذو شأن لكنه لم يكن غنياً، وكان يسمّى جنگيز[1] Changuys. ومرة نام هذا الرّجل في فراشه ورأى في منامه أن فارساً مسلحاً وقف أمامه وهو يرتدي البياض، وكان يمتطي جواداً أبيضَ، وقال له: أيها الخان Can، أنائمٌ أنت؟ إن الله الحي قد بعثني إليك، وهذه مشيئته، أن تذهب أنت إلى الأقوام السّبعة وتخبرهم بأنك ستصبح إمبراطورهم. لأنك ستفتح الأراضي والبلاد الواقعة حولك، وهؤلاء الذين سيمضون معك سيكونون تحت سيطرتك، كما كنت أنت تحت سيطرتهم، وتلك هي إرادة الله الحي.

---

(1) أكتب الاسم هنا جنگيز على طريقة الرّسم العثماني القديم، وهكذا يُكتب الاسم عادة في العربيّة: جنكيز، ومثله أيضاً اسم هولاگو (هولاكو). وهنا اضطررت مرغماً إلى عدم كتابته بغين موسومة بثلاث نقاط، جرياً على القاعدة التي اصطلحتُ عليها في هذه السلسلة لكتابة حرف الجيم اللهويّة. وهذا مثال على صعوبة إقرار طريقة موحدة في التعبير عن الحرف، بعد مئات من السنين اعتادت بها العين على رؤيته مكتوباً بصورة مغايرة.

وعندما كان اليوم التالي، نهض جنگيز Changuys، وذهب إلى الأقوام السّبعة، وأخبرهم بما قاله الفارس الأبيض. فاستهزؤوا به، وقالوا عنه إنه أحمق. وغادر من بينهم وهو خجل جداً. وفي الليلة التالية، جاء هذا الفارس الأبيض إلى الأقوام السّبعة وأمرهم بالنيابة عن الله الحي، أنّ عليهم أن يجعلوا من جنگيز Changuys هذا إمبراطوراً عليهم، وأن يكونوا كلهم طاعة، وأن يستولوا على المناطق الأخرى التي حولهم كما فعلوا أولئك بهم في السّابق. ولما كان الغد، اختاروه إمبراطوراً عليهم. وأجلسوه على مقعد fertre أسود، ورفعوه بإجلال كبير ووضعوه على كرسي من ذهب وأبدوا له كل الاحترام، وسمّوه «خان»، كما سمّاه الفارس الأبيض.

وعندما تم اختياره بهذا الشّكل، فكّر فيما إذا كان يمكنه أن يثق بهم أم لا، وفيما إذا كانوا سيغدون له طائعين أم لا. وبعدها سنّ الكثير من الشرائع والقوانين التي سمّوها ياسا[1] خان *Yasa Chan*. التشريع الأول كان أنّ عليهم أن يؤمنوا بالله الحي، القادر، الذي ينجيهم من الكرب، وأن يدعوه دائماً ليساعدهم في المحن. وكان التشريع الثّاني، أنه ينبغي إحصاء جميع الرّجال القادرين على حمل السّلاح، وأن يُعيّن على كل عشرة رئيس، وعلى كل مئة رئيس، وعلى كل ألف رئيس، وعلى كل عشرة آلاف رئيس. وبعد ذلك أمر كبار الأقوام السّبعة، بأن يتركوا ويهجروا كل ما لديهم من أموال وأملاك، ومنذ ذلك الحين فصاعداً سيقوم بالدّفع لهم لأجل ذلك وسيعطيهم من كرمه. فنفّذوا ذلك حالاً. ثم أمر كبار الأقوام السّبعة، أن يحضروا أبناءهم البكور ليمثلوا أمامه، وأن يضربوا رؤوسهم بأيديهم دون أي تلكؤ. وفوراً نُفّذت كل أوامره.

وعندما رأى الخان أنهم لم يضعوا أيّة عوائق في تنفيذ أوامره، عندها وقر في ظنّه أنه يمكنه الوثوق بهم، وأمرهم أن يستعدوا حالاً للسّير تحت لوائه. وبعد ذلك، وضع الخان كل الأراضي المحيطة تحت سيطرته.

وبعد ذلك، حدث في أحد الأيام أن مضى الخان مع حاشية قليلة لتعزيز قوّة بلد

---

(1) في اللغة التركيّة بالقرون الوسطى كانت تستخدم عبارة yasak بمعنى: القانون والدّستور، وهي في التركية الحديثة تعني أيضاً: الممنوع، المحظور. والمصدر واحد.

كان قد ظفر به. وهذا ما جرى: واجهه عدد كبير من الأعداء، وليظهر مثالاً جيداً عن الشّجاعة لشعبه، كان هو أول من بدأ بالقتال، وفي منتصف الالتحام مع الأعداء سقط عن جواده، وقُتل حصانه. وعندما رآه قومه على الأرض، ارتبكوا جميعهم وظنوا أن قد مات، فهربوا بأسرهم وأعداؤهم خلفهم يلاحقونهم، ولم يدركوا أن الإمبراطور كان هناك. وعندما كان الأعداء يلحقون بالفارّين، اختبأ الإمبراطور في غابة كثيفة. وعادوا ثانية من المطاردة، وأخذوا يبحثون في الغابة إذا ما اختبأ أحد منهم في الغابات الكثيفة؛ ووجدوا الكثيرين فقاموا بذبحهم فوراً. وما حدث أنهم فيما اتجهوا للبحث في المكان الذي اختبأ فيه الإمبراطور، وجدوا بومة تجلس على الشّجرة فوقه؛ فكانوا يقولون فيما بينهم: لا يوجد أحد هنا، لأنهم يجدون الطّير هناك، ثم ذهبوا في طريقهم؛ وهكذا نجا الإمبراطور من الموت.

ثم مضى متخفياً طوال الليل، حتى وصل إلى قومه الذين فرحوا كثيراً بقدومه، وتوجهوا بالشكر الكبير لله الحيّ، ولذلك الطّائر الذي بفضله نجا سيدهم. لذلك وعلى رأس كل الطّيور في العالم قدّسوا البوم؛ وإذا حصلوا على ريشة منه، احتفظوا بها كالنفائس بدلاً من الذّخائر، ووضعوها فوق رؤوسهم باحترام كبير؛ فهم يحافظون على أنفسهم مباركين وسالمين من كل خطر بينما يضعون هذه الرّيشة على رأسهم[1]، لذلك يحملون ريش البوم على رؤوسهم.

بعد كل هذا استعدّ الخان، وجمع شعبه، ومضى إلى أولئك الذين أغاروا عليه سابقاً ومزّق شملهم، ووضعهم تحت سيطرته وهيمنته. وبعدما انتصر ووضع كل البلاد الواقعة في هذا النّصف في جبال بيليان Mount Belian تحت سيطرته، جاءه الفارس الأبيض مرّة أخرى في منامه، وقال له: أيها الخان! إنّ إرادة الله الحي أن تعبر جبال بيليان. وإنك سوف تحتل الأراضي وتضع أمماً كثيرة تحت سيطرتك، ولأنك لا تجد ممراً جيداً للوصول إلى تلك البلاد، فعليك أن تذهب إلى جبل بيليان الواقع فوق البحر، وأن تسجد هناك تسع مرّات باتجاه الشّرق عبادةً لله العظيم، وسوف يريك

(1) من هنا إذن أتى المثل الدّمشقي: ما حدا على راسه ريشة.. أي كل إنسان سيدركه الموت حتماً.

الطّريق الذي ستسلكه. وهذا ما فعله الخان، وحالاً بدأ البحر الذي يلمسه والمتاخم للجبل بالانسحاب أمامه، ورأى طريقاً جيداً عرضه تسعة أقدام؛ وهكذا عبر مع قومه، وحصل على أراضي كاثاي وهي أعظم مملكة في العالم.

ولأجل التسع سجدات وعرض الطّريق التسع أقدام، فقد أجلّ الخان وكل التّاتر العدد تسعة. ولذلك فمن أراد أن يقدّم للخان هدية، سواء كانت خيولاً، أو طيوراً، أو سهاماً وأقواساً، أو فاكهة، أو أيّ شيء آخر، كانوا يجعلون عددها دائماً تسعة[1]. وكان يسرّ بتلك الهدايا ويتسلّمها بلطف أكبر من تلك التي تقدّم بالمئة والمئتين. فبالنسبة له العدد تسعة مقدّس جداً، لأن رسول الله العظيم أوصاه به.

وأيضاً، عندما ظفر خان كاثاي ببلاد كاثاي، وضمّها إلى سيطرته بالإضافة إلى بلاد أخرى كثيرة حولها، وقع مريضاً. وعندما شعر يقيناً أنه سيموت، قال لأبنائه الاثني عشر إنه على كل واحد منهم أن يحضر أحد سهامه، فنفّذوا ذلك فوراً. وأمرهم أن يقوموا بربطها مع بعضها في ثلاثة مواضع. ثم أعطاها لابنه الأكبر، وطلب منه أن يكسرها، لكنه لم يستطع. ثم طلب من ابنه الثّاني أن يكسرها؛ وهكذا، باختصار، طلب منهم جميعاً واحداً تلو الآخر، ولم يتمكن أحد منهم أن من كسرها. وبعد ذلك طلب من ابنه الأصغر أن يفصلها عن بعضها، وأن يكسر كلاً منها على حدة بنفسه. وهذا ما فعله. ثم قال الخان لابنه الأكبر والآخرين جميعهم: لماذا لم تتمكنوا من كسرها جميعها؟ وأجابوا لم نتمكن لأنها كانت متماسكة بشدة. ولماذا، سأل، تمكن أخاكم الصّغير من كسرها؟ أجابوا: لأنها كانت متفرقة بعضها عن بعض. وعندها قال الخان: يا أبنائي، هذا تماماً ما يحدث لكم. كلما كنتم مترابطين مع بعضكم في مواضع ثلاثة، وهي الحب والصّدق والائتلاف الجيد، لن يملك أحد القوة ليتغلب عليكم. ولكن إذا تفرقتم من هذه المواضع الثّلاثة، ولم يساعد الواحد

(1) يروي لنا المملوك صارم الدّين أوزبك الأشرفي، أحد مماليك الملك الأشرف الأيوبي صاحب حمص، تفاصيل ممتعة عن مثوله بين يدي قان التّتار هلاون (هولاگو) حفيد جنگيز خان أثناء نزوله على حلب، ويذكر تقدمة «الطقزات»، أي أصناف الهدايا التسعة من مأكول ومشروب ومشموم وملبوس ومركوب.. إلخ. وعبارة طُقُز dokuz في التركية تعني الرقم تسعة. انظر كتاب: «دمشق في مرآة رحلات القرون الوسطى» في هذه السّلسلة.

منكم الآخر، ستتدمرون ويقضى عليكم. وإذا أحبّ كل منكم الآخر وساعده، ستسودون وتحكمون الآخرين. ومات بعدما أنهى نصائحه[1].

وحكم من بعده جوتشي[2] Ecchecha Cane، ابنه الأكبر. ومضى إخوته لضمّ الكثير من البلاد والممالك، حتى وصلوا إلى أراضي پروسيا وروسيا، وأطلقوا على أنفسهم اسم خان Chane؛ وكانوا كلهم طاعة لأخيهم الأكبر، ولذلك سمّي الخان الأعظم.

وبعد جوتشي Ecchecha حكم گويوك[3] خان Guyo Chan.

وبعده مُنگو[4] خان وكان مسيحياً صالحاً وتمّ تعميده، وأصدر أوامر بالأمان الدائم لكل المسيحيين، وأرسل أخاه هلاوون[5] Halaon مع عدد كبير من النّاس لضم الأراضي المقدّسة ولوضعها تحت يد المسيحيين، وللقضاء على تشريع مغاير، وليهزم الخليفة في بغداد الذي كان إمبراطوراً وسيداً على كل المسلمين. وهكذا هزم هذا الخليفة[6]، الذي كان النّاس يقدرونه كثيراً، في كل أنحاء العالم، ولا يمكن أن يجدّ المرء شخصاً أكثر وقاراً منه، ولا أعلى شأناً. وعندما جعله هلاوون Halaon يمثل أمامه، سأله: لماذا لم تتّخذ جنوداً أكثر وعدداً كافياً من الرّجال، لقاء بعض المال، ليقوموا بالدفاع عنك وعن بلادك، الغنيّة بالثروات وذات المقام الرّفيع؟ فأجابه الخليفة، بأنه كان يعرف تماماً أن لديه ما يكفي من الرّجال الأكفياء. وعندها قال هلاوون: لقد كنتَ كإله للمسلمين، ومن الجدير بالإله ألا يأكل طعام البشر. لذلك فإنك لن تأكل إلا

(1) القصّة ترد بحذافيرها في تراثنا العربي منسوبة إلى أكثم بن صيفي.

(2) الاسم في التترية: Jochi.

(3) الاسم في التترية: Güyük.

(4) الاسم في التترية: Möngke.

(5) المقصود به هولاگو خان التّتار الشهير، الذي اجتاح المشرق الإسلامي في عام 1258 م ودمّر بغداد دار الخلافة العبّاسيّة. وهذا الاسم هلاوون كان يسمّى به حقاً باللهجة التّتريّة، وهكذا يرد في قصة المملوك صارم الدّين أوزبك.

(6) كان الخليفة العبّاسي آنذاك المستعصم بالله ابن المستنصر بالله، حكم بين 1242-1258 م وبمقتله انتهت الخلافة العبّاسيّة، غير أنّ التّتار لقوا بعدها هزيمة نكراء على أيدي المماليك في معركة عين جالوت الفاصلة عام 1260 م بقيادة المظفّر قُطُز.

الأحجار الكريمة، والآلئ النّفيسة والكنوز، التي تحبّها كثيراً. ثم أمر به إلى السّجن، وكل ثرواته التي له. وهكذا مات جوعاً وعطشاً. وبعد ذلك، ظفر هلاوون بكل أراضي الميعاد، ووضعها تحت يد المسيحيين. ولكن الخان الأعظم، أخاه، مات؛ وكان ذلك حزناً عظيماً وخسارة كبيرة لكل المسيحيين.

وبعد منگو خان حكم قُبلاي[1] Cobyla وكان أيضاً مسيحياً. وحكم مدة اثنتين وأربعين سنة. وأنشأ مدينة إيزونغ Izonge العظيمة في كاثاي، التي كانت أكثر عظمة بكثير من روما.

والخان الأعظم التالي الذي جاء بعده أصبح وثنياً Paynim وكل الذين جاؤوا بعده.

ومملكة كاثاي هي أعظم مملكة في العالم. وأيضاً الخان الأعظم هو الإمبراطور الأكثر قوة في العالم، والحاكم الأعظم تحت هذه السّماء. وهذه هي الصّفات التي يطلقها على نفسه في رسائله:

Chan! Filius Dei excelsi, omnium universam terram colentium summus imperator, & dominus omnium dominantium!

والكلمات المكتوبة على ختمه الكبير:

Deus in coelo, Chan super terram, ejus fortitudo. Omnium hominum imperatoris sigillum.

وهذا ما كُتب على ختمه الصّغير:

Dei fortitudo, omnium hominum imperatoris sigillum.

ومع أنّهم ليسوا مسيحيين، فإن الإمبراطور وكل التّتار مؤمنون بالله الحيّ. وإذا أرادوا القسم لأحدهم قالوا له: إن الله يعرف تماماً أنني سأقوم بفعل هذا لك، ويقولون قسمهم.

وهذا ما قد سمعتموه سبب تسمية الخان الأعظم.

---

(1) الاسم في التترية: Kubilai.

الفصل الخامس والعشرون

عن الحراسة في قصر الخان الأعظم، وعندما يقومون باحتفال مهيب وعن حكمائه، وعن حاشيته عندما يجوب في البلاد

سأخبركم الآن عن الحراسة في قصر الخان الأعظم، عندما يقوم باحتفال مهيب؛ وهذا أساساً يقام أربع مرات في السّنة.

الاحتفال الأول بمولده، والثّاني بحضوره إلى المعبد الذي يسمّونه «المسجد» Moseache، حيث يقومون بشيء كالختان، واحتفالين آخرين لأوثانه. أول احتفال لوثنه عندما يوضع أول مرة في معبدهم ويتوّج؛ والاحتفال الثّاني عندما يبدأ بالكلام، أو يقوم بمعجزة ما. ولا يوجد احتفالات أخرى مهيبة، إلا إذا قام بتزويج أيّ من أبنائه.

والآن من الواضح أنه في كل هذه الاحتفالات يكون لديه عدد كبير من النّاس، منظمين ومكتسين بشكل جيد، بالآلاف والمئات والعشرات. وكل شخص يعرف تماماً ما الذي سيقوم بفعله، وكل شخص يعطي انتباهاً جماً وحضوراً جيداً لما يقوم به من عمل حتى لا يجد أحد أي خلل. ويكون أول المصطفين 4000 سيّد، ذوي شأن وجاه، ليقوموا بالتنظيم والسّيطرة على الحفل، ولخدمة الإمبراطور. وهذه الاحتفالات المهيبة تقام في الخارج في قاعات وخيم مصنوعة من القماش المنسوج من الذهب ومن القماش التتري، بفخامة متناهية. وعلى رؤوس هؤلاء السّادة تيجان من الذهب، فخمة وباذخة، وعليها أحجار كريمة ولآلئ متألقة. ويلبسون جميعهم ثياباً من الذهب والقماش التتري (الطرطان) tartarins والكمخة camakas، مترفة جداً

ولائقة جداً، بحيث ليس بإمكان أحد في العالم أن يعدّلها أو يصنع أفضل منها. وكل هذه الأثواب مزركشة الأهداب، ومرصّعة بالأحجار الكريمة واللؤلؤ الشّرقي، بفخامة بالغة. ومن الممكن أنهم يقومون بذلك، لأن الملابس المصنوعة من الذهب والحرير هي هناك أرخص بكثير من الملابس المصنوعة من الصّوف. وهؤلاء الأربعة آلاف سيّد مقسمون إلى أربع فرق، كل ألف منهم يرتدون ثياباً بلون واحد، بمنتهى التنظيم والفخامة، وذلك المنظر شديد الرّوعة.

الألف الأول، يتألف من الدوقات والنّبلاء والماركيزات[1] والأمراء، جميعهم يلبسون ثياباً من الذهب فيها نسيج حريري أخضر اللون، ويحيط بأهدابها الذهب والأحجار الكريمة كما ذكرت مسبقاً. الألف الثّاني يرتدون ثياباً مزينة بالحرير الأحمر، مزخرفة بالذهب، ووضعت على الزّركشات لآلئ كبيرة وأحجار كريمة، مزينة بشكل فخم تماماً. والألف الثّالث يرتدون ملابس حريرية ذات لون أرجواني أو هندي. والألف الرّابع يلبسون ثياباً بلون أصفر. وثيابهم كلهم فخمة جداً ومرصعة بترف بالذهب والأحجار الكريمة واللؤلؤ، ولو أن رجلاً من هذه البلاد كان يملك ثوباً واحداً من ثيابهم، لأمكنه القول إنه لن يكون فقيراً أبداً؛ لأن الذهب والأحجار الكريمة واللؤلؤ الشّرقي الكبير أثمن بكثير في هذا النّصف من البحر من النّصف الثّاني من البحر في تلك البلاد.

وبعدما يلبسون بهذا الشّكل، يسيرون اثنين اثنين، بنظام كامل، من أمام الإمبراطور، دون أن يتفوهوا بكلمة واحدة، فقط ينحنون له. وكل منهم يحمل طبقاً من اليشب أو العاج أو الكريستال، ويسير العازفون قبلهم، يعزفون بآلاتهم أنغاماً متنوعة. وعندما يمرّ الأف الأول بهذا الشّكل حتى آخرهم ويتمّون عرضهم، ويخرجون من ذلك الجانب؛ يدخل الألف الثّاني، ويقومون بالشيء ذاته، بنفس التنظيم الهدوء، كما فعل الذين قبلهم؛ وبعد ذلك، الألف الثّالث، فالرابع؛ ولا أحد منهم يتلفوّه بأيّة كلمة.

وعلى أحد جوانب طاولة الإمبراطور يجلس الكثير من الفلاسفة المشهود لهم

---

(1) طبعاً هذه الألقاب أوروبيّة، ولا علاقة لها ببلاط خان التّتار.

بالحكمة بمختلف العلوم، مثل الفلك والسّحر والهندسة والكهانة بالنّار pyromancy والكهانة بالماء hydromancy والتنبؤ، وغيرها من العلوم. وكل منهم يضع أمامه أسطرلاباً من الذهب، والبعض مجسّمات كروية، والبعض جماجم لأموات، والبعض أوانٍ ذهبية مملوءة بالحصى أو الرّمل، والبعض أوانٍ ذهبية مملوءة بفحم محترق، والبعض أوانٍ ذهبية مملوءة بالماء والخمر والزّيت، والبعض ساعات ذهبية horologes، فخمة الصّنع ومرصّعة بترف، وأدوات أخرى مختلفة كل حسب اختصاصه.

وفي موعد محدد، عندما يعتقدون أنه الوقت المناسب، يطلبون إلى بعض الضباط الذين يقفون إلى جانبهم، بانتظار أوامرهم: افرضوا الصّمت!

وهنا يقول الضباط؛ صمتاً الآن، اسمعوا!

وبعد ذلك يقول أحد الفلاسفة؛ ليقم الجميع بالإجلال والانحناء للإمبراطور، ابن الله والحاكم المسيطر على كل العالم! حان الوقت الآن! فيقوم الجميع بحني رؤوسهم باتجاه الأرض.

ثم يأمرهم الفيلسوف نفسه ثانية: وقوف! فيقومون بذلك.

وفي ساعة أخرى، يقول فيلسوف آخر: ضعوا إصبعكم الصّغير في آذانكم، وفوراً يقومون بذلك.

وفي ساعة أخرى يقول فيلسوف آخر: ضعوا أيديكم على أفواهكم! فيقومون بذلك حالاً.

وفي ساعة أخرى يقول فيلسوف آخر: ضعوا أيديكم على رؤوسكم! وبعد ذلك يطلب منهم إبعاد أيديهم. فيفعلون ذلك.

وهكذا، من ساعة لأخرى، يأمرونهم بفعل أشياء محدّدة؛ ويقولون إن هذه الأشياء ذات دلالات مختلفة. وسألتهم على انفراد ما هي دلالة هذه الأشياء. فأجابني أحد السّادة بأن إحناء الرّأس في تلك السّاعة يدل على الآتي: أن كل أولئك الذين حنوا

رؤوسهم يجب أن يكونوا للأبد خاضعين ومخلصين للإمبراطور، وألا يتواطؤوا أبداً مع أيّ كان ليغدروا أو يخونوا الإمبراطور في السّرّاء والضرّاء. ووضع الإصبع الصّغير في الأذن يدل، كما يقولون، أن أحداً منهم لن يسمع كلاماً أو أشياء سيئة تقال بحق الإمبراطور، وأنه سيقوم فوراً بنقلها إلى مستشاره أو يطلع عليها شخصاً سيقوم بإيصالها إلى الإمبراطور، حتى ولو كان أباه أو أخاه أو ابنه. وهكذا دواليك، حول كل الأشياء الأخرى التي يقوم بها الفلاسفة، أخبروني عن أسباب أشياء كثيرة مختلفة. وأنا واثق تماماً من أن كل شخص يقوم بشيء للإمبراطور حتى فيما يخصّه، سواء في ملبسه أو طعامه أو شرابه أو استحمامه أو أي شي آخر يتعلق به، يقوم به في موعد محدّد وضعه له حكماؤه.

وإن نشبت حرب في أي بقاع الإمبراطور، يأتي الفلاسفة فوراً ليدلوا بنصائحهم بعد حساباتهم، وينصحوا الإمبراطور حسب علومهم؛ ولذلك لا يقوم الإمبراطور بأي شيء دون مشورتهم.

وبعد أن ينتهي الفلاسفة من إصدار جميع أوامرهم، يقوم الموسيقيون بتقديم معزوفاتهم، كلٌّ على آلته، واحد تلو الآخر، من كل المعزوفات التي يعرفونها. وبعد أن يعزفوا لفترة لا بأس بها، يقوم أحد ضباط الإمبراطور بالصعود على منصة عالية مزخرفة بدقة، ويصرخ قائلاً بصوت عال: هدوء! وعندها يصمت الجميع.

بعد ذلك، يكون كل السّادة الذين من ذرّية الإمبراطور، مرتدين ثياباً مُترفة من الذهب ومكتسين بملكية كاملة، على جياد بيضاء، بكامل العدد الذي لديه في ذلك الوقت، ويستعدّون ليقدموا هديتهم للإمبراطور. ثم يقول وكيل القصر للسادة، بالاسم، فلان ابن فلان! ويسمي أولاً الأكثر نبلاً والأعلى شأناً باسمه، ويقول: استعدّ بهذا العدد من الخيول البيضاء، لخدمة الإمبراطور، سيّدكم الحاكم! ولسيد آخر يقول: فلان ابن فلان، استعدّ بهذا العدد من الخيول البيضاء، لخدمة الإمبراطور، سيّدكم الحاكم! والآخر كذلك أيضاً، ولكل السّادة من ذرّية الإمبراطور، واحداً تلو الآخر، حسب مرتبتهم.

وبعـد أن ينادى عليهم كلهم، يدخلون الواحد تلو الآخر، ويقدّمون الخيول البيضاء للإمبراطـور، ويمضـون في طريقهم. ثـم من بعدهم، يأتـي كل البارونـات، ويقدّمون الهدايـا أو المجوهـرات أو أشـياء أخرى، حسـب مكانتهم. ويليهم بعد ذلك، أسـاقفة ديانتهـم، ورجـال الدّيـن وغيرهـم؛ وكلٌّ منهـم يقـدّم له شـيئاً. وبعد أن يقـدّم الجميع هداياهـم للإمبراطـور، يقـوم أعظم الأسـاقفة مكانة بمباركتـه ويتلو بعـض الصّلوات الخاصة بديانتهم.

وبعدها يقدّم الموسيقيون معزوفاتهم على مختلف الآلات الموسيقية بكل الألحان التـي يعرفونها. وعندما ينهـون تقديم حرفتهم، يحضرون بين يدي الإمبراطور أسـوداً وفهوداً وحيوانات أخرى مختلفة، ونسوراً وصقوراً وطيوراً مختلفة، وأسماكاً وأفاعيَ، لتقدّم تبجيلها له. ثم يأتي المشـعوذون والسّـحرة، ويقدّمون أشياء كثيرة مذهلة؛ فمثلاً يأتون بالرّيح، وتبدو، الشّمس والقمر بادية لعيان الجميع. وبعد أن يحضروا ليلاً دامساً بحيـث لا يمكن لأي أحد أن يرى شـيئاً، يجعلون النّهار يطلع مـن جديد، نهاراً جميلاً ومشرقاً بأشعة الشّمس، ويبدو ذلك في نظر الجميع.

ثـم يعرضـون رقصات من قبل أجمل الفتيات في العالـم، بأبهى حللهن. ويُظهرون آنسات أخريات يحضرن أكواباً ذهبية معبأة بحليب حيوانات مختلفة، ويقدّمنها للسادة والسّـيدات. وبعـد ذلـك يجعلون فرسـاناً يقدّمـون مبارزات بالأسـلحة مشـوقة جداً؛ ويتراكضـون عشـوائياً، ويتعاركـون بعنف، ويكسـرون رماحهم بعنف شـديد وتتطاير شـظايا الهـراوات فـي أرجـاء القاعة. ثم يقدّمون مشـاهد صيـد لأيائل وخنازيـر برّية، وتظهـر كلاب الصّيـد تركض فاغـرة أفواهها. ومشـاهد أخرى كثيـرة يقدّمونها بفضل براعة سـحرهم، والتي من الشـائق جدّاً رؤيتها. وتسـتمرّ مشاهد اللهو تلك حتى تنعقد المجالس.

والخان الأعظم هذا لديه عدد كبير من النّاس لخدمته، كما أخبرتكم من قبل. ولديه مـن العازفيـن حوالي الثّلاثة عشـرة مجموعـة cumants، ولكنهم لا يتواجـدون دائماً معـه. لأن كل العازفين الذين يمثلون أمامه، ومهما كان أصلهم، يقيمون لديه كما أفراد

أسـرته، ويُدرجون في سـجلاته كما لو كانوا من أفراد عائلته. وبعد ذلك، أينما ذهبوا، يبقـى لقبهم موسـيقيي الخان الأعظم؛ وتحت ذلـك اللقب، يؤثرهم الملـوك والنّبلاء بالهدايا وبكل شيء. ولذلك لديه منهم عدد كبير.

ولديـه أشـخاص محددون بمثابـة الموظفين، وهـم يعتنون بالطيور مثـل النّعامات والصّقـور الكبيرة والصّغيرة والبواشـق والبُزاة والشّـواهين، والببغاوات التي تحسـن الـكلام، والطّيور المغردة، وأيضـاً الحيوانات البرّية، مثل الفيلة المروضة والسّـعادين والقرود والقرود الصّغيرة وحيوانات أخرى متنوعة؛ ويصل عددهم إلى خمسـة عشرة موظفاً.

ولديه من الأطباء المسـيحيين 200 طبيب، ومن الجرّاحين المسـيحيين 210، ومن الأطبـاء والجرّاحين المسـلمين عشـرون، ولكنه يثـق بالجراحين المسـحيين أكثر من المسـلمين. وعـدد أفراد منزله الآخريـن لا يمكن تقديره، ولوجودهـم جميعاً ضرورة والإمبراطـور بحاجـة إليهم في قصره. ولديـه في قصره الكثير مـن البارونات[1] بصفة مرافقين، وهم مسيحيون إيمانهم عميق نظراً لعظات رجال الدين المسيحيين القاطنين معه؛ ولكن يوجد آخرون كثر، لا يعرف النّاس أنهم مسيحيون.

وينفـق هـذا الإمبراطور بالقدر الذي يشـاء دونما أيّ تقييم؛ لأنـه لا ينفق ولا يصك نقـوداً، فقـط يسـتخدم الجلود المطبوعـة أو الأوراق. ولبعـض تلك النّقـود قيمة أكثر من غيرها أو أقل، حسـب اختلاف تشـريعاته. وعندما تتداول هـذه النّقود لفترة طويلة وتبـدأ بالاهتـراء، يحملونها إلى خزينـة الإمبراطور ويأخذون نقـوداً جديدة بدلاً منها. وتتـداول هـذه الأموال في كل أنحاء البلاد وكل مقاطعاته، لأنه في البلاد المحيطة بهم لا يصكّـون النّقـود ولا حتى من الذهب أو الفضـة؛ وبذلك ينفق كفايـة وبإفراط. ومن الذهـب والفضة التي يملكها النّاس في بلاده يقوم بعمل الأروقة والأعمدة والممرّات في قصره، وأشياء أخرى حسب رغبته.

---

(1) هذا لقب أوروبي، لا علاقة له ببلاط خان التّتار.

وتوجـد في غرفة هـذا الإمبراطور، على أحد الأعمدة الذهبية، ياقوتة وعقيقة بطول نصـف قـدم، تصـدر في الليـل وهجاً وألقـاً شـديداً، كضوء النّهـار. ولديـه العديد من الأحجـار الكريمة الأخـرى والكثير من الياقوت والعقيق؛ لكـن هاتين الأكبر والأثمن بينها.

يقيم الإمبراطور في الصّيف في مدينة باتجاه الشّـمال تسـمّى سادوز Saduz؛ وهي باردة بشكل لطيف. وفي الشّتاء يقيم في مدينة تسمى كاماليتشي Camaaleche، وهي بلاد دافئة. ولكنه غالباً مايقيم في بلاد غايدو Gaydo أو جونغ Jong، وهي بلاد خصبة ومعتدلة، بالنسبة إلى البلاد التي هناك، ولكن بالنسبة لأهل بلدنا تعتبر هذه البلاد حارّة جداً.

وعندمـا ينتقـل الإمبراطور من بلـد إلى آخر يعيّـن أربع فرق من جيوشـه لمرافقته، حيث تغادر الفرقة الأولى قبله بيوم. وتقيم هذه الفرقة الليلة في المكان الذي سـيصله الإمبراطور في الغد. ويحمل كل شخص منهم المؤونة اللازمة وكل احتياجاته معه، من مسـتودعات الإمبراطور. وتتألف هذه الفرقة الأولى من خمسين مجموعة، منهم على الخيـول ومنهم على الأقـدام، والمجموعة cumant تتكون مـن 10000 كما أخبرتكم من قبل. والفرقة الثّانية تسـير على يمين الإمبراطور، على مقربة مسـير نصف يوم منه. والفرقة الأخرى تسير على الجانب الأيسر للإمبراطور، كما سابقتها. وعدد الأفراد في هاتين الفرقتين يساوي عددهم في الفرقة الأولى. وبعدها تأتي الفرقة الرّابعة، وعددها أكبر من كل الفرق السّـابقة، وهي تسير خلفه على مسافة غلوة سهم. وكل فرقة تمضي فـي رحلتها وفق مواقعها المحددة، حيث سـتقيم في الليل، ويكون معهم كل ما يمكن أن يحتاجـوه. وإن حدث ومات أحد أفراد الفرقة، يضعون أحداً في مكانه فوراً، بحيث يكون العدد كاملاً دائماً.

ولعلمكـم، إن الإمبراطور، بنفسـه شـخصياً، لا يقود جواده كما يفعل كبار السّـادة خلفه، إلا إذا رغب في القيام برحلة خاصة مع مجموعة صغيرة، حتى لا يُعرف. وفيما عـدا ذلك فهـو ينطلق في عربة ذات أربع عجلات، تتوضـع فوقها حجرة جميلة، وهي

مصنوعة من خشب محدّد، يأتي من الجنّة الأرضيّة paradise terrestrial، ويطلق النّاس عليها اسم الصَّبر lignum aloes، التي تحملها الفيضانات من الجنّة في مختلف الفصول، كما أخبرتكم من قبل. وهذه الحجرة ذات رائحة جميلة جداً بسبب الخشب الذي صُنعت منه. وهي مغطاة كلياً بطبقة من الذهب الخالص المرصع بالأحجار الكريمة واللآلئ الكبيرة. وتجرها أربعة فيلة وأربعة destriers ضخمة، كلها بيضاء ويكسوها غطاء ثمين. ويسير بمحاذاة العربة أربعة أو خمسة أو ستة من كبار السّادة، يلبسون ثياباً مترفة وفخمة، ولا يسمح لأحد أن يقترب من هذه العربة باستثناء هؤلاء السّادة، أو إذا طلب الإمبراطور أن يتحدّث لأحد الأشخاص.

وفوق حجرة هذه العربة حيث يجلس الإمبراطور وضعت أربعة أو خمسة أو ستة صقور، والهدف من ذلك، أن الإمبراطور إذا رأى أيّ طائر بري فمن الممكن أن يضمّه إلى ممتلكاته، ويلهو ويستمتع بتحليقها، أولاً واحد، ثم اثنان؛ وهكذا يسلّي نفسه خلال رحلته في البلاد. ولا أحد من مرافقيه يسير أمامه، كلهم يسيرون خلفه. ولا يجرؤ أحد على الاقتراب من العربة على مسافة غلوة سهم، ما عدا هؤلاء السّادة الذين يسيرون حوله. ثم يأتي كل الجيش بعده بأعداد كبيرة.

وثمّة عربة كهذه وفرق كهذه بنفس الترتيب تسير مع الإمبراطورة بالجهة الأخرى، كل على حدة، مع أربعة فرق، كما الإمبراطور تماماً؛ ولكن ليس بعدد كبير من النّاس. وابنه يسلك طريقاً آخر مستخدماً عربة أخرى، وبنفس التفاصيل. وبذلك يكون معهم عدد كبير من النّاس ذكره مدهش حقاً. ولا يمكن لأحد أن يدرك ذلك العدد، حتى يكون قد رآه. وأحياناً يحدث ألا يريد الذهاب إلى مكان بعيد، فعندها يمكن أن يصطحب الإمبراطورة وأبناءه معه، ويمضون معاً، ويجمعون النّاس كلهم سوية، ويقسمونهم إلى أربعة فرق فقط.

ولعلمكم، إمبراطورية الخان الأعظم مقسّمة إلى اثنتي عشرة مقاطعة؛ وكل مقاطعة تضمّ أكثر من ألفي مدينة، وعدد لا يحصى من القرى. إنها بلاد كبيرة جداً، وفيها اثنا عشر ملكاً أساسياً في المقاطعات الاثنتي عشرة، وكل واحد من هؤلاء الملوك يوجد

تحتـه عـدد كبير من الملوك، وكلهـم يخضعون للخان الأعظم. وأرضـه وهيمنته تمتدّ على مسـاحات شاسـعة، ولا يمكن لامـرئ أن يصل من أحد أطرافهـا إلى الآخر، ولا حتى بالبحر ولا البرّ، فالمسـافة تصل إلى السّبع سنوات. وعبر الصّحارى في أراضيه، قد لا يجد النّاس أيّة قرية، ولكن توجد خانات تقع بالترتيب بمسافة مسير يوم، لاستقبال النّاس والخيول، حيث يجدون فيها الكثير من المؤن، وكل ما يحتاجونه في سفرهم.

وتوجـد عادة غريبة في تلك البـلاد (لكنها مفيدة)، إذا حدثت أيّة معارضة يمكن أن تسـيء إلى الإمبراطور أو تضر به بأي شـكل من الأشكال، ففوراً تصل هذه الأنباء إلى علم الإمبراطور في غضون يوم واحد، حتى وإن كانت على مسـافة ثلاثة أو أربعة أيام منه أو أكثر من ذلك. لأن سـفراءه يأخذون جمالهم العربية أو خيولهم، ويسـرعون بها إلـى أول خان موجود. وعندما يصلون ينفخون بالبـوق، وفوراً يعرف الذين في الخان أن هنـاك أنبـاءً لتحذير الإمبراطور من وجـود بعض الثّائرين ضـده. وبالحال يجهّزون رجالاً، بالسرعة الممكنة، لحمل الرّسائل، وينطلقون بالسرعة القصوى، حتى يصلون إلـى الخـان التالي مع الرّسـائل. ويقوم رجـال آخرون بالاستعداد لينطلقوا فـوراً إلى الإمبراطـور، والحامل الأخير للرسـالة يرتاح عنده هو وجملـه أو خيله. وهكذا، فمن خان إلى خان، حتى تصل إلى الإمبراطور.

وبهـذه الطّريقة فإن أيّة أنباء مسـتعجلة لدى أحد عن أيّ شـيء ذي أهمية، بواسـطة سـعاته، تعبـر بسـرعة فائقة في جميـع أنحاء البـلاد. وأيضـاً عندما يرسـل الإمبراطور مراسـليه على جناح السّـرعة في كل أرجاء أرضه، يحمل كلٌّ منهم معه عدداً كبيراً من الأجـراس الصّغيـرة، وعندما يقتربـون من الخان حيث يوجد سـعاةٌ آخـرون مكلفون برحلات، يقرعون أجراسـهم، وفوراً يسـتعد السُّـعاة الآخرون للمضيّ نحو خان آخر. وهكـذا مـن خان إلى آخر، بسـرعة فائقـة وخفة، حتى ينفّـذ أمر الإمبراطور، بالسـرعة القصوى. ويسمّى هؤلاء السّعاة *Chydydo*، حسب لغتهم والتي تعني الرّسول[1].

---

(1) كان التّتار في القرون الوسطى أفضل من اعتنى بتسيير البريد في الأقاليم، ولا ريب أنّه لعب دوراً أساسياً في انتصاراتهم العسكريّة الواسعة. حتى أنّ المشرق العربي في عصر الأيوبيين

وأيضاً عندما يذهب الإمبراطور من بلد لآخر، كما أخبرتكم آنفاً، عندما يمرّ من المدن والقرى، يقوم كل شخص بإضرام نار أمام بابه، ويضع فيها مسحوق أصماغ جيدة لتعطي رائحة عطرة، لتكون مميّزة للإمبراطور. وكل النّاس يركعون مقابله، ويقدّرونه بشدة. وهناك، حيث يقيم رجال الدين المسيحيون، كما يفعلون في مدن كثيرة في البلاد، يسيرون أمامه في موكب يحملون معهم صليباً وماء مقدّساً، وينشدون: *Veni creator spiritus!* بصوت عال، ويتجهون نحوه. وعندما يسمعهم، يأمر السّادة مرافقيه بالسير بمحاذاته، فمن الممكن أن يأتي رجال الدين إليه. وعندما يصبحون على مقربة منه، يدني قبعته galiot الموضوعة على رأسه بشكل إكليل، ومصنوعة من الذهب والحجارة الكريمة واللآلئ الكبيرة، وهي فخمة جداً، ويثمّنها النّاس بقيمة مملكة في تلك البلاد. ويركع للصليب. ثم يقوم أسقف رجال الدين بتلاوة صلوات معيّنة أمامه، ويمنحه المباركة بالصّليب؛ وينحني لتلك المباركة بخشوع تام. ثم يقدّم له الأسقف نوعاً من الفاكهة، يصل عددها إلى تسعة، على طبق من فضة، من الأجاص والتفاح، وفاكهة غيرها. ويأخذ واحدة منها. ثم يقدّمون للسادة الذين حوله. حيث أن العادة هي كذلك، لا يمكن لأي غريب أن يدنو منه، إلا إذا قدّم له شيئاً، حسبما ورد في الدّين القديم[1]:

Nemo accedat in conspectu meo vacuus.

وبعدها يقول الإمبراطور لرجال الدين، الذين يتراجعون للخلف، إنه لن يصيبهم أذى من عدد الخيول الكبير التي وراءه. وأيضاً، يقوم رجال الدين الذين يقطنون هناك بعمل الشّيء ذاته مع الإمبراطورة حين تمرّ بينهم، وكذلك لابنه الأكبر. ولكل منهما يقدمون الفاكهة.

ولعلمكم، أن النّاس الذين يتخذ منهم جيوشاً لجبة، ويحيطون به وبزوجاته وأبنائه،

والمماليك كان يصطلح على تسمية ساعي البريد بالططري. وانظر ما يرويه الرّحالة الأميركي أ. لوكر في كتابه «مع الهلال والنجم» في هذه السلسلة.

(1) يقصد بالدّين القديم اليهوديّة.

لا يقيمون معه بشكل دائم. ولكنه عندما يرغب، يرسل في طلبهم. وبعد أن ينتهوا من واجبهم، يعودون إلى بيوتهم. باستثناء أولئك الذين يقيمون في قصره لخدمته وخدمة أزواجه وأولاده ولحراسة بيته. وإن يكن غادر البعض بعد تنفيذهم مهمتهم، فلا يزال معه باستمرار في القصر 50,000 شخص من الخيالة و200,000 من المشاة، غير الموسيقيين والذين يعتنون بالحيوانات والطّيور، الذين أخبرتكم عن عددهم من قبل.

لا يوجد تحت قبّة السّماء حاكم بهذه العظمة، ولا القوة، ولا الغنى كما هو الخان الأعظم؛ ولا حتى يوحنّا الكاهن Prester John إمبراطور الهند العليا، ولا سلطان بابل، ولا إمبراطور الفرس. كل هؤلاء لا يمكن مقارنتهم بالخان الأعظم، ولا بالقوة ولا بالفخامة ولا الملكية ولا الترف؛ لأنه في كل تلك الأشياء تفوّق على كل الأمراء على الأرض. لكن الأذى الكبير كان عدم إيمانه العميق بالله. ومع ذلك فهو يستمع بسرور للكلام عن الله. ويوجد الكثيرون من المسيحيين المقيمين في بلاده، والأشخاص من أتباع ديانته يمكن أن يصبحوا مسيحيين إن رغبوا في ذلك، في كل أنحاء بلاده؛ فهو لا يمنع أحد من اتباع الدّين الذي يريد.

في تلك البلاد بعض الرّجال لديهم مئة زوجة، وبعضهم ستون، وبعضهم أكثر وبعضهم أقل. وهم يتّخذون من قريباتهم أزواجاً لهم، باستثناء أمهاتهم وبناتهم وأخواتهم من أمهاتهم، أما أخواتهم من آبائهم من امرأة أخرى غير أمهم فيمكن أن يتزوجوا منها، وأيضاً نساء إخوانهم بعد موتهم، وأمهات زوجاتهم أيضاً.

* * *

الفصل السّادس والعشرون

عن أديان وعادات التّتار القاطنين في كاثاي
وما الذي يقومون بفعله عند وفاة الإمبراطور، وكيف يتم اختياره

يرتـدي النـاس في تلك البـلاد ثياباً طويلة بلا وبـر. ويرتدون ملابـس مصنوعة من القماش التتري النّفيس، وأقمشة من الذهب. ولثيابهم شق طولي على الجانب، وتزرّر بواسـطة أشـرطة حريرية. ويلبسـون أيضاً pilches[1]، وبلا جلد؛ ولا يرتدون لا أغطية للرأس ولا قلنسوات. ولباس النّساء شبيه بلباس الرّجال، فلا يمكن التمييز بين الرّجل والمرأة، فقط النّسـوة المتزوجات يحملن إشـارة قدم الرّجل على رؤوسـهن، كدلالة على أنهن تحت قدم رجل ويخضعن له.

ولا تسـكن الزّوجـات مـع بعضهـن، بـل كل واحدة بمفردهـا؛ ويمكـن للرجل أن يضطجع مع التي تروق له منهن. ولكل منهم بيته الخاص به، الرّجال والنّساء، وبيوتهم تُعمل دائرية بالعوارض، ولها نافذة علوية تزودها بالضوء، وتساعد في تصاعد الدخان. وغمـاء بيوتهم والجدران والأبواب كلها من الخشـب. وعندما يذهبون إلى الحروب، يحملـون بيوتهـم معهـم علـى العربـات، كمـا يحمـل النّـاس الخيـام أو الصّيوانات. ويضرمون النّار في وسط بيوتهم.

ولديهـم عدد كبير مـن الحيوانات المختلفة، مـا عدا الخنازير، فليـس لديهم منها. ويؤمنون أن إلهاً واحداً خلق كل شـيء. ومـع ذلك لديهم فأصنام من الذهب والفضة،

(1) عبارة غامضة غير مفهومة.

ومن الشّجر ومن القماش. ويقدّمون لهذه الأصنام أول حليب تنتجه حيواناتهم، وأيضاً يقدّمون لها من طعامهم وشرابهم قبل أن يتناولوه. وغالباً ما يقدمون الخيول والحيوانات. ويطلقون على الإله اسم يروغا *Yroga*.

وإمبراطورهم أيضاً، مهما كان الاسم الذي يحمله، يضيفون إليه دائماً لقب الخان. وعندما كنتُ هناك[1]، كان اسم إمبراطورهم تياوت Thiaut، وكانوا يسمّونه تياوت خان. وكان اسم ابنه الأكبر توسو Tossue؛ وعندما يصبح إمبراطوراً سيسمّونه توسو خان. وفي ذلك الوقت كان لدى الإمبراطور اثنا عشر ابناً غيره، وأسماؤهم:
Cuncy, Ordii, Chadahay, Buryn, Negu, Nocab, Cadu, [Siban], Cuten, Balacy, Babylan, Garegan.

وكانت زوجاته الثّلاث: الأولى والأساسية، ابنة بريستر جون (يوحنّا الكاهن)[2]، وكانت تدعى سيريوتشِه خان Serioche-Chan، والثّانية بوراك خان Borak-Chan والثّالثة كرانكه خان Karanke-Chan.

والناس في تلك البلاد يبدأون أمورهم كافة مع ظهور القمر الجديد، وكانوا يعبدون الشّمس والقمر وغالباً يسجدون لهما. والنّاس في تلك البلاد بشكل عام يقودون الجياد بدون مهاميز، ولكنهم يحملون سوطاً صغيراً في يدهم لجعل خيولهم تسرع.

وهم يولون انتباهاً شديداً ويعتبرون رمي سكين في النّار إثماً عظيماً، أو إخراج قطعة لحم من قِدر بواسطة سكين، وأيضاً ضرب الحصان بمقبض السّوط، أو ضربه باللجام، وكسر عظمة بأخرى، ورمي الحليب أو أي سائل ممكن أن يشربه النّاس على الأرض، وأخذ أو قتل الأطفال الصّغار. والإثم الأعظم الذي يمكن أن يقترفه إنسان هو أن يتبوّل في البيت الذي يسكنه أحدهم، ومن يقترف هذا الإثم عمداً يقومون بقتله.

(1) ملاحظة مهمّة من المؤلف تتضمّن إشارة تعيّن وجوده في بلاط التّتار بمدّة محددة، وبالرجوع إلى الدّراسات الحديثة التي قام بها الباحث الياباني وادا سيه Wada Sei وعدّلها الباحثان هوندا مينوبو وأوكادا هيديهيرو، نجد اسم الخان طوغون تيمور الملقب: أوقاغاتو خان (قاغان)، حكم بين 1333-1370 م فهل هو المذكور؟

(2) الملك المسيحي الأسطوري في شمال الهند، تقدّم ذكره مراراً أعلاه.

وكل مـن يقتـرف هذه الآثام فعليه أن يعترف لكهنتهم، وأن يدفـع قدراً كبيراً من الفضة بمثابة كفارة. ومن يقوم بهذا أيضاً، فهذا المكان الذي بال فيه أحدهم يغدو محرماً، ولا يجـرؤ أحـد على الدخول إليه. وبعـد أن يكونوا قد دفعوا كفارتهـم، يجعلونهم يمرّون من خلال نار أو اثنتين، لتطهيرهم من دنسـهم. وأيضاً عندما يأتي رسـول حاملاً رسالة أو هدية للإمبراطور، يجعلونه، والشّـيء الذي يحملـه، يمرّ من خلال نارين مضرمتين لتطهيرهما، وللتأكد من أنه لا يحمل سـمّاً أو مادة سـمية، أو أي شـيء خطير ممكن أن يسـبب أذى للحاكم. وأيضاً أيّ شـخص رجـل أو امرأة وُجد في حالـة فجور أو زنى، يقتلونه فوراً. ومن يقوم بسرقة شيء، يقتلونه فوراً.

والنـاس في تلك البلاد رمـاة ويصوّبون ببراعة، رجالاً ونسـاء، وأيضاً وهـم يعتلون صهوات جيادهم، وهم منطلقون بها، كما على الأرض، وهو يركضون. وتقوم النّسـاء بـكل شـيء وكل أشـكال المهـارات والحـرف، كخياطة الثّيـاب والأحذية والأشـياء الأخـرى؛ ويقـدن العربـات وعربات الحراثـة والحقـول والمركبات، ويبنيـن البيوت ويقمن بكل الحرف، باستثناء الأقواس والسّهام التي يقوم الرّجال بصنعها. وكل النّساء يرتدين السّراويل مثل الرّجال.

وكل النّـاس فـي تلك البلاد يخضعون كلياً لأسـيادهم؛ فلا يتشـاجرون، ولا يعنّف أحدهم الآخر. ولا يوجد هناك سـارقون ولا لصوص. وكل شـخص يبجّل الآخرين، ولكنهم لا يظهرون احتراماً للغرباء، إلا إذا كانوا كبار الأمراء.

وهـم يأكلون الكلاب والأسـود والفهـود والخيـول والمهور والحميـر والجرذان والفئـران وكل أنـواع الحيوانـات، الكبيرة والصّغيرة، باسـتثناء الخنازيـر والحيوانات المحرّمـة حسـب الدين القديم. ويأكلـون الحيوانات بكاملها، مـن الخارج والداخل، ولا يرمـون منها شـيئاً، ما عـدا أقذارها. ويأكلـون الخبز بكميات قليلـة، إلا في قصور كبـار السّـادة. ولا يوجد فـي الكثير من الأماكـن، ولا البازلاء ولا الفـول ولا الخضار الأخرى، فقط حساء اللحم. ويأكلون القليل من أي شيء عدا اللحم والحساء. وعندما ينتهون من الطّعام يمسحون أيديهم بأثوابهم؛ لأنهم لا يستخدمون لا أغطية الطّاولات

ولا المناشف، إلا عند كبار السّادة؛ أما النّاس العاديون فلا يستخدمونها. وبعد أن ينتهوا من تناول الطّعام، يضعون أطباقهم بدون غسيل في قدر أو مرجل مع بقية اللحم والمرق حتى يتناولوا الطّعام ثانية.

والأثرياء يشربون حليب إناث الخيل والجمال والحمير والحيوانات الأخرى. ويشربون أحياناً الحليب ومشروباً آخر مصنوعاً من العسل والماء الممزوجين معاً؛ لأنه في تلك البلاد لا يوجد لا خمر ولا مزر ale. وهم يعيشون ببؤس، ولا يتناولون الطّعام إلا مرة واحدة في اليوم، وبكميات هزيلة، لا في القصور ولا في الأماكن الأخرى. وبالمقارنة، فإن شخصاً واحداً في هذه البلاد يأكل في اليوم أكثر ممّا يأكله الواحد منهم في ثلاثة أيام[1]. وإذا قدم أيّ رسول غريب إلى أحد السّادة، يجعلونه يأكل مرة واحد في اليوم، وبكمية صغيرة جداً.

وعندما يكونون في الحروب، يحاربون بحكمة شديدة ويقومون بعملهم دائماً، لتدمير أعدائهم. وكل شخص منهم يحمل قوسين أو ثلاثة، والكثير من السّهام، وفأساً كبيراً. والسّادة يحملون رماحاً قصيرة وطويلة وحادة جداً على جنبهم. ويحملون معهم الدروع والخوذ المصنوعة من الجلد المقسّى[2] quyrboylle. وخيولهم مغطاة بها أيضاً. والذي يفرّ من المعركة يقتلونه. وعندما يحاصرون قلعة أو حصناً ويكون مسوراً ومنيعاً، ويتعهّدون للموجودين بداخله بأن يبقوا عليهم وعلى ممتلكاتهم، ومن الجميل سماع ذلك؛ فيمنحونهم كل ما يريدونه. وبعد ذلك يستسلمون، فيقومون بقتلهم جميعهم؛ ويقطعون آذانهم وينقعونها في الخل، وبذلك يقومون بخدمة جليلة لأسيادهم. وكل ما يرغبون فيه ويتوقون إليه هو أن يضعوا كل الأراضي تحت سطوتهم. ويقولون إنهم يعرفون تماماً وفقاً لنبوءاتهم، أنهم سيغلبهم رُماة سهام ويتغلبون عليهم

---

(1) يشبه هذا الكلام تماماً ما رواه المملوك الصّارم أوزبك عندما قابل هولاكو خان عند حلب، فوصف زراية حياة التّتار وبساطته، لكنه يرى في ذلك السبب في انتصارهم على جيوش المسلمين في العراق والشام. راجع نصّه في كتاب «دمشق في مرآة رحلات القرون الوسطى» في هذه السلسلة.

(2) تُكتب العبارة اليوم في الإنكليزية: curboille.

بفضل قوتهم؛ ولكنهم لا يعرفون من أي أمة ولا ما هي ديانته أولئك الذين سيغلبونهم. ولذلك فهم يسمحون للناس من كل الأديان أن يعيشوا بسلام بينهم.

وأيضاً عندما يريدون أن يصنعوا تمثالاً أو صورة لبعض أصدقائهم ليتذكروهم، فهم يصوّرونهم عُراة تماماً دون أي ثياب. لأنهم يقولون إنه مع الحب الخالص يجب ألا يكون هناك أيّ غطاء، وأن الإنسان لا يُحَبّ بسبب حسن الهندام ولا ثراء الملبس، لكن فقط لجسده، كما خلقه الله، وللفضائل الحسنة التي وهبها الجسد من قبل الطّبيعة، وليس فقط للملابس الجميلة التي ليست من صنع الطّبيعة.

ولعلمكم، إنه من المروّع مطاردة التّتار إذا فرّوا من المعركة. لأنهم عندما يفرّون يطلقون خلفهم ويقتلون البشر والجياد كليهما. وعندما يقاتلون يضربونهم مع بعضهم بضربة واحدة؛ فإذا كان هناك 20,000 رجل، فالناس لا يعتقدون أنه سيكون هناك خسارة بمقدار 10,000. ويمكنهم كسب أراض الغرباء، لكنهم ليس بإمكانهم المحافظة عليها؛ لأنهم يحبون المكوث في الخيام أكثر من الإقامة في القلاع وفي المدن. ولا يقيمون قدراً لدهاء الأمم الأخرى.

وللزيت والزّيتون مكانة خاصة عندهم، فهم يحتفظون به لأجل الأدوية الفاخرة. وكل التّتار لديهم عيون صغيرة ولحى خفيفة، وشعرهم ليس كثيفاً لكنه مقصوص. وهم مخادعون وخونة؛ ولا يحافظون على عهودهم. وهم قوم شديدو التحمّل، كالألم الشّديد والبلاء والأمراض، أكثر من غيرهم، لأنهم تعلموا ذلك في بلادهم التي نشأوا فيها.. ولذلك، فهم لا ينفقون - كما يقال - شروى نقير.

وعندما يحتضر أحدهم، يضع النّاس رمحاً إلى جانبه. وعندما يسقط على الأرض، يهرب الجميع من منزله حتى يموت. ثم يقومون بدفنه في الحقول.

وعندما يموت الإمبراطور، يضعونه على كرسي في وسط خيمته. ويضعون طاولة نظيفة أمامه، مغطاة بقماش، وعليها اللحوم وأطعمة مختلفة وكوباً مليئاً بحليب الفرس. ويحضرون الفرس مع مهرها إلى جانبه، وحصاناً عليه سرج ولجام.

ويضعون على الحصان الذهب والفضة، وبكميات كبيرة. ويضعون حوله الكثير من القش. ويحفرون حفرة كبيرة وواسعة، ويضعونه مع الخيمة وكل الأشياء الأخرى في تلك الحفرة. ويقولون إنه عندما يعود للعالم الآخر، لن يكون بلا مأوى، ولا دون حصان أو ذهب وفضة؛ والفرس ستعطيه الحليب، وتلد له مزيداً من الجياد وبذلك يكون لديه مؤونة جيدة في العالم الآخر. لأنهم يعتقدون أنهم بعد موتهم سيأكلون ويشربون في ذلك العالم الآخر، ويتسلّون مع زوجاتهم كما في حياتهم هذه.

وبعد أن يُدفن الإمبراطور على هذه الشّاكلة، من النّادر جداً أن يذكره أحدهم أمام أصدقائه. ومع ذلك، يحدث أحياناً أن يقوموا بدفنه بصورة خاصة ليلاً في مكان بعيد، ويضعون العشب على الحفرة لينمو من جديد؛ أو يقومون بتغطيتها بالحصى والرّمل، ولا يمكن لأحد أن يعرف مكان الحفرة، بهدف ألا يتذكره أحد من أصدقائه. ويقولون إنه سُلب إلى العالم الآخر حيث هو هناك سيّد أعظم ممّا كان عليه في هذه الحياة.

وبعد وفاة الإمبراطور، تجتمع ذرّيته السّبعة مع بعضهم، ويختارون ابنه الأكبر، أو الشّخص التالي بعده الذي يحمل الدّم ذاته. ويقولون له:

إننا نرغب ونناشدك ونعينك لتكون حاكماً علينا وعلى إمبراطوريتنا.

فيجيبهم: إذا رغبتم في ذلك فإنني سأسود عليكم كحاكم لكم، وسيقوم كل منكم بما آمره به، سواء كان بالبقاء أو الرّحيل؛ وأيّما أحد أمرتُ بقتله فسيقتل حالاً.

فيجيبون جميعهم وبصوت واحد: كل ما تأمر به سينفذ فوراً.

عندها يقول الإمبراطور: فاعلموا جيداً، أنه من الآن فصاعداً ستكون كلمتي حادّة وماضية كحدّ السّيف.

بعد ذلك، يُجلسه النّاس على جواد أسود ويمضون به إلى كرسي مزيّن بترف بالغ، حيث يتوّجونه هناك. ثم ترسل له كل المدن والقرى الهدايا الثّمينة. وفي يوم واحد

يكـون لديه أكثر من سـتين عربة مشـبعة بالذهب والفضة، عدا عـن الجواهر من ذهب وأحجار كريمة، التي يرسـلها السّـادة، والتي لا يمكن تقديرها، وأيضاً هذا غير الخيول والأقمشـة الذهبية الكمخة camakas والقماش التتـري (الطرطان) tartarins التي لا تحصى.

* * *

الفصل السّابع والعشرون

عن مملكة Tharse والبلاد والممالك حوالي أجزاء الشمال نزولاً من بلاد كاثاي

بـلاد كاثـاي هذه تقع في آسـيا القصـوى the deep؛ وتليها، في هذا النّصف، آسـيا الكبرى the more. وبالتوجّه غرباً من مملكة كاثاي تقع مملكة[1] Tharse، والتي منها كان أحد الملوك الذين أتوا ليقدّموا الهدايا لسيّدنا المسيح في بيت لحم. وكان من ذرية ذلك الملك بعض المسيحيين. وفي Tharse لا يأكلون اللحوم، ولا يشربون الخمر.

وفـي هذا النّصف، باتجاه الغرب، تقع مملكة تركسـتان، الممتدّة غرباً حتى مملكة فـارس، وباتجاه الشّـمال إلى مملكة خراسـان. ولا يوجد في بلاد تركسـتان إلا بعض المـدن الخصبة، ولكن أفضل مدينة في تلك البلاد تسـمّى أوكتـورار Octorar. وفيها مـراعٍ واسـعة، والقليـل من الحبـوب؛ لذلـك، فمعظمهم رعـاة، ويقيمون فـي الخيام ويشربون شراب المزر ale المصنوع من العسل.

وتليهـا في هذا النّصف مملكة خُراسـان، وهي بلاد جميلة ووافـرة، ولا يوجد فيها

(1) التسمية غريبة، ولكنني أعتقد أنه يعني بها مملكة تتارستان قازان، التي قطنها بين القرنين الحادي عشر والسادس عشر عشائر تترية عديدة في ما يتبع الآن أراضي روسيا وكازاخستان. وكان يقطن تلك المناطق قوم بلغار الڤولغا الذين نزلوا بضفاف نهر الڤولغا في القرن الثامن ودخلوا في الإسلام عام 922 م خلال بعثة الرّحّالة العربي أحمد بن فضلان موفد الخليفة المقتدر بالله العبّاسي. وبعد الغزو المغولي لأوروبا بدءاً من عام 1241 م انهارت دولة بلغار الڤولغا الإسلامية وألحقت أراضيها بإمبراطويّة القبيلة الذهبيّة (مغول الشمال).

الخمور. وفيها صحراء باتجاه الشّرق تمتدّ على مسافة مسير أكثر من مئة يوم. وأفضل مدينة في تلك المملكة تسمى خُراسان، وتحمل البلاد اسم هذه المدينة. وسكان تلك البلاد محاربون أشداء.

وفي هذا النّصف تقع مملكة كومانيا Comania، ومنها الكومانيون[1] الذي كانوا يقطنون في اليونان في زمن ما وتم طردهم منها. وهي من أعظم الممالك في العالم، ولكنها ليست مأهولة بشكل كامل. حيث يوجد في جزء منها برد قارس ولا يمكن لأحد أن يعيش هناك؛ وفي جزء آخر يوجد حرّ شديد لا يمكن لأحد تحمله، ويوجد أيضاً الكثير من الذباب، ولا يعرف المرء على أي جنب يستدير. وفيها عرائش صغيرة ولا توجد أشجار تحمل الفاكهة والأشياء الأخرى. ويعيشون في الخيام؛ ويشعلون روث الحيوانات بدلاً من الحطب. وتمتد هذه المملكة باتجاهنا وباتجاه پروسيا وروسيا.

ويجري في تلك البلاد نهر يسمّى إتيل[2] Ethille وهو من أكبر الأنهار في العالم. وتجمّد بشدة على مر السّنين وحدث أن وقع قتال على الجليد وبجيوش كبيرة، وكان الطّرفان على الأقدام، وأقصيت جيادهم لبعض الوقت، ومجموع المقاتلين على الجياد وعلى الأقدام يناهز 200,000 شخص في كل طرف.

وتقع في المنطقة الممتدة بين هذا النّهر والبحر الكبير، الذي يسمّونه بحر مورِه[3] Maure، كل هذه الممالك. وباتجاه الرّأس، الأدنى، في تلك المنطقة يوجد جبل تشوتاز Chotaz، الجبل الأعلى في العالم، ويقع بين بحر مورِه وبحر قزوين Caspian. ويوجد ممرّ ضيق وخطير يؤدي إلى الهند. وهناك أقام الملك الإسكندر مدينة قوية، تسمّى الإسكندرية، وذلك حتى لا يعبر أحد من تلك البلاد دون إذنه. والآن يطلقون

(1) شعب الكومان قوم رُحّل من الأرومة التركيّة في سهوب آسيا الوسطى يؤلفون الفرع الغربي من حلف الكومان والقپچاق. بعد الغزو التّتري عام 1237 م التجأوا إلى هنغاريا ثم بلغاريا.

(2) إتيل أو إتل هو الاسم التركي القديم لنهر الڤولغا. وفي التّتريّة يسمّى إديل.

(3) العبارة في اللغات السّلاڤيّة تعني البحر، والمقصود: البحر الأسود، الذي يسمّى في اللغات السّلاڤيّة: تشورنَيه مورِه Чёрное Море.

على هذه المدينة اسم بوّابة جهنم Gate of Hell.

والمدينة الرّئيسية في كومانيا تسمى ساراك Sarak. وهي واحدة من الطّرق الثّلاثة المؤدية إلى الهند. ولكن من هذا الطّريق، لا يمكن العبور لعدد كبير من النّاس، إلا في الشّتاء. ويسمّون هذا المعبر ديربنت Derbent. والطّريق الثّاني يكون بالذهاب من مدينة تركستان عبر فارس، وفي هذا الطّريق مسير عدة أيام عبر الصّحراء. والطّريق الثّالث هو ذاك القادم من كومانيا ذهاباً إلى البحر الكبير وعبر مملكة الأبخاز Abchaz.

ولعلمكم، فإن كل هذه الممالك وهذه البلاد المذكورة أعلاه حتى پروسيا وروسيا جميعها تحت سيطرة خان كاثاي الأعظم[1]، بالإضافة إلى الكثير من البلاد على السّواحل الأخرى. حيث نفوذه وسيادته عظيمة جداً وقوية.

* * *

(1) يشير ماندڤيل إلى سلالة مملكة التّتار في الصّين، ونصوصه كما أراها تدلّ على أصالة ورؤية ثاقبة في الجمع إن لم نقل في الاطلاع ورؤية العين كرحّالة صادق أصيل. ولا ريب أنني سأعود إن شاءالله إلى دراسة كتابه هذا بتوسع أكبر، بالإضافة إلى بحث يتصل به، وهو رسالة رحّالتنا الكبير أحمد بن فضلان في الرّحلة إلى بلاد البلغار والتّرك والرّوس والصّقالبة.

الفصل الثامن والعشرون

إمبراطور فارس، وعن أرض الظلام والممالك الأخرى التابعة لخان كاثاي الأعظم وأراضيه الأخرى، حتى بحر اليونان

الآن، وبعد أن أخبرتكم عن البلاد والممالك الواقعة باتجاه الشمال Septentrionals نزولاً من أرض كاثاي حتى بلاد المسيحيين، باتجاه پروسيا وروسيا، سأخبركم الآن عن بلاد أخرى وعن الممالك الوقعة نزولاً على السّواحل الأخرى، باتجاه اليمين، حتى بحر اليونان، باتجاه أرض المسيحيين. فبعد الهند وكاثاي فإن إمبراطور الفرس أكبر حاكم، ولذلك سأخبركم عن مملكة فارس.

أولاً، لديه مملكتان، الأولى تبدأ من الشّرق باتجاه مملكة تركستان، وتمتد غرباً حتى نهر پيسون[1] Pison، وهو واحد من أربعة أنهار تنبع من الجنة. وعلى جانب آخر تمتدّ باتجاه الشمال Septentrion حتى بحر قزوين Caspian؛ وأيضاً باتجاه الجنوب حتى صحراء الهند. وهذه البلاد خصبة وسهلية وفيها الكثير من النّاس. وفيها الكثير من المدن الخصبة. ولكن المدينتين الرّئيسيتين فيها مدينة بويتورا Boyturra ومدينة سيورنيرغانت Seornergant، والبعض يسمّونها سورماغانت Sormagnat.

(1) هكذا في الأصل، والمقصود: نهر سيحون، وكان يسمّى قديماً نهر بلخ، واسمه حالياً نهر أموداريا ويوجد في جمهوريّة أوزبكستان. وهو النهر الذي تُنسب إليه تسمية: بلدان ما وراء النّهر، التي شاعت لدى مؤرخينا وجغرافيينا العرب إبّان الفتوحات الإسلاميّة.

والمملكة الثّانية في فارس تمتد باتجاه نهر پيسون وأجزاء من الغرب حتى مملكة ميديا Media، ومن أرمينيا الكبرى باتجاه الشمال Septentrion وبحر قزوين Caspian وباتجاه الجنوب إلى أرض الهند. وهي أيضاً أرض خصبة ووفيرة، وفيها ثلاث مدن رئيسية: ميسابور[1] Messabor وصافون[2] Saphon وسارماسان[3] Sarmassan.

ثم تأتي أرمينيا، وكان فيها أربع ممالك؛ وهي بلاد فخمة وفيها كل شيء. وهي تبدأ في فارس وتمتدّ طولاً باتجاه الغرب حتى تركية. وعرضاً تصل Dureth إلى مدينة الإسكندرية، والتي تسمى الآن بوابة جهنم، التي تحدثت عنها سابقاً، تحت مملكة ميديا. وفي أرمينيا هذه الكثير من المدن الخصبة، ولكن مدينة توريز (تبريز) Taurizo هي الأكثر شهرة.

وبعدها مملكة ميديا، وهي طويلة جداً ولكن ليست عريضة، وتبدأ شرق أرض فارس إلى الهند الصّغرى the less؛ وتمتدّ غرباً، باتجاه مملكة الكلدانيين وباتجاه الشمال Septentrion، نزولاً إلى أرمينيا الصّغرى. وفي مملكة ميديا تلك يوجد الكثير من التلال والقليل من الأراضي السّهلية. وهناك يعيش المسلمون وأقوام أخرى، يُطلق عليهم اسم الأكراد Cordynes. وأهمّ مدينتين في تلك المملكة هما ساراس[4] Sarras وقرمان Karemen.

وبعد ذلك مملكة جورجيا، التي تبدأ شرقي جبل عظيم يسمّى أبزور Abzor، حيث يعيش أقوام من أمم مختلفة. ويطلق على هذه البلاد اسم ألامو Alamo. وتمتدّ هذه المملكة باتجاه تركية والبحر الكبير، وجنوباً حتى أرمينيا الكبرى. وفي هذه البلاد توجد مملكتان: الأولى مملكة جورجيا، والثّانية مملكة الأبخاز Abchaz. ويوجد دائماً في تلك البلاد ملكان؛ وكلاهما مسيحيان. ولكن ملك جورجيا يخضع للخان

(1) من الواضح أن المقصود: نيسابور.
(2) من الواضح أن المقصود: أصفهان.
(3) لا أدري ما المقصود، ولعله يعني: كرمان؟
(4) هل يقصد سيواس مثلاً؟ لكنها تقع بعيداً إلى الشرق.

الأعظـم. وملك الأبخاز لديه دولة أقـوى، وهو يدافع عن بلاده بقوة ضد أولئك الذين يغيرون عليه، ولذلك لا يمكن لأحد أن يجعله خاضعاً له.

وفـي مملكة الأبخـاز أمر مدهش جداً. يوجد مقاطعة تقع فـي البلاد ويبلغ محيطها مسير ثلاثـة أيام، وتسـمى هانيسـون Hanyson، يغطيها الظلام، دونما أي سـطوع أو ضـوء؛ ولا يمكـن لأحد أن يرى أو يسـمع، ولا يجـرؤ أحد على دخولهـا. ومع ذلك، يقول النّاس في تلك البلاد، إنّ أناسـاً في زمن ما سمعوا أصوات بشر، وصهيل خيول، وصياح ديكة. وهم يعتقدون بشـدة أن أناسـاً يعيشون هناك، ولكنهم لا يعرفون أي نوع من النّاس هم. ويقولون، إن هذا الظلام حدث بمعجزة من الله، لأن إمبراطوراً ملعوناً من فارس، وكان يدعى قورش Saures، طارد كل المسيحيين ليهلكهم وليجبرهم على تقديم القرابين لأوثانه، وانطلق بجيش كبير، بأقصى ما أمكنه، ليدحض المسيحيين.

وفي تلك البلاد كان يقطن الكثير من المسـيحيين الصّالحين، الذين تركوا أشياءهم وفـروا إلـى اليونـان. وعندمـا وصلوا إلى سـهل يدعـى ماغـون Magon، لاقاهم هذا الإمبراطـور الملعون مع جيشـه ليقتلهم ويقطعهـم إرباً. وفوراً ركع المسـيحيون على الأرض، وصلوا الله ليسـاعدهم. وحالاً جـاءت غيمة كبيرة وكثيفة وغطت الإمبراطور وجيشـه كلـه. واحتُجزوا بتلك الطّريقـة ولم يتمكنوا من الخروج منهـا ولا بأي اتجاه؛ وسـيبقون محتجزيـن في تلك الظلمة إلى يوم القيامـة، بمعجزة من الله. وبعدها ذهب المسـيحيون إلـى حيث رغبـوا، إلى حيث يحلو لهـم، دون أي عائق مـن أي مخلوق، وبقي أعداؤهم محتجزين وملعونين في الظلمة، دون أي مساعدة.

وعن هذا يمكن القول مع داود:

A Domino factum est istud; & est mirabile in oculis nostris.

وكانت تلك معجزة كبيرة من الله لأجلهم. لذلك أعتقد أنه يتوجب على المسيحيين أن يكونـوا أكثـر إخلاصاً في عبادة إلهنا الرّب أكثر من أيّـة طائفة أخرى. لأنه بدون أي مبالغة، لو لم يكن هناك لعن وإثم على المسيحيين، لكانوا أسياد العالم بأسره. لأن راية يسـوع المسـيح مرفوعة دوماً، وعلى أهبة الاسـتعداد وبكل الاتجاهـات لنصرة أتباعه

المخلصيـن. لدرجة أن مسـيحياً واحـداً صالحاً لديه عقيدة راسـخة يمكـن أن يتغلب ويطارد ألفاً من الكفار الملعونين، كما قال داود في الزّبور:

Quoniam persequebatur unus mills, & duo fugarent decem milia; et cadent a latere tuo mille, & decem milia a dextris tuis.

وكيف يمكن لواحد أن يطارد ألفاً، فإن داود بنفسه قال التالي:

Quia manus Domini fecit haec omnia.

وإلهنا بنفسه قال، على لسان نبيه:

Si in viis meis ambulaveritis, super tribulantes vos misissem manum meam

وبذلك يمكننا أن نرى بوضوح أنه عندما نكون صالحين لا يمكن لأي عدوّ أن يقف في وجهنا.

وأيضـاً لعلمكم، أنه فـي إمبراطوريتي جورجيا، والأبخـاز وأرمينيا الصّغرى يوجد مسـيحيون صالحـون ومخلصون. لأنهم يعترفـون بخطاياهم ويتطهـرون دائماً مرة أو مرتين أسبوعياً. والكثير منهم يتطهّر يومياً؛ وهذا ما لا نقوم به في هذا النّصف، وبالرغم من أن القدّيس بولس أمر بذلك، قائلاً:

Omnibus diebus dominicis ad communicandum hortor

وهم يحافظون على ذلك الأمر، بينما نحن لا نقوم بذلك.

ومن ثم، في هذا النّصف، توجد تركية، التي تصل إلى أرمينيا الكبرى. وفيها الكثير من المقاطعات، مثل كاپادوقيا Cappadocia، ساور Saure، بريك Brique، كيسيتون Quesiton، پيتـان Pytan، وغيميتِـه Gemeteh. وفـي كل منها يوجد الكثير من المدن الخصبـة. وتمتـد تركية هـذه إلى مدينـة سـاخالا Sachala الواقعة على بحـر اليونان، وتصـل إلى سـوريا. وسـوريا بلد كبيـر وخصب، كمـا أخبرتكم من قبـل. وفيها أيضاً، فـي أعلاهـا باتجاه الهنـد، مملكة كلدانية، والتـي تمتد من جبال كلدان باتجاه الشّـرق حتى مدينة نينوى Nineveh، الواقعة على نهر دجلة؛ وعرضياً فهي تبدأ باتجاه الشّمال

من مدينة ماراغا[1] Maraga؛ وتمتدّ جنوباً إلى المحيط. وهي بلاد سهلية، فيها بعض الهضاب وبعض الأنهار.

وبعدها مملكة الرّافدين Mesopotamia، التي تمتدّ شرقاً من منبع نهر دجلة، إلى مدينة تدعى الموصل؛ وغرباً من منبع نهر الفرات إلى مدينة رويانز Roianz؛ وطولياً من جبال أرمينيا إلى صحراء الهند الصّغرى. وهي بلاد خصبة وسهلية، لكن فيها بعض الأنهار. ويوجد جبلان فقط في تلك البلاد، ويسّمى أحدهما سيمار Symar والثّاني ليسون Lyson. وتحاذي هذه البلد مملكة كلدان.

ولكن يوجد باتجاه أجزاء من الجنوب Meridionals بلاد ومناطق كثيرة، مثل إثيوبيا، الممتدة شرقاً من الصّحراء الكبرى إلى مملكة نوبيا Nubia غرباً، وجنوباً من مملكة موريتانيا حتى البحر الأحمر شمالاً.

وبعد ذلك موريتانيا، الممتدة من جبال إثيوبيا وحتى ليبيا العليا. وتقع تلك البلاد على طول البحر المحيط جنوباً؛ وشمالاً تحاذي نوبيا وليبيا العليا. (الناس في نوبيا مسيحيون). وتمتدّ من الأراضي المذكورة أعلاه حتى صحراء مصر، وهذه مصر التي تحدثت عنها من قبل.

وبعدها ليبيا العليا وليبيا الدنيا، نزولاً باتجاه بحر إسپانيا الكبير، حيث يوجد ممالك كثيرة في تلك البلاد والكثير من الأمم المختلفة.

وهكذا أكون قد أخبرتكم عن الكثير من البلاد في هذا النّصف من مملكة كاثاي، والكثير منها تابع للخان الأعظم.

* * *

(1) أظن المقصود بها: مرعش.

الفصل التاسع والعشرون

عن البلاد والجزر الواقعة خلف أرض كاثاي
وعن الثّمار الموجودة هناك
وعن الاثنين وعشرين ملكاً المحبوسين في الجبال

والآن سأخبركم، بإيجاز، عن البلاد والجزر الواقعة خلف البلاد التي حدّثتكم عنها.

وأخبركم أنه مروراً ببلاد كاثاي باتجاه الهند العليا وباتجاه بخاريا[1] Bacharia، يمرّ الرّجال بمملكة تسمى Caldilhe، وهي بلاد رائعة.

وفيها تنمو ثمار تشبه ثمار القرع. وعندما تنضج يقسمها النّاس نصفين، ويجدون فيها حيواناً صغيراً، من لحم وعظم ودم، كأنه حَمَل صغير بلا صوف[2]. وهم يأكلون الثّمرة والحيوان كليهما. وهو أمر مدهش جداً، فكل الثّمار التي أكلتها، بالرغم من كونها رائعة جداً، فمن هذه عرفتُ كم أنّ الله مدهش بخلقه. ومع ذلك، فقد أخبرتهم عن معجزة كتلك التي عندهم، موجودة عندنا هي Bernakes. وأخبرتهم أنه في بلادنا يوجد أشجار تحمل ثماراً تتحوّل إلى عصافير وتطير، والتي تسقط في الماء تعيش، والتي تقع على الأرض تموت فوراً، وتكون صالحة كطعام للإنسان. وبالرغم من وجود معجزة عظيمة لديهم، فإنّ بعضهم أعتقد أن ذلك أمر من المستحيل أن يحدث.

---

(1) هل يعني بُخارى في أوزبكستان؟

(2) أما هذه فكذبة ثقيلة جداً.

وفي تلك البلاد تفاح طويل ذو مذاق طيب[1]، ويوجد منه أكثر من مئة في العنقود، ومثلها في الآخر؛ وله أوراق طويلة وكبيرة، بطول قدمين أو أكثر. وفي تلك البلاد، وفي بلاد أخرى في جوارها، ينمو الكثير من الأشجار التي تحمل كبش القرنفل clove-gylofres وجوزة الطّيب، وجوز الهند الكبير، والقرفة والكثير من التوابل الأخرى. ويوجد كروم تحمل عنباً كبيراً، حيث يتطلب من الرّجل القوي أن يبذل جهداً لا بأس به لحمل عنقود واحد من العنب.

وفي تلك المنطقة تقع جبال قزوين Caspian التي تسمى في تلك البلاد Uber. وبين هذه الجبال حُبس اليهود من الأسباط العشرة، الذين يسمّيهم النّاس يأجوج ومأجوج Goth and Magoth ولا يُسمح لهم بالخروج من أي جهة. حُبس هناك اثنا عشر ملكاً مع شعوبهم، الذين كانوا يقيمون بين جبال سكيثيا Scythia. وطاردهم الملك الإسكندر حتى هذه الجبال، وفكر أن يحبسهم هناك بواسطة عمل رجاله. وعندما رأى أنه من الممكن ألا يتمكن من فعل ذلك، ولا أن يصل إلى نهاية، صلّى إلى رب الطّبيعة لأن ينجز ما بدأ بفعله. وكان ذلك، وبالرغم من كونه وثنياً paynim ولا يستحق أن يستجاب له، ولكن بفضل رحمة الله أطبق الجبال سوية، وبذلك كل من كان هناك احتُجز وحبس بالجبال العالية التي تحيط بهم، فقط من جهة واحدة، حيث يقع بحر قزوين Caspian.

والآن من الممكن أن يتساءل البعض، بما أن البحر في تلك الجهة المفتوحة، لماذا لم يخرجوا من جهة البحر تلك، ويذهبوا إلى حيث أرادوا؟

رداً على هذا السّؤال، أجيبكم أن بحر قزوين Caspian يمتد من اليابسة تحت الجبال، ويجري في الصّحراء في إحدى جهات البلاد، وبعد أن يمتدّ إلى نهايات فارس، وبالرغم من أنه يسمّى بحراً، فهو ليس ببحر، ولا يتصل بأيّة بحور أخرى، فهو بحيرة، أكبر بحيرة في العالم؛ وبالرغم من أنهم سيبحرون في ذلك البحر، لن يعرفوا أبداً أين سيصلون؛ وأيضاً ليس لديهم لغة سوى لغتهم الخاصة بهم، التي لا يعرفها

(1) من الواضح أنه يعني الموز، وكان رحّالو أوروبا في القرون الوسطى يسمّونه: تين آدم.

أحد غيرهم؛ لذلك فهم لن يغادروا.

ولعلمكم، فإن اليهود ليس لديهم أرض خاصة بهم ليعيشوا فيها، في كل العالم، إلا تلك الأرض الواقعة بين الجبال. وقد تنازلوا عن تلك الأرض إلى ملكة الأمازون احتراماً لها، التي جعلتهم يبقون محتجزين بإتقان شديد، فلن يغادروا بأي اتجاه إلا إلى ساحل أرضهم؛ لأن بلادهم بمحاذاة هذه الجبال.

وغالباً ما كان يحدث، أن يتسلق بعض اليهود الجبال ويهوون إلى الأودية. ولكن الكثير منهم لا يقومون بهذا، لأن الجبال عالية جداً وشديدة الانحدار، لذلك عليهم البقاء هناك رغماً عنهم. لأنهم من الممكن ألا يخرجوا، ولكن ثمّة منفذاً صغيراً تم عمله بفضل قوة الرّجال، وهو بطول أربعة أميال.

وكل الأراضي التي تليها هي صحراء، ولا يمكن أن يجد النّاس الماء، لا بالحفر ولا بأيّة وسيلة أخرى. لذلك لا يعيش النّاس في تلك المناطق، ولهذا فهي مليئة بالتنانين، والأفاعي والحيوانات الأخرى السّامة، ولا يجرؤ أحد على المرور بها، إلا في الشّتاء القارس. ويطلق النّاس على ذلك الممرّ الضيق اسم كليرون Clyron. وهذا الممر الذي تحتفظ به ملكة الأمازون. وبالرغم من أنه أحياناً ما يحدث ويحالف الحظ أحداً منهم بالخروج، فليس لديهم أيّة لغة سوى العبرية، ولذلك لا يمكنهم الكلام مع النّاس.

ومع ذلك، يقول النّاس إنهم سوف يخرجون في زمن المسيح الدَّجّال anti-Christ، وسيقومون بمذابح كبيرة في حق المسيحيين. لذلك فإن اليهود حيثما وُجدوا يتعلّمون اللغة العبرية، على أمل، أن يخرج اليهود الآخرون، وبذلك يفهمون كلامهم، ويدلّونهم على النّصارى ليقوموا بإهلاك المسيحيين. لأن اليهود يقولون إنهم يعرفون تماماً بفضل نبوءتهم، أن أولئك الموجودون في قزوين Caspia سيخرجون، وينتشرون بكل العالم، وسيكون المسيحيون تحت سيطرتهم، بقدرالمدّة التي كانوا هم فيها خاضعين لسيطرتهم.

وستعرفون كيف سيجدون طريقهم، وبعد أن تسمعوا ما سأخبركم به.

ففي زمن المسيح الدَّجّال anti-Christ سيجد ثعلب طريقه، ويقوم بحفر جحر حيث جعل الملك الإسكندر البوابات؛ وسيحفر ويخترق عميقاً في الأرض، حتى يصل إلى هؤلاء القوم. وعندما يرون الثّعلب، سيكون مصدر دهشة كبيرة بالنسبة لهم، لأنهم لم يروا من قبل هذا الحيوان. حيث أن كل الحيوانات الأخرى حُبست معهم باستثناء الثّعلب. ثم سيقومون بملاحقته وتعقّبه بدقة، حتى يرجع من المكان الذي جاء منه. فيقومون بالحفر بقوة، حتى يجدوا البوابات التي قام الملك الإسكندر ببنائها بالحجارة الكبيرة، ومدخل ضخم، وهي مثبتة بإحكام ومصنوعة بمتانة ببراعة. وستتكسّر هذه البوابات، ويخرجون بإيجادهم ذلك الشّيء.

ومن تلك البلاد اتجه الرّجال إلى أرض بخاريا Bacharia، حيث يقطنها أناس أشرار جداً ومتوحشون. وفي تلك البلد يوجد أشجار تنتج الصّوف، كما لو كان من الخراف[1]، ويصنع منها النّاس الثّياب وكل ما يمكن صنعه من الصّوف.

ويوجد في تلك البلد الكثير من أفراس النّهر hippotaynes التي تعيش أحياناً في الماء وأحياناً على اليابسة. ونصفها إنسان ونصفها حصان، كما قلت من قبل. وهي تأكل البشر عندما تمسك بهم[2].

وهناك أنهار الماء فيها مرّ جداً، ثلاثة أضعاف مياه البحر.

وفيها الكثير من حيوان الغرفين[3] griffins، أكثر بكثير من أي بلد آخر. بعضهم يقول إن جسده في القسم العلوي جسم نسر والقسم السّفي جسم أسد؛ ويقولون ذلك

(1) لا أظنه يعني القطن هنا، ففي الفصل 31 يذكره بصراحة.

(2) ليس هذا بصحيح، ففرس النهر ليس من آكلات اللحوم carnivori بل هو حيوان عاشب، لكنه يهاجم من يتعدّى منطقته ويقطعه نصفين بفكه القوي وأضراسه الضخمة، وخاصة التّماسيح التي يخشى منها على صغاره.

(3) عدنا إلى الأساطير العجيبة من نسج الخيال، ويبدو أنه وجدها ضرورية لزيادة تشويق القارئ ودفعه إلى متابعة القراءة.

حقيقة، وأن شـكله كذلك. ولكن غرفيناً واحداً له جسد وقوة أكثر من ثمانية أسود، في القسـم الذي يشبه الأسـد، وأيضاً له جسـم أضخم وأقوى من مئة نسر من هذه النّسور التـي نعرفهـا. وغرفين واحد يمكنه أن يحمل، ويطير إلى عشـه، حصاناً كبيراً إن وجده مناسـباً، أو ثوريـن مربوطيـن مع بعضهما كمـا في وضعها أثنـاء الحراثة. حيـث أنّ له مخالـب طويلـة وكبيـرة في قدميـه، كما لو كانت قـرون ثور ضخم أو أبواقـاً من قرون البقـر، والنّاس يصنعون منها أكواباً ويشـربون بها. ومن أضلاعهـا وأجنحتها يصنعون أقواساً، متينة جداً، لرمي السّهام والسّهام مربعة الرّأس quarrels.

ومن هناك ينطلق الرّجال عبر أرض يوحنّا الكاهن (پريسـتر جون Prester John، إمبراطور الهند العظيم. ويطلقون على مملكته اسم جزيرة Pentexoire.

* * *

الفصل الثّلاثون

عن الممتلكات الملكية للكاهن يوحنّا
وعن الرّجل الثّري الذي أقام قلعة رائعة سمّاها الجنة؛ وعن دهائه

هـذا الإمبراطـور، يوحنّا الكاهن[1] (پريسـتر جـون) Prester John، يملك أراضيَ واسـعة جداً، ولديه الكثير من المدن الجليلة والقرى الخصبة في مملكته، والكثير من الجـزر الكبيرة والمتنوعة. لأن بلاد الهند بكاملها تجزأت إلى جزر بسـبب الفيضانات الهائلـة التي جاءت من الجنة، وتركت البلاد مقسـمة إلى أجـزاء كثيرة. وأفضل المدن في جزيرة Pentexoire هي نيسِه Nyse، وهي مدينة ملكية وفخمة، ومترفة جداً.

ويوحنّا الكاهن هذا لديه تحت سطوته الكثير من الملوك والجزر والكثير من الأقوام المختلفـة من أصول متنوعة. وهذه الأرض خصبة جداً وغنية، ولكن ليس بغنى أرض الخان الأعظم. لأن التجار لا يأتون بشكل دائم إليها لشراء البضائع، كما هو الحال في

(1) يوحنّا الكاهن ملك مسيحي أسطوري، يُزعم أنه كان يحكم آسيا الوسطى أو إثيوپيا في القرون الوسطى. ترجع هذه الحكاية الأسطوريّة إلى القرن الثاني عشر الميلادي، ويُعتقد أنها وضعت من قبل الصليبيين المعزولين عن بلادهم في المشرق، وكانوا يرتقبون أي دعم من تلك الأراضي الغامضة في آسيا. وظلّ رحّالو الغرب، وأولهم ماركو پولو، يبحثون عن بلاد هذا الملك الأسطوري دون جدوى. ويُعتقد أنّ أصل نسبة هذا الملك تعود غالباً إلى بعض الغزاة المغول الذين أفاد الصليبيّون من غزواتهم في المشرق الإسلامي، فربما حرّف بعض النّساطرة الحكاية على هذا النحو. لكن التفاصيل المغرقة التي يقدّمها عنه ماندڤيل هنا، تدلّ على أنه لا يتوانى عن اللجوء إلى الخيال والنقل لوصف شيء لا وجود له أصلاً.

بلاد الخان الأعظم، كونها بعيدة جداً للسـفر إليها. وفي ذلك الجزء الآخر، في جزيرة كاثاي، يجد النّاس كل ما يطلبونه: أقمشة من الذهب ومن الحرير، والتوابل وكل أنواع الأوزان. لذلـك، إن لم يجدوا الأسـعار أرخـص بكثير في جزيرة يوحنّـا الكاهن، فلن يجازفوا بالطريق الطّويل والأخطار الهائلة في البحار في هذه الأجزاء.

لأنه في أماكن كثيرة في البحر يوجد صخور كبيرة من الأدَمنت adamant، التي لها خاصية جذب المعادن إليها. لذلك فلا يعبرون بأيّة سـفينة فيها عقد ومسـامير معدنية. وإن فعلـوا ذلك، فإن صخور الأدَمنت adamant سـتجذبهم إليها فـوراً، ولن يتمكنوا مـن التحرر منها. أنا بنفسـي رأيت مـن البعيد في ذلك البحـر، وكأن جزيرة كبيرة مليئة بالأشـجار، والأدغال المليئة بالأشـواك والأغصان الشّـائكة، بكميات كبيرة. وأخبرنا البحـارة أن كل ذلك كان سـفناً جُذبت إلى هناك من قبـل صخور الأدَمنت adamant، لوجـود الحديد فيها. وبسـبب العفونة والأشـياء الأخرى التي حدثت داخل السّـفينة، نشأت هذه الدّغلة، والأشواك والأغصان الشّوكية والأعشاب الخضراء، وأشياء كهذه؛ ومن الصّواري والأشـرعة؛ فتبدو وكأنها غابة كبيرة أو أيكة. وتنتشر مثل هذه الصّخور كثيراً في ذلك الجوار. لذلك لا يجرؤ التجّار على العبور إلا إذا كانوا على معرفة كاملة بالممرّات، أو إذا كان معهم مرشدون أكفياء.

وأيضاً فهم يخشـون الطّريق الطّويل. لذلك يذهبون إلى كاثاي، لكونها أقرب. ومع ذلـك فهي ليسـت قريبة جداً، وعليهم السّـفر بالبرّ وبالبحر، لمدة أحد عشـر شـهراً أو اثني عشـر، من جنوة Genoa أو من البندقيـة. أو قدوماً إلى كاثاي. ولكن أرض يوحنّا الكاهن هي أكثر بعداً بأيام سفر مرعبة كثيرة.

ويمرّ التجار عبر بلاد فارس، ويذهبون إلى مدينة تسـمى هُرمُز Hermes، لأن هرمز هو الفيلسـوف الذي أسسـها. وبعد ذلك يعبرون لساناً بحرياً، ويصلون إلى مدينة أخرى تدعى Golbache. وهنـاك يجـدون البضائـع، طيـور الأخيل، بأعـداد كثيرة كما توجـد هنا طيور الإوز. وإن أبحروا أبعد، فمن الممكن أن يمضوا بأمان كافٍ. وفي تلك البلاد يوجد القليل من القمح والشّعير، لذلك فهم يأكلون الأرزّ والعسل والحليب والجبن والفاكهة.

وهـذا الإمبراطور يوحنّا الكاهن دائماً يتزوّج مـن ابنة الخان الأعظم؛ وأيضاً كذلك الأمر بالنسبة للخان الأعظم، فيتخذ ابنة يوحنّا الكاهن زوجة. لأن هذين الاثنين أعظم الحكام تحت السّماء.

وفـي أرض يوحنّـا الكاهن يوجد الكثير من الأشـياء المتنوعـة والأحجار الكريمة، نفيسـة وكبيـرة، ويصنع منها النّاس الأواني، كالأطبـاق والصّحون والكوؤس. ويوجد الكثير من العجائب، وإنه من المرهق والمطول جداً سردها في الكتب؛ فقط سأخبركم عن جزء فيما يتعلق بالجزر الرّئيسية وممتلكاته وديانته.

والإمبراطور يوحنّا الكاهن مسـيحي، وجزء كبير من بلاده أيضاً. لكن، ليس لديهم كل حذافيـر ديننا كما هي عندنا. وهم يؤمنـون يقيناً بالأب والابن وروح القدس، وهم مخلصون وصادقون مع بعضهم. ولا يرتكبون أيّة موبقات ولا يبادرون إلى المراوغة، ولا إلى الخداع.

ويقـع تحـت سـلطته اثنان وسـبعون مقاطعة، ويوجـد ملك لكل مقاطعـة. وهؤلاء الملـوك يوجـد تحتهـم ملـوك، وجميعهم يدفعـون جزية للكاهـن يوحنّـا. ويوجد في مملكته الكثير من الأشياء المدهشة.

ففـي بلاده يوجد بحر يطلق عليه اسـم بحر الحصـى Gravelly Sea، لأنه كله رمل وحصـى، دون أيّة قطرة ماء، وهو ينحسـر ويتدفق بأمواج عظيمـة مثل كل البحار، ولا يسكن أبداً، ولا بأي فصل. ولا يمكن لأحد أن يعبر هذا البحر إبحاراً، ولا بأيّة وسيلة، ولذلـك يمكـن أنه لا يعـرف أحد ماذا يقع خلـف هذا البحر. وبالرّغـم من عدم وجود الماء، فهم يجدون فيه وعلى ضفافه الكثير من السّمك الجيد وبأنواع وأشكال مختلفة عمـا يجده النّاس في البحار الأخرى، وهي ذات طعم طيب ومذاق لذيذ لتكون طعاماً للإنسان.

وعلـى مسـير ثلاثة أيام من البحر يوجـد جبل عظيم، يخرج منه سـيل كبير يأتي من الجنـة. وهـو ممتلئ بالأحجـار الكريمة دون أية قطـرة ماء، وهو يجري فـي الصّحراء

الواقعة في تلك الجهة، حيث يقع بحر الحصى، ويصل إلى البحر وينتهي هناك. وذلك السّيل يجري ثلاثة أيام أسبوعياً ويحمل معه الحجارة الكبيرة والصّخور، وبكميات كبيرة. وحال وصوله إلى بحر الحصى، لا تمكن رؤيته، ويضيع نهائياً. وفي هذه الأيام الثّلاثة التي يجري فيها النّهر لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه؛ ولكن في باقي الأيام يقتربون دون مشكلة.

وخلف ذلك السّيل، باتجاه الأعلى نحو الصّحراء، يوجد سهل واسع كله مفروش بالحصى، بين الجبال. وفي ذلك السّهل، في كل يوم مع طلوع الشّمس، تبدأ أشجار صغيرة بالنمو، وتستمرّ بالنمو حتى منتصف النّهار، وتحمل الثّمار؛ ولا يجرؤ أحد على أخذ شيء من تلك الثّمار، لأنها شيء من الجنّ. وبعد منتصف النّهار، تتناقص وتعود مرة أخرى إلى التراب، ولا تظهر بعد غروب الشّمس. وهكذا كل يوم. وهو أمر مدهش حقاً.

وفي تلك الصّحراء يوجد الكثير من النّاس المتوحشين، منظرهم بشع جداً؛ لأنهم مقرنون، ولا يتكلمون، فقط يصدرون صوتاً كصوت الخنازير. ويوجد الكثير من الكلاب البرية. وأيضاً من طيور الأخيل، التي تسمى بلغتهم Psittakes. ويتكلمون حسب طبيعتهم، ويحيون النّاس المارّين في الصّحراء، ويتكلمون معهم كما لو كانوا بشراً. وهذه التي تتكلم بشكل جيد لها لسان طويل وخمسة أصابع في القدم. ويوجد أيضاً نوع آخر، لديها ثلاثة أصابع فقط في القدم، ولا تتكلم أبداً أو قليلاً جداً ولا يمكنها سوى الصّراخ.

وهذه الإمبراطور يوحنّا الكاهن عندما يذهب في معركة ضد أي حاكم، لا يوجد أيّة رايات تُحمل في المقدمة؛ بل ثلاثة صلبان من الذهب، جميلة وكبيرة ومرتفعة، ومرصّعة بالأحجار الكريمة، وكل صليب محمول على عربة فخمة جداً. وللمحافظة على كل صليب، يعيّن 10,000 رجل من المسلّحين وأكثر من 100,000 من المشاة، كما يقوم النّاس بالمحافظة على الرّاية في بلادنا، عندما نكون في بلاد حرب. وهذا العدد من النّاس عدا عن الجيش الرّئيسي وغير الأجنحة المعينة للمعركة. وعندما لا

يكـون في حرب، ينطلـق مع مجموعة خاصـة، ويحمل في المقدمة صليبـاً واحداً من الخشـب، دون ألوان ولا ذهب ولا فضة ولا أحجار كريمة، كتذكرة أن يسـوع المسـيح عانى ومات على صليب خشـبي. ويحمل أمامه أيضاً طبقاً كبيراً من الذهب فيه تراب، كإشـارة إلى أن عزّه وقوّته وجسـده سـيتحول إلى تـراب. ويحمل أمامه أيضـاً إناءً من الفضـة فيه جواهر ثمينة من الذهب الثّمين والأحجـار الكريمة، كدلالة على ممتلكاته وعزّه وقوته.

ويقيم عادة في مدينة سوسـا Susa. وهناك قصره الرّئيسي، وهو مُترف وفخم جداً، ولا يمكن لأحد أن يتصوّر ذلك ما لم يكن رآه. وعلى البرج الكبير للقصر يوجد دائرتان من الذهب، وفي كل واحدة منهما قطعتان من العقيق الأحمر كبيرة وضخمة، وتضيء بسطوع شديد في الليل. والبوابة الرّئيسية لقصره مصنوعة من حجر ثمين يطلقون عليه اسـم العقيق اليماني الملون sardonyx، وحواف القضبان من العاج. ونوافذ القاعات والغرف من الكريسـتال. وطاولات الطّعام بعضها من الزّمرد وبعضها من الجمشـت، والبعـض مـن الذهـب المرصع بالأحجـار الكريمـة، وقوائم الطّاولات مـن الأحجار الكريمة ذاتها.

والدرجات المؤدية إلى عرشه، حيث يجلس إلى الطّعام، الأولى من العقيق اليماني والثّانية من الكريسـتال والتالية من اليشـب الأخضر والتالية من الجمشـت والتالية من العقيق الملون sardine والتالية من الكوارتز الأحمر cornelian والسّابعة، حيث يضع قدميـه، من الكريسـولايت chrysolite. ويحيط بكل هذه الدرجـات إطار من الذهب الخالص، والأحجار الكريمة الأخرى، واللآلئ الكبيرة المتلألئة. وجوانب سور عرشه من الزّمرد، عليها إطار من الذهب النّفيس، ومزيّنة بالأحجار الكريمة الأخرى واللآلئ الكبيـرة. وكل الأعمـدة فـي غرفته من الذهـب الخالص والأحجار الكريمـة، والكثير من العقيق الأحمر، التي تشـعّ بضوء سـاطع في الليل للجميع. وبالرغم من أنها تعطي ضـوءاً كافياً، فهم يقومون دائماً بإشـعال آنية من الكريسـتال فيها بلسـم، لتعطي رائحة عطرة وأريجاً للإمبراطور، وللتخلص من الرّوائح الكريهة والسّيئة. وهيكل سريره من

الصّفير، المثبت بالذهب، ليجعله ينام بهناء ويمنعه من الفسق، لأنه لا يضطجع مع أزواجه إلا أربع مرات في السّنة، بعد الفصول الأربعة، وذلك فقط لإنجاب الأولاد.

ولديه أيضاً قصر جميل وفخم في مدينة نيسِه Nyse، حيث يقيم، كلما رغب في ذلك؛ ولكن الجو ليس معتدلاً تماماً كما هو في مدينة سوسة.

ولعلمكم، في بلاده وفي البلاد المحيطة به، يأكل النّاس مرة واحدة في اليوم، كما هو الحال في قصر الخان الأعظم. ويأكل يومياً في قصره، أكثر من 30,000 شخص، عدا عن الرّائح والغادي. لكن 30,000 شخص من بلده، ومن بلاد الخان الأعظم، لا يستهلكون طعاماً كما يستهلك 12,000 شخص من بلادنا.

هذا الإمبراطور يوحنّا الكاهن لديه دائماً سبعة ملوك معه لخدمته، ويغادرون خدمتهم في أشهر محدّدة. ومع هؤلاء الملوك يعمل دائماً اثنان وسبعون دوقاً وثلاثمئة وستون نبيلاً. وعلى مدار العام، يأكل في منزله وقصره، اثنا عشر أسقفاً وعشرون مطراناً. وبطريرك القدّيس توما هناك يعادل البابا هنا. والأساقفة والمطارنة ورؤوساء الأديرة في تلك البلاد كلهم ملوك. وكل واحد من هؤلاء كبار السّادة يعرف تماماً المهمّة الموكلة إليه. فالأول هو المسؤول عن منزله، الآخر مسؤول بلاطه، والآخر يقدّم أطباق، وآخر يقدّم الأكواب، وآخر هو المشرف، وآخر هو القيّم، وآخر هو أمير جيوشه، وبهذا الشّكل تقدّم له الخدمات بمنتهى الفخامة والملكية. وتقع بلاده على مساحة تمتدّ أربعة أشهر عرضاً، ولا يمكن قياس طولها، أيّ كل الجزر الواقعة تحت الأرض والتي نفترض أنها تحتنا.

وبمحاذاة جزيرة Pentexoire، حيث تقع أرض يوحنّا الكاهن، يوجد جزيرة جميلة، طويلة وعريضة، ويطلق علها اسم Mistorak؛ وهي من ممتلكات يوحنّا الكاهن. وفي هذه الجزيرة الكثير الوافر من المحاصيل.

* * *

وهنـاك، فـي زمن مـا، كان يقيم رجلٌ ثريّ؛ ليـس منذ زمن بعيد[1]؛ وكانوا يسـمّونه Gatholonabes. وكان طافحـاً بالمراوغـة وماكراً مخادعـاً. وكان له قصر جميل جداً ومنيـع فـي أحد الجبال، متيـن وفخم، ولا يمكن لأحد أن يتخيّـل أجمل ولا أكثر منعة منه. وقد قام بتسوير محيط الجبل بسور منيع وجميل. وضمن هذا السّور توجد أجمل حديقة ممكن أن يقتنيها إنسـان. ويوجد فيها أشـجار تثمر كل أنـواع الثّمار التي يمكن أن يعرفها الإنسـان. ويوجد فيها أيضاً كل أنواع الأعشـاب الفعالة ذات الرّوائح الطّيبة، وكل الأعشاب الأخرى أيضاً ذات الزّهور الجميلة. وفي هذه الحديقة لديه أيضاً الكثير مـن الينابيع الجميلة؛ وبالقرب من هذه الينابيع عمل على إقامة قاعات وغرف جميلة، مطليـة بالذهـب والـلازورد؛ وفي ذلـك المـكان يوجد الكثير مـن الأشـياء المتنوعة، والكثيـر من الأسـاطير؛ من الحيوانات، ومـن الطّيور التي تغرّد ببهجـة متناهية وتتنقل بخفة، وتظهر رشاقتها. ويوجد في حديقته كل أنواع الطّيور والحيوانات التي يمكن أن تخطر ببال، والتي يربيها بهدف التسلية واللهو.

ولديه أيضاً في ذلك القصر أجمل الفتيات الممكن أن يوجدن، تحت سـن خمسـة عشـر عاماً، وأجمل غلمـان ممكن أن يوجدوا، وفي نفـس ذاك العمر. وكلهم يرتدون ملابس منسوجة من الذهب، كثيرة الترف. ويقول إن هؤلاء كانوا ملائكة.

وأيضـاً عمل على تنفيـذ ثلاثة ينابيع، جميلة وفخمة وكلها محاطة بأحجار اليشـب والكريسـتال ومزينة بالذهب، والأحجار الكريمة واللآلئ الكبيرة المتلألئة. وحفر قناة تحـت الأرض، بحيث تكون الينابيع الثّلاثة، حسـب الترتيب، واحد يفيض بالحليب، والآخر بالخمر والثالث بالعسل. وأطلق على هذا القصر اسم الجنّة.

---

(1) هذه إشارة مهمّة، فحسب ما يرويه ماندڤيل هنا، يتضح أنه يشير إلى قلعة ألموت التي كانت موئلاً للطائفة الإسماعيليّة النّزاريّة، التي اتسمت بالباطنيّة وغلبت عليها آنذاك تسمية الحشيشيّة. وقد أسّس هذا الحصن حسن الصبّاح الحِميَري في عام 1090 م، وبقي موئلاً لطائفته حتى خرابه كما سأذكر أدناه في عام 1256. ولكن كلام ماندڤيل عن هذا الشخص لا يمكن أن يكون المقصود به الصبّاح نفسه لوجود فارق قرن ونصف من الزمان، بل الذي قتل كان ركن الدّين خورشاه آخر أمراء الحصن.

وعندما يأتي أي فارس، مقدام ونبيل، لرؤية هذه الملكية، يقوم بأخذه إلى جنته، ويريه هذه الأشياء الرّائعة لتسليته، والأنغام الرّائعة والعذبة من مختلف الطّيور، والفتيات الحسان، وينابيع الحليب والخمر والعسل الجميلة، التي تتدفق بغزارة. ويجعل العديد من الآلات الموسيقية تعزف في البرج العالي، بمرح، والتي من المبهج سماعها؛ ولا يمكن لأي إنسان أن يرى براعتها. ويقول إن هؤلاء كانوا ملائكة الله، وهذا المكان هو الجنة، وقد خاطب الرّب أصدقاءه قائلاً:

Dabo vobis terram fluentem lacte et melle

ثم يجعلهم يشربون شراباً محدداً، فيسكرون منه فوراً. ثم يعتقدون أنهم أكثر سروراً ممّا كانوا عليه من قبل. ثم يقول لهم، إذا ماتوا لأجله ولأجل حبه، فبعد موتهم سيأتون إلى هذه الجنة؛ وسيكونون بعمر هؤلاء الفتيات، وسيلهون معهن، ويبقين عذراوات. وبعد ذلك سيضعهم في جنة أجمل، حيث يرون الله رأي العين، بجلاله وعزّته. ثم يريهم غرضه، ويقول لهم، إذهبوا واقتلوا الحاكم الفلاني، أو شخصاً ما كان عدواً له أو خصماً ضده، ويجب أن لا يخافوا من القيام بذلك وأن يقوموا بقتل أنفسهم. لأنه بعد موتهم، سيضعهم في جنّة أخرى، هي أجمل من هذه بمئة مرة؛ وهناك سيعيشون مع أجمل الفتيات، ويلهون معهنّ إلى الأبد[1].

وهكذا يذهب الكثير من الشّبان الأقوياء لقتل كبار السّادة في بلاد مختلفة، الذين كانوا أعداء له، ويقتلون أنفسهم، أملاً في تلك الجنة. وعلى هذا النّحو كان غالباً ما ينتقم من أعدائه بسبب حيله الماكرة وادعاءاته الكاذبة.

(1) هذا الوصف هنا ينطبق بحذافيره على زعيم الحشيشيّة في قلعة ألموت حسن الصبّاح، وهذه القلعة تقع في جبال البرز أو جبال الدّيلم جنوبي بحر قزوين على بُعد حوالي 100 كم عن طهران. تملّكها حسن بن علي الصبّاح (شيخ الجبل) في عام 1090 م فكانت موئل طائفته الإسماعيليّة النّزاريّة، وبقوا فيها حتى دمّرها هولاكو في طريقه إلى بغداد عام 1256 م وأعدم مَن فيها ما عدا الخواجا نصير الدّين الطوسي الذي انضمّ لهولاكو. ويُلاحظ أن تاريخ الحادثة غير بعيد عن زمن رحلات ماندڤيل.

وعندما علم الرّجال الأفاضل في البلد بمكر وخداع الرّجل[1] Gatholonabes، جمعوا قوتهم، وهاجموا قصره، وقتلوه، ودمّروا كل الأماكن الجميلة وكل الفخامة في تلك الجنة. هذا وموضع الينابيع والأسوار وأشياء أخرى كثيرة لا تزال بعض بقاياها ماثلة للعيان، ولكن تم إزالة كل الترف. ولم يمض وقت طويل على تدمير ذلك المكان.

* * *

(1) الغريب أنّ اسم هذا الرّجل الغامض يشبه عبارة: قاتل النّفس، مما قد يقوّي فكرة أنه يشير إلى جماعة الصبّاح بالفعل؟ لكن هل يعني ذلك أنّ أسطورة يوحنّا الكاهن ترتبط جغرافياً بالموقع الجغرافي ذاته؟ حقاً لقد أثار ماندڤيل الكثير من التساؤلات بنصوصه العجيبة، فهل اكتفى بالنقل ونسج الخيال، أم أنه سافر فعلاً وسمع كل هذه الأقاويل والأوصاف في تسفاره؟ أظنه جمع بين الثلاثة: السّفر، والنقل، والخيال الجامح.

الفصل الحادي والثّلاثون

عن رأس الشّيطان في وادي المخاطر
وعن عادات الأقوام في الجزر المختلفة التي تحيط بمملكة يوحنّا الكاهن

بالقرب من جزيرة ميستوراك Mistorak على الجانب الأيسر قرب نهر پيسون[1] Pison يوجد أمر مدهش. يوجد واد بين الجبال، ويمتد حوالي الأربعة أميال. وبعضهم يسميه وادي السّحر، والبعض يسميه وادي الشّياطين، وبعضهم يطلق عليه اسم وادي الأخطار. ويسمع النّاس غالباً في ذلك الوادي أصوات عواصف ورعود، وهمسات وضوضاء، طوال الليل والنّهار، وضجيجاً شديد، كما لو كانت قرع دفوف أو نفير أبواق، كما لو كان احتفالاً كبيراً. وهذا الوادي مليء بالشياطين، وكان دائماً كذلك. ويقول النّاس هناك، إنه أحد المداخل إلى جهنم. وفي ذلك الوادي الكثير من الذهب والفضة. حيث كثيراً ما يذهب الكثير من الملحدين والكثير من المسيحيين أيضاً لأجلها للحصول على الكنوز الموجودة هناك؛ والبعض فقط يعود ثانية، وتحديداً من الملحدين، أمّا المسيحيون فلا، لأنهم يُخنقون مباشرة من قبل الشّياطين.

وفي مكان في منتصف هذا الوادي، تحت صخرة، يوجد رأس ووجه شيطان حقيقي، ومن المرعب والمفزع جداً رؤيته، ولا يظهر سوى الرّأس فقط، حتى الأكتاف. ولا

(1) هكذا في الأصل، والمقصود: نهر سيحون، وكان يسمّى قديماً نهر بلخ، واسمه حالياً نهر أموداريا ويوجد في جمهوريّة أوزبكستان. وهو النهر الذي تُنسب إليه تسمية: بلدان ما وراء النّهر، التي شاعت لدى مؤرخينا وجغرافيينا العرب إبّان الفتوحات الإسلاميّة.

يوجد رجل في العالم مهما بلغت جرأته، مسيحي أو لا، إلا وسيكون خائفاً من أن ينظر إليه، وعلى ما يبدو فإنه سيموت من الفزع، لأنه شنيع للغاية للنظر. لأنه ينظر بحدة إلى كل شخص بعيون مرعبة، وهي تتحرّك وتتألق باستمرار كالنار، وتتغير وتحدّق دائماً بطرق مختلفة، بسيماء مرعبة، حيث لا يجرؤ أحد على التوجه نحوه. ويتصاعد منه دخان ونار كريهة وأشياء بغيضة كثيرة، لا يمكن لأحد أن يتحمّلها.

ولكن المسيحيين الصّالحين، الذين لديهم عقيدة ثابتة، يدخلون بسهولة دون خطر. لأنهم أولا يتحللون من خطاياهم ويشيرون على أنفسهم بإشارة الصّليب المقدّس، وبذلك لن يكون لأيّ شيطان تأثير عليهم. ، لكنهم مع ذلك وإن كانوا لا خطر عليهم، فلن يكونوا بلا خوف، عندما يرون الشّياطين بشكلهم وجسدهم أمامهم تماماً، ويقومون باعتداءات وتهديدات مختلفة، في الهواء وعلى الأرض، ويفزعونهم بضربات من الصّواعق والعواصف. والأمر الأكثر فزعاً هو، أن الله سينتقم من كون النّاس خالفوا إرادته.

ولعلمكم، أنه عندما كنا أنا وصحبي في ذلك الوادي[1]، كنا قلقين جداً، فيما إذا كنا قد أقحمنا أنفسنا في مغامرة، وهل نتابع أم لا، في حماية الله. ورغب البعض من صحبنا بالدخول والبعض لا. وكان معنا رجلان قديران، راهبان مبتدئان، كانا من لومبارديّا Lombardy، وقالا إذا أراد أيّ منا الدخول فسيأتيان معه، وبالثقة برحمة الله وبهما، أنشدنا قداساً، وتحلل الجميع من الخطايا وتطهّر. ثم دخلنا أربعة عشر رجلاً؛ بينما عندما خرجنا كنا تسعة فقط. ولا نعرف أبداً فيما إذا تاه أصحابنا أو حدث لهم شيء آخر من الفزع. لكن لم نرهم أبداً بعد ذلك؛ وكانوا رجلين من اليونان وثلاثة من إسبانيا[2]. وأصحابنا الآخرون الذين لم يدخلوا معنا، ذهبوا إلى ساحل آخر ليصلوا قبلنا؛ وهناك كانوا.

---

(1) هذه جرأة من ماندڤيل أن يعلن في كل فقرات الكتاب أنه زار جميع البلدان والجزر والمجاهل بنفسه، حتى الخطير منها والمرعب كهذا!

(2) يا للكذب والوقاحة، في هذه الرّواية بالذات نجزم أن ماندڤيل كان يبادر إلى التلفيق بين الفينة والأخرى. والمضحك أنه يرويها بكل بساطة وأن بعض أصحابهم فقدوا وماتوا على الأغلب، دون أن يرفّ له جفن ويتابع روايته الشائقة.

وهكـذا عبرنـا وادي الأخطار، ووجدنـا فيه الذهـب والفضة، والأحجـار الكريمة والجواهر الثّمينة، بكميات كبيرة، هنا وهناك، كما بدت لنا. وفيما إذا كانت، كما بدت لنا، فهذا ما لا أعرفه. لأنني لـم أمسّ أياً منها، لأن الشّياطين ماكرون جداً بجعل الأشياء تبدو خلاف ما هي عليه، لخداع البشـر. لذلك لـم ألمس أياً منها، وأيضاً لأنني لـم أريد أن أتخلـى عـن إخلاصي؛ لأننـي كنت أكثر إخلاصـاً عندها، أكثر مـن أي وقت مضى أو تـلا، وكله بسـبب الرّعب من الشّـياطين التـي رأيتُها بهيئات مختلفة، وأيضاً بسـبب العدد الكبير الذي رأيته من الجثث، التي رأيتها ملقاة على الطّريق، على طول الوادي، وكأنمـا كانـت هناك معركة بين ملكين، والأقوى في البـلاد، ولذلك فعدد كبير قد هُزم وقُتـل. وأعـرف، أنه لا يوجد أي بلد فيه هذا العدد من النّـاس، كعدد القتلى الممدّدين فـي الوادي كما اعتقدنا، الذي كان منظراً شـائناً جداً. ودُهشـت أكثر، لأن عددهم كان كبيراً جداً، والجثث كلها غير متفسـخة. لكنني عرفت، أن الشّياطين جعلوهم يظهرون كجثث كاملة لـم تتفسّخ. لكن ذلك لم يبد لي لأن عدداً كبيراً من النّاس يجب أن يكون دخـل مؤخـراً، والكثيرين قتلوا مؤخراً، دون تعفن وتفسـخ. ومعظمهم كانوا على هيئة رجال مسيحيين، ولكنني أعرف جيداً، أنّ ذلك قد حدث بسبب الشّهوة للكنز الموجود هنـاك، وبسـبب ضعـف إيمانهم؛ لذلك لـم تصمد قلوبهم علـى إيمانها أمـام الرّعب. ولذلـك كنـا نحن الأكثر إخلاصاً. ومع ذلك فقد وقعنـا، وارتطمنا عدة مرات بالأرض الصّلبة بسبب الرّياح والصّواعق والعواصف. لكن الله ساعدنا برحمته. وبذلك اجتزنا وادي الأخطار دون خطر ولا عائق، حمداً لله العظيم.

* * *

بعد ذلك، خلف الوادي، توجد جزيرة كبيرة، النّاس فيها عمالقة بطول ثمانية وعشرين قدمـاً، أو ثلاثين. وهم لا يرتدون الملابس، بل يشـتملون فقط بجلود الحيوانات. ولا يأكلـون الخبز، بل اللحوم النّيئة فحسـب؛ ويشـربون حليب الحيوانـات، حيث لديهم الكثيـر مـن جميع أنواع الحيوانـات. وليس لديهم بيوت يقيمون فيهـا. ويأكلون لحوم البشر بشهية أكثر من أي لحوم أخرى. ولا يجرؤ النّاس على دخول تلك الجزيرة. وإذا

رأوا سفينة وعليها بشر، فوراً خاضوا في البحر ليأخذوهم.

وأخبرنا النّاس، أنه في جزيرة أخرى خلف تلك الجزيرة يوجد عمالقة ذوو بنية أكبر، بعضهم بطول خمسة وأربعين قدماً، أو خمسين، وكما يقول البعض، بعضهم بطول خمسين ذراعاً. لكنني لم أر أيّاً منهم، حيث لم يكن لدي رغبة بالذهاب إلى تلك الأجزاء، لأنه لم يذهب أحد إلى تلك الجزيرة أو غيرها إلا وقد تم التهامه فوراً. وبين أولئك العمالقة توجد أغنام بحجم الثّيران عندنا، ويكسوها صوف كثيف وخشن. وكثيراً ما رأيتُ هذه الأغنام. ورأى النّاس، عدّة مرات، أولئك العمالقة وهم يخرجون الرّجال من سفنهم في البحر، ويأخذونهم إلى أرضهم، يحملون اثنين في يد واثنين في الأخرى، ويلتهمونهم نيئين وبسرعة.

وفي جزيرة أخرى باتجاه الشّمال، في المحيط، يوجد نساء ذوات طبيعة متوحشة وشريرة جداً. ولديهن أحجار كريمة في أعينهن. وهن من هذا النّوع، إذا رمقن أيما رجل بنظرة حنق، يقتلنه فوراً بنظرتهن[1]، كما تفعل ملكة العظاءات basilisk.

* * *

وفي جزيرة أخرى هناك، جميلة جداً وخصبة وكبيرة، ومليئة بالناس، لديهم هذه العادة، في الليلة الأولى للمتزوجين، بأن يجعلوا رجلاً آخر يضطجع مع زوجاتهم لفض بكارتهن، ولأجل ذلك يقدّمون له أجراً كبيراً مع الكثير من الشّكر. ويوجد رجال في كل قرية ليس لهم عمل آخر غير هذا؛ ويسمّونهم cadeberiz أو بعبارة أخرى fools of wanhope. لأنهم في تلك البلاد يعتبرون افتضاض امرأة عملاً عظيماً وخطيراً، ويُخيّل لهم أن مَن يغشى بكراً إنما يعرّض حياته للخطر. وإذا وجد رجل في الليلة التالية أن زوجته لا تزال بكراً بعد أن يكون من المفروض أنها اضطجعت مع ذلك الرّجل الذي أُوكلت إليه هذه المهمة، ربما بسبب السُّكر الشّديد أو لسبب آخر، فإن

---

(1) يبدو أن كتاب رحلات ماندفيل هنا سيتحول في فصوله الأخيرة إلى ما يشبه الإلياذة. لكنه مع ذلك يبقى ممتعاً وشائقاً، وعلينا أن نذكّر أنه ليس بأكمله من نسج الخيال، بل فيه فوائد جغرافيّة وصفيّة مهمّة، عدا عن أسلوبه الرّوائي الممتع.

الزّوج يقرّعه لعدم القيام بواجبه، بطريقة متوحشة جداً وكأنما الشّرطة كانت لتقتله.

ولكن بعد الليلة الأولى التي تتمّ فيها المواقعة، يحرصون بشدة على عدم التحدّث مع أي شخص. وسألتهم عن سبب هذه العادة لديهم، فأجابوني، أنه في الماضي كان الرّجال يموتون من فضّ بكارة العذراوات، لأن لديهن أفاعيَ في أجسادهن تلدغ الرّجال في ذكورهم، فيموتون فوراً. لذلك فهم يتبعون هذه العادة بتعيين رجال آخرين يغشون نسائهم، خشية الموت، ولتفحص الطّريق من قبل الغير [بدلاً من] أن يخاطروا بحياتهم.

* * *

وتليها جزيرة أخرى تقيم النّساء فيها حزناً كبيراً عند ولادة أبنائهن. وعند موتهم، يقمن احتفالاً كبيراً بالفرح والمرح، ثم يلقين به إلى نار مضرمة كبيرة. وهؤلاء اللواتي يحببن أزواجهن كثيراً، إذا مات أزواجهن، يلقين بأنفسهن مع أبنائهن في النّار، ويحترقن. ويقلن إن النّار ستطهّرهن من كل دنس ورذيلة، وأنهن سيذهبن نقيات وطاهرات إلى العالم الآخر ليلحقن بأزواجهن، وسيأخذن أبنائهن معهن. وعن سبب بكاؤهن عند ولادة الأطفال فهو؛ لأنهم عندما يأتون إلى هذا العالم، يأتون إلى الكدح والحزن والبلايا. وعن سبب فرحهن وحبورهن عندما يموت أبنائهن، كما يقلن، فلأنهم سيذهبون إلى الجنّة حيث توجد أنهار جارية من الحليب والعسل، وحيث يراهم النّاس في سعادة ووفرة كثيرة، دونما أحزان أو شقاء.

في تلك الجزيرة يعيّن النّاس ملكهم دائماً بالانتخاب، ولا يختارونه بسبب أصله ولا غناه، ولكن بسبب فضائله وحُسن سيرته، وحكمته، ويجب أن يكون بسنّ متقدم، وليس له أولاد. والنّاس في تلك الجزيرة عادلون جداً، يحكمون بالعدل في أيّة قضية سواء لغني أم فقير، صغير أم كبير، بالنظر إلى حجم الجناية المُرتكبة. ولا يحكم الملك على أحد بالموت إلا بعد استشارة باروناته والحكماء الآخرين، واتفاق كل المحكمة على ذلك. وإذا اقترف الملك شخصياً أيّة جريمة قتل أو جريمة أخرى، كأن يقتل شخصاً ما أو ما شابه، فسيلقى حتفه على تلك الجريمة. لكن لن يتم قتله كأي

رجل آخر؛ بل يتعهد النّاس تحت عقوبة الموت، ألا يقوم أيّ كان بصحبته أو التحدث إليه، ولا إعطائه شيء، ولا بيعه، ولا خدمته، لا بطعام ولاشراب؛ وبذلك يموت من التأذي. وهم لا يستثنون أحداً أقدم على أي انتهاك، لا يمنعهم من ذلك محبّتهم له، ولا حظوة ولا غنى، ولا أصل أو نسب؛ فإنه سيعاقب حتماً على فعلته.

وخلف تلك الجزيرة توجد جزيرة أخرى، ويوجد فيها عدد كبير من السّكان. وهم، دونما أي سبب، لا يأكلون لحوم الأرانب ولا الدّجاج ولا الإوز؛ ومع ذلك يربون الكثير منها، فقط ليروها ويحتفظوا بها؛ ولكنهم يأكلون لحوم الحيوانات الأخرى ويشربون لبنها. وفي تلك البلاد يأخذ الرّجال من بناتهم وأخواتهم زوجات لهم، وقريباتهم أيضاً. وإذا كان هناك عشرة رجال أو أثنا عشر رجلاً أو أكثر من ذلك يقيمون في بيت واحد، فإن زوجة كل منهم هي حِلٌّ لجميع الذين يقطنون في ذلك البيت؛ ويمكن لأي رجل أن يعاشر أيّة واحدة يرغب بها هذه الليلة، وأخرى في الليلة التالية. وإذا أنجبت المرأة طفلاً فإنها تعطيه للرجل الذي تشاء، والذي كان في صحبتها، وهكذا لا يعرف أي رجل هناك فيما إذا كان الولد له أو لغيره. وإذا قال أيّ رجل لأحد، إنهم يربّون أولاد الآخرين، فيجيبون أن الآخرين يربّون أولادهم أيضاً.

في تلك البلاد وفي كل بلاد الهند يوجد الكثير من حيوان الكوكودريل[1] cockodrills، وهو نوع من الأفاعي الطّويلة، كما ذكرت من قبل. وهو يعيش في الماء ليلاً، وعلى اليابسة نهاراً، في الصّخور والكهوف. وهذه الحيوانات لا تأكل أيّ طعام في الشّتاء، فهي تدخل في سبات، كما الأفاعي. وهذه النّوعية من الأفاعي تقتل الإنسان، وتأكله وهي تبكي؛ وعندما تأكل تحرّك فكها العلوي وليس السّفلي، وليس لديها لسان.

في تلك البلاد والكثير من البلاد خلفها، وأيضاً في الكثير بهذا النّصف، يعمل النّاس في زراعة بذور القطن، ويزرعونها في كل عام. وهي تنمو على شكل شجيرات

(1) تقدّم ذكره في الفصل 21، لكن الصّواب في اسمه: crocodile في الإنكليزية (كروكودايل)، والفرنسية (كروكوديل) وليس كوكودريل.

صغيـرة، تحمل القطـن. ويقومون بذك سـنوياً، لذلك عندهم الكثير مـن القطن دائماً. وفـي هذه الجزيرة وفي الكثير غيرها، توجد مادة تشـبه الخشـب، صلبـة ومتينة. وهي تغطـي فحم ذلك الخشـب تحت الرّماد، وبذلك يتحمّل الفحـم ويبقى طويلاً، لعام أو أكثـر. ولهـذه الشّـجرة أوراق كثيرة، مثل الصّنوبـر. ويوجد الكثير من الأشـجار، ذات طبيعة غير قابلة للاحتراق، ولا تبلى بأيّ حال. ويوجد أشجار جوز، وهي تحمل جوزاً كبيراً بحجم رأس إنسان.

ويوجـد الكثير من الحيوانات، والتي تسـمى orafles. وفـي جزيرة العرب يطلقون عليها اسم[1] gerfaunts. وهذا الحيوان pomely أو مرقط، وأعلى قليلاً من الحصان، وله رقبة بطول عشرين ذراعاً؛ وكفله وذيله يشبه الأيّل؛ ويمكنه النّظر من فوق بيت عال جـداً. ويوجد أيضاً في تلك البلاد الكثيـر من الجمال camles؛ وهي حيوانات صغيرة بحجم الماعز، وهي برّية، وتعيش على الهواء ولا تأكل شيئاً، ولا تشرب أبداً، ولا بأي وقـت. ويتغيّر لونها باسـتمرار، وغالباً عندما يراها النّاس، تكـون بلون وبلون آخر بعد قليل، ويمكنها أن تتغير إلى أي لون ترغب به، باستثناء الأحمر والأبيض[2].

وأيضـاً توجـد هنـاك أفاع كبيـرة جداً[3]، يصـل طول بعضها إلى سـتة أقـدام، وهي بألوان مختلفة، فمنها مخطّطً، وأحمر، وأخضر، وأصفر، أزرق وأسود، وكلها مرقطة. وبعضهـا له عُرف على رأسـه، وتسـير على أقدامهـا، منتصبة، ويصل طولهـا إلى أربع قامـات[4] fathom، أو أكثـر، وتعيـش دائماً علـى الصّخور والجبـال، وحلقها مفتوح

---

(1) هل يقصد الزّراف أم ماذا؟ وأما عن ذكر اسمه الشائع لدى العرب فليس ذلك غريباً، ولا ننسى أنّ ماندڤيل أمضى في بلاط المماليك بمصر مدّة، وكنا رأينا في نصوص رحلات الحجّاج الطليان فريسكوبالدي وسيغولي وغوتشي المعاصرين له (1384 م) كيف شاهدوا الزّرافة للمرة الأولى بمصر واستغربوا ذلك. وفي لوحات جنتيلِه بلّيني وتلميذه مانسويتي نرى الكثير من هذه الزّرافات كعنصر محبّب للدّلالة على أجواء قصور المشرق العربي.

(2) أما هذه الملاحظة فغريبة، متى كانت الجمال تغيّر ألوانها؟

(3) لعلّه يعني الأناكوندا؟

(4) مقياس القامة fathom يعادل 1,8288 متراً.

دائماً، حيث تفرز السّم باستمرار.

وتوجد أيضاً خنازير برّية ملونة، كبيرة بحجم الثّيران في بلادنا، وكلها مرقطة، مثل الظباء الصّغيرة. كما توجد قنافذ، كبيرة بحجم الخنزير عندنا؛ ونسميها[1] Porcz de Spine. وتوجد أُسودٌ ذات لون أبيض بالكامل، كبيرة وقوية. وتوجد حيوانات أخرى، بحجم أو أكبر من الحصان الكبير destrier، ويسمّونها Loerancs؛ والبعض يطلق عليها اسم odenthos؛ وهذا الحيوان له رأس أسود وثلاثة قرون طويلة وحادة في مقدّمته[2]، حادة كالسيف، وجسمه ضئيل؛ وهو حيوان عدواني جداً، وهو يطارد الفيلة ويقتلها. ويوجد الكثير من الحيوانات الأخرى، وهي شرسة ومتوحشة، أكثر من الدّببة، ولها رأس كالخنزير، ولها ستة أقدام، وفي كل قدم مخلبان كبيران، حادّان؛ وجسم مثل الدّب، وذيل مثل الأسد. وتوجد فئران بحجم الكلاب، وفئران صفراء بحجم الغربان. وإوز، لونه أحمر، حجمه ثلاثة أضعاف حجم الإوز لدينا، ورأسه وعنقه وصدره بلون أسود.

وحيوانات أخرى مختلفة في تلك البلاد، والأماكن الأخرى من حولها، وطيور متنوعة أيضاً، يطول الحديث عنها. لذلك سأهملها هذه المرة.

* * *

(1) من الواضح أنه يقصد النّيص أو الشَّيهَم porcupine، الذي تكسوه أشواك حادّة طويلة.
(2) يبدو أنه يقصد وحيد القرن (الخرتيت)، لكن جسمه ليس ضئيلاً.

الفصل الثاني والثلاثون

عن طيبة سكان جزيرة براغمان، وعن الملك الإسكندر
وعن سبب تسمية إمبراطور الهند بيوحنّا الكاهن

وخلف تلك الجزيرة تقع جزيرة أخرى، كبيرة وخصبة ووافرة، حيث يوجد قوم طيبون ومخلصون، وصادقون باعتقادهم ومؤمنون. وإن لم يكونوا جميعهم مسيحيين، وليس لديهم عقيدة مثالية، ولكن بالرّغم من ذلك لديهم عقيدة ملائمة وفيها كل الفضائل، وهم يتجنبون كل الرّذائل وكل الخبائث وكل الآثام. فهم ليسوا متكبرين، ولا شهوانيين، ولا شديدي الغضب، ولا نهمين، ولا فاسقين. ويعاملون النّاس كما يحبّون أن يعاملوهم، وبهذا الشّكل فهم يطبقون وصايا الرّب العشر، ولا يقيمون بالاً للتملّك ولا للغنى. ولا يكذبون، ولا يقسمون بلا داعٍ، فيقولون ببساطة نعم أو لا؛ لأنهم يقولون إن الذي يقسم فهو يخدع جاره، لذلك أي شيء يريدون القيام به، يقومون به دون قسم.

ويطلق النّاس على هذه الجزيرة اسم براغمان Bragman، والبعض يسمّونها أرض الإخلاص Land of Faith. ويجري عبر تلك الأرض نهر عظيم يسمّى التيبه Thebe. وبشكل عام، فإن النّاس في هذه الجزر والجزر المحيطة بها أكثر عدلاً من غيرهم في كل شيء. ولا يوجد في تلك البلاد أي سارق أو مجرم أو نساء مبتذلات أو متسولون فقراء، ولم يتم أبداً قتل أي إنسان في تلك البلاد. وهم عفيفون ويعيشون حياة طيبة، وبالنسبة للمتدينين منهم، فهم يصومون كل يوم.

وكونهـم مخلصين جداً وعادلين، ويتمتعون بكل الصّفـات الجيدة، فلم يعانوا أبدا مـن العواصـف أو الصّواعـق أو البرق أو البَـرَد أو الأوبئة أو الحـروب أو المجاعات، ولا مـن أي محنـة أخـرى، كمـا يحدث كثيـراً لنا بسـبب خطايانا. لذلـك، ويبدو ذلك جلياً، أن الله يحبهم وأنهم مباركون مع عقيدتهم بسـبب أفعالهم الحسنة. إنهم يؤمنون بالله، الذي خلق كل شـيء، ويعبدونه. ولا يقيمون وزنـاً للثراء الدنيوي؛ وهم عادلون جداً. ويعيشـون ببساطة كاملة، ويقتصدون جداً بالمأكل والمشرب، ويعيشون طويلاً. ومعظمهم يموت دون أمراض، عندما تضعفهم الطّبيعة، بسبب التقدّم في السّن.

وحـدث فـي زمن الملك الإسـكندر أنـه اعتزم غزو تلـك الجزيـرة ليجعلهم تحت إمرته. وعندما سمع سكان البلاد بذلك، أرسلوا رسولاً إليه يحمل رسالة، هذا فحواها:

«ما الذي يُعدّ كافياً لمَن يجد العالم بأسـره غير كافٍ؟ لن تجد شـيئاً لدينا، ليجعلك تشن حرباً ضدنا. فنحن لا نملك الثّراء، ولا نطلبه، وكل محاصيل بلادنا مشاع. طعامنا، الذي يقيم أجسادنا، هو كل ما نملك. وبدلاً من كنوز الذهب والفضة، فلدينا كنوزنا من الائتلاف والسّـلام، وأن يحب كل فرد الآخر. ولكساء أجسادنا نتخذ أثواباً بالية نغطي بهـا جيفنا. نسـاؤنا لا يتزين لإسـعاد الرّجال، فقط يكتسـين درءاً للحماقـات. وعندما يعاقبهنّ الرّجال بكسوة أجسادهن ليغدين أجمل ممّا خلقهن الله، فهم يقترفون بحقهن إثمـاً كبيراً. لأن الرّجل يجب ألا يبحث ولا يطلب جمالاً أكثر ممّا أعطاه الله للإنسـان عند ولادته. الأرض تمنحنا شـيئين اثنين: حياتنا، نشـأتنا التي خلقنا منها، ومأوانا بعد المـوت. لقد كنا في سـلام دائم حتـى الآن، وأنت تأتي الآن لتحرمنا منـه. وأيضاً لدينا ملـك علينـا، ليس فقط ليحقق العـدل للجميع، لأنه لن يجد خللاً بيننـا، وإنما ليحافظ عى شرفنا، وليظهر احترامنا، لذلك لدينا ملك. ليس لأن العدل لا مكان له بيننا، ولكن لأننا لا نعامل الآخرين بخلاف ما نرغب أن يعاملونا به. لذلك بسبب الاستقامة فليس للانتقام وجود بيننا. لذلك لا يوجد ما تأخذه منا، سوى أمننا، الذي كان يلازمنا دوماً».

وعندمـا قـرأ الملك الإسـكندر هذه الرّسـالة، أيقن أنه سـيقوم بإثم كبيـر بإقلاقهم. وأرسـل لهـم ضمانـات، حتـى لا يخشـوه، وأنهـم يجـب أن يحافظوا علـى فضائلهم

وأمنهم، كما كانوا من قبل، كعادة لهم. وأنه سيتركهم وشأنهم.

وفي جزيرة تسمى أوكسيدريت Oxidrate، وجزيرة أخرى تسمى Gynosophe، يوجد أيضاً أناس طيّبون ومخلصون. وهم يلتزمون، معظمهم، بالفضائل الحسنة والتقاليد وحسن السّيرة، كما هو حال القوم الذين في الجزيرة المذكورة أعلاه؛ ولكنهم يتجولون عُراة بالكامل.

ولقد دخل الملك الإسكندر إلى تلك الجزيرة، ليستكشفها. وعندما رأى إيمانهم العميق وإخلاصهم فيما بينهم، قال إنه يتوجب عليه عدم إشقائهم، ودعاهم لأن يطلبوا منه ما يريدون، الثّراء أو أي شيء آخر، وسيلبي طلبهم بكل سرور. فأجابوه، أنه يُعدّ ثرياً بشكل كاف مَن كان لديه الطّعام والشّراب ليقيم بدنه، لأن الثّراء في هذا العالم زائل، ولا قيمة له؛ ولكن إذا كان في مقدوره أن يجعلهم خالدين، فيتوسّلون إليه ويشكرونه لذلك. فأجابهم الإسكندر أنه ليس في مقدوره القيام بذلك، لأنه هو فانٍ، كما هم.

فسألوه: «لماذا إذن أنت متغطرس وعنيف، ومتحرّق جداً لتجعل من كل العالم تحت سيطرتك، وكأنك الله، ولا ترتاح في الحياة، لا ليوم ولا لساعة، وتريد أن تجعل العالم كله تحت أمرك، والذي سيغادرك بكل تأكيد، أو أنك ستغادره. وكما كان لأناس غيرك من قبلك، فإنه سيكون لغيرك من بعدك. ومن هنا فإنك لن تأخذ شيئاً؛ فقط كما ولدت عارياً، وأيضاً كما سيتحوّل جسدك العاري إلى تراب كالذي منه خُلقت. لذلك عليك ألا تفكر وتعتقد في عقلك، لأنه ما من شيء خالد، إلا الله، الذي خلق كل شيء». فدُهش الإسكندر بشدة لذلك الجواب وارتبك، واضطرب وغادرهم.

وعلى الرّغم من أن هؤلاء القوم ليس لديهم نصوص عقيدتنا التي لدينا، فإنهم بسبب إيمانهم الفطري، وبسبب نواياهم الطّيبة، فإنني متأكد تماماً من أن الله يحبهم، ويقبل عبادتهم، كما فعل مع أيّوب Job، الذي كان وثنياً، والذي قَبِله بسبب عبادته المخلصة. لذلك، وعلى الرّغم من وجود الكثير من الأديان المختلفة في العالم، فأنا مقتنع، أن الله يحب دائماً الذين يحبّونه، والذين يعبدونه بتواضع وبصدق، وتحديداً أولئك الذين يحتقرون البهرجة الفارغة لهذا العالم، كما يفعل هؤلاء النّاس وكما فعل

أيّوب Job.

ولذلك قال ربنا على لسان هوشع الرّسول Hosea:

Ponam eis multiplices leges meas.

وفي موضع آخر:

Qui totum orbem subdit suis legibus.

وقال الرّب أيضاً في الكتاب المقدّس:

Alias oves habeo, que non sunt ex hoc ovili.

بمـا معنـاه، أن لديه عبـاداً آخرين غيـر أولئك الذيـن يدينون بالمسـيحية. وفي هذا السّـياق أذكـر الرّؤيـا التـي رأها القدّيـس بطرس في يافـا Jaffa، كيف نـزل الملك من السّـماء، ووضع أمامـه حيوانات مختلفة، مثل الأفاعـي وزواحف أخرى من الأرض، وغيرهـا أيضـاً، الكثير منها، وأمر أن يأخذ ويأكل. فأجـاب القدّيس بطرس: أنا لن آكل أبداً، وقال: من الحيوانات النّجسة. ثم قال الملَك:

Non dicas immunda, que Deus mundavit.

وكانت تلك دلالة على أنه لا يجوز لأي إنسـان أن يحتقر أيّ إنسـان دنيوي بسـبب اختـلاف دينه، لأننـا لا نعرف مَن الذي يحبّه الله، ومن الذي يكرهه. فمثال على ذلك، عندما قال النّاس: *De profundis*، قالوا ذلك جميعهم وبشكل عام، مع المسيحيين:

Pro animabus omnium defunctorum, pro quibus sit orandum.

لذلـك قلتُ عن هؤلاء القـوم، لأنهم مخلصون ومؤمنون، إن اللـه يحبهم. ويوجد بينهـم الكثير مـن الأنبياء، ودائمـاً كان لديهم. وفي تلـك الجزر، تنبؤوا بتجسّـد الرّب يسـوع المسـيح، وكيف أنه سـتلده عذراء، قبل ثلاثة آلاف سنة أو أكثر من ولادة مريم العذراء لسـيّدنا المسيح. وهم يؤمنون حقاً بالتجسيد، وبشكل كامل، ولكن لا يعرفون كيف، كيف تحمّل آلامه ومات لأجلنا.

وخلف هذه الجزر تقع جزيرة أخرى تسمى پيتان Pytan. والنّاس في تلك البلاد لا يحرثون ولا يعملون بالأرض، لأنهم لا يأكلون شـيئاً. ولهم لون جميل وشكل حسن،

حسب ضخامتهم. والصّغار مثل الأقزام، ولكنهم ليسوا صغاراً جداً بحجم الأقزام. ويعيشون على تنشق رائحة التفاح البري. وإذا ذهبوا بعيداً لأي مكان، حملوا معهم التفاح؛ لأنهم إذا فقدوا رائحته فسيموتون فوراً. وهم ليسوا عقلاء تماماً، فهم بسطاء وبهيميون.

وبعدها يوجد جزيرة، القوم فيها يغطيهم شعر أهلب خشن، مثل الحيوانات الخشنة، باستثناء وجوههم وراحات أيديهم. وهؤلاء القوم يغوصون في ماء البحر بسهولة، كما يعيشون على اليابسة الجافة. ويأكلون اللحوم والأسماك نيئة. وفي هذه الجزيرة يوجد نهر كبير ويبلغ عرضه ميلين ونصف ويسمّى بومارِه Beaumare.

وعلى بعد خمسة عشر يوماً على طول هذا النّهر، مروراً بالصّحارى على الطّرف الثّاني من النّهر - لِمَن ذهب إلى هناك، لأنني لم أذهب، لكن هذا ما أخبرنا به سكان ذلك البلد، أنه في تلك الصّحارى توجد أشجار الشّمس والقمر، التي تكلمت إلى الملك الإسكندر وحذّرته من موته. ويقول النّاس إن القوم هناك يعتنون بهذه الأشجار، ويأكلون من ثمرها ومن البلسم الذي ينمو فيها، فيعيشون أربعمئة سنة أو خمسمئة، بفضل هذه الثّمار وهذا البلسم. لأنهم يقولون إن البلسم ينمو هناك بكميات كبيرة وليس ينمو في أي مكان آخر، فقط في بابل، كما أخبرتكم من قبل.

كنا لنذهب باتجاه تلك الأشجار وبكل سرور لو كانت لدينا القوة. لكني أعرف أن 100,000 رجل من الجيش لن يتمكنوا من اجتياز تلك الصّحارى بسلام، بسبب كثرة الحيوانات البرية والتنانين الضخمة والأفاعي الضخمة الموجودة هناك، التي تقتل وتلتهم كل ما يقترب منها. وفي تلك البلاد يوجد الكثير من الفيلة البيضاء بأعداد كثيرة، ومن وحيد القرن[1] unicorn ومن الأسود بأشكال متنوعة، والكثير من

(1) لا يقصد هنا وحيد القرن (الخرتيت) المعروف، بل الحصان الأسطوري ذا القرن الوحيد في جبهته. ومن الطريف أن هذا الحيوان الأسطوري ثبت أنه ما هو إلا بقر الوحش، أي المها أو الوضيحي في تراثنا العربي. انظر كتاب: «مغامرة في جزيرة العرب بصحراء النّفود بحثاً عن الوضيحي» للمغامر دوغلاس كارُّثرز في هذه السّلسلة.

الحيوانات التي ذكرتها من قبل، والكثير من الحيوانات المقززة وبأعداد هائلة.

* * *

هذا والكثير من الجزر الأخرى هناك تقع ضمن أراضي يوحنّا الكاهن (پريستر جون)، وثمّة الكثير من العجائب، التي يطول جداً الحديث عنها، لترفه وفخامته والعدد الكبير للأحجار الكريمة التي يملكها. أعلم أنكم تعرفون تماماً وسمعتم، عن سبب تسمية هذا الإمبراطور يوحنّا الكاهن. لكن ومع ذلك للذين لا يعرفون، سأخبرهم عن السّبب.

كان فيما مضى يوجد هناك إمبراطور، وكان حاكماً ذا شأن وشرف. ولديه في صحبته فرسان مسيحيون، كما لديه الآن. وحدث أنه كان لديه عدد كبير لمتابعة الخدمة في الكنيسة بين المسيحيين. وانتشرت المسيحية خلف البحار، في كل تركية وسوريا وبلاد التّتار والقدس وفلسطين وجزيرة العرب وحلب وفي كل بقاع مصر. وحدث أن ذهب مع الفرسان المسيحيين إلى كنيسة في مصر، وكان يوم السّبت في أسبوع العنصرة. وقدّم الأسقف العظات، فشاهد القدّاس وسمعه باهتمام بالغ. ثم سأل الفرسان المسيحيين ما هي المرتبة التي يجب أن يكون عليها الأسقف الذي رآه. فأخبروه أنه يجب أن يكون كاهناً قسيساً priest. فقال الإمبراطور إنه من الآن فصاعداً لن يُطلق عليه اسم ملك ولا إمبراطور بل كاهن، وسيتّخذ اسم أول كاهن يخرج من الكنيسة، وكان اسمه يوحنّا. ومنذ ذلك الوقت فهو يسمّى يوحنّا الكاهن (پريستر جون).

ويوجد في بلاده الكثير من المسيحيين الصّالحين والملتزمين، وتحديداً من نفس بلاده، ولديهم رهبانهم، ويرتّلون القدّاس، ويقدّمون القرابين عند المذبح، من الخبز، كما يفعل الإغريق؛ ولكنهم لا يقولون أشياء كثيرة في قدّاسهم كما نفعل هنا. لأنهم لا يقولون إلا ما قاله الرّسل، كما علّمهم الرّب، تماماً كما أنشد القدّيس بطرس والقدّيس توما والرّسل الآخرون، قائلين: *Pater Noster* (أبانا) وعبارات السّرّ المقدّس. ولكن نحن لدينا إضافات كثيرة قام بها البابا، وهم لا يعرفونها.

الفصل الثّالث والثّلاثون

عن تلال الذهب التي تحرسها اليسمير
وعن الفيضانات الأربعة القادمة من أرض الجنة

بالاتجاه شـرقاً من أرض يوحنّا الكاهن تقع جزيرة كبيرة وخصبة، تسـمّى تاپروبان Taprobane. وهـي فخمة جـداً وفيها الكثير من الثّمار. وملكها غني جداً، ويقع تحت إمرة يوحنّا الكاهن. وهناك دائماً يختارون ملكهم بالانتخاب. وفي تلك الجزيرة يوجد صيفان وشـتاءان، ويجني النّاس المحاصيل مرتين في السّـنة. والحدائق مزدهرة على مرّ فصول السّـنة. ويقطنها أناس طيبون وحكماء، ويوجد الكثير من المسيحيين بينهم، وهم أغنياء جداً لدرجة أنهم لا يعرفون ما يفعلون بممتلكاتهم. ومنذ القدم، عندما كان النّـاس يمرّون من أرض يوحنّا الكاهن وصولاً إلى هذه الجزيرة، كانوا يرتبون أمورهم للإبحـار في سـفنهم لمدة اثنيـن وثلاثين يومـاً أو أكثر؛ ولكن الآن فهـم يبحرون لمدّة سبعة أيام. ويمكنهم رؤية قاع البحر في أماكن عديدة، حيث أنه ليس عميقاً جداً.

وبجانب تلك الجزيرة، باتجاه الشّرق، توجد جزيرتان أخريان. يطلق على إحداهما اسـم أوريل Orille والثّانيـة أرغايت Argyte، وجميع تلـك الأرض عبارة عن مناجم ذهـب وفضـة. وتقع هذه الجزر تماماً عند ملتقى البحـر الأحمر مع المحيط. وفي هذه الجزر لا يتمكن النّاس من رؤية النّجوم بوضوح كما في المناطق الأخرى، لأن النّجوم لا تظهر هناك، فيما عدا نجم سـاطع واحد يسمّى كاناپوس[1] Canapos. والقمر أيضاً

(1) الصّواب في الاسم: كانوپوس Canopus وهو أكثر نجم التماعاً في مجموعة كوكبة القاعدة الجنوبيّة، وثاني ألمع نجم في السّماء ليلاً بعد نجم الشّعرى اليمانيّة Sirius. وهو في تراثنا

لا يُرى خلال الدورة القمرية باستثناء الرّبع الثّاني.

وفـي جزيرة Taprobane هذه توجد تلال عظيمة من الذهب، وتحرسـها البيسـمير pismires باجتهاد كامل. وهم يقتنون الذهب الخالص ويرمون سـواه. وهذه البيسمير pismires عبـارة عـن كلاب ضخمـة، ولا يجرؤ أحـد على الاقتراب مـن تلك التلال لأنها سـتقوم بقتله والتهامه فوراً. لذلك لا يتمكن أي شـخص من الحصول على ذلك الذهب، إلا ببراعة متناهية. لذلك عندما يكون الحرّ شديداً، ترتاح البيسمير pismires داخـل الأرض، مـن أول النّهـار وحتـى الظهيرة. فيأخذ سـكان البلاد الإبـل والجمال والخيـول والحيوانات الأخرى ويمضون إلى هناك، وينطلقون بأسـرع ما يمكنهم؛ ثم يفرّون بأقصى ما يمكن حيواناتهم من الإسراع وإلا فإن البيسمير ستغادر مخابئها.

وفـي أحيـان أخرى عندما لا يكـون الحرّ شـديداً، ولا تقوم البيسـمير بالاختباء في الأرض، يحصلون على الذهب بواسـطة هـذه الحيلة. يأخذون إناث الخيل التي لديها أمهـار صغيرة، ويضعـون على ظهورها أوانٍ فارغة مصنوعة لهـذه الغاية؛ وتكون كلها مفتوحة من أعلاها، ويجعلونها تتدلي إلى الأرض. ثم يرسلونها إلى المراعي المترامية حول هذه التلال، ويبقون الأمهار معهم في بيوتهم. وعندما ترى البيسمير هذه الأواني، تثب عليها مباشـرة: وهم عادة لا يتركون شـيئاً فارغاً، بل يقومون بملئه فوراً، مهما كان هـذا الشّـيء؛ فيقومون بمـلء هذه الأوانـي بالذهب. وعندمـا يعتقد النّـاس أن الوقت قـد حان لتكون هذه الأوانـي امتلأت ذهباً، يحضرون الأمهـار ويجعلونها تصهل طلباً لأمهاتها. فتعود إناث الخيل إلى أمهارها فوراً محمّلة بالذهب. فيقوم النّاس بإفراغها، ويحصلـون علـى الكثيـر مـن الذهب بهـذه الحيلـة. لأن البيسـمير pismires تسـمح للحيوانات بأن ترعى قربها، ولكن لا تسمح لأي إنسان بالاقتراب.

وخلـف تلك الأراضـي والجزر والصّحـارى الواقعة ضمن أمـلاك يوحنّا الكاهن، بالذهاب بشكل مستقيم نحو الشّرق، لا يوجد سوى الصّخور والجبال، الضخمة جداً. وتقع هناك أرض الظلام، حيث لا يمكن لأحد رؤية شيء، لا ليلاً ولا نهاراً، كما يقول

العربي يُعرف بنجم سهيل.

أهل البلاد. وتمتدّ هذه الصّحراء وأرض الظلام من هذا السّاحل حتى الجنة الدنيوية، حيث كان آدم، أبونا الأول، وحوّاء قد تُركا، ومكثا لبعض الوقت. وهذه المنطقة تقع بالاتجاه شرقاً من بداية الأرض. ولكن هذا ليس الشّرق الذي نسميه شرقاً في هذا النّصف، حيث تشرق الشّمس. لأنه عندما تكون الشّمس في الشّرق في تلك البقاع باتجاه الجنة الدنيوية، يكون الوقت منتصف الليل عندنا في هذا النّصف، بسبب استدارة الأرض، الأمر الذي جعلتكم تلمسونه سابقاً. لأن الإله ربنا جعل الأرض دائرية عند منتصف قبة السّماء. وكل ما يوجد من الجبال والتلال والوديان ليس إلا نتاجاً لطوفان نوح، الذي أزال الأرض الرّقيقة الرّخوة، وخسفها لتشكل الوديان، والأجزاء الصّلبة والصّخرية شكلت الجبال، وعندما امتزجت التربة النّاعمة بالماء وأصبحت ودياناً.

لا يمكنني الحديث عن الجنّة بدقة، لأنني لم أذهب إلى هناك. لأنها بعيدة جداً. وهذا أقلقني، وأيضاً لم أكن قادراً على الرّحلة. ولكنني سمعت عنها من رجال حكماء، وسأروي لكم ما قالوه بأمانة.

الجنة الدنيوية، كما قال الحكماء، أعلى مكان في الأرض، في كل العالم. وهي مرتفعة جداً بحيث تلامس تقريباً قرص القمر، هناك حيث يجعلها القمر تدور؛ وكونها مرتفعة جداً فلم يصل إليها طوفان نوح، الذي غطى وجه الأرض بأكملها، من حولها وفوقها وتحتها، باستثناء الجنّة وحدها. وهذه الجنة مُحاطة بالكامل بسور، ولا يعرف النّاس من أي شيء هو هذا السّور؛ لأن الطّحالب تغطيه بشكل كامل، كما يبدو. ولا يبدو أن السّور من حجر طبيعي، ولا من أي شيء آخر ممكن أن يبنى منه سور. ويمتدّ هذا السّور من الجنوب إلى الشّمال، وفيه مدخل واحد مغلق بنار، مستعرة؛ لذلك لا يجرؤ أيّ شخص من البشر على الولوج.

وفي أعلى مكان في هذه الجنة، ويقع في وسطها، يوجد نبع تتدفق منه أربعة سيول تجري في مختلف الأراضي. وهي، الأول ويسمّى پيسون[1] Pison، أو الغانج

---

(1) أو كما يسمّى في العربية: سيحون.

Ganges، وهـو النّهـر ذاته؛ ويجري عبر الهند أو «أمـلاك»[1] Emlak، حيث يوجد في ذلـك النّهر الأحجار الكريمـة، والكثير من عُصارة الصّبـر lignum aloes والكثير من الحصـى الذهبيـة. والنّهر الآخر يسـمّى النّيل Nilus أو جيسـون[2] Gison، وهو الذي يجري في إثيوبيا ومصر. والآخر يسمّى دجلة، وهو يجري في بلاد الآشوريين وأرمينيا الكبرى. والآخر يسمّى الفرات، الذي يجري بميديا Media وأرمينيا وفارس. والنّاس هنـاك فوق يقولـون إن كل المياه العذبة في العالم، من الأعلى للأسـفل، تنشـأ من نبع الجنة، ومن هذا النّبع جميعها تبدأ وتنتهي.

النهـر الأول المسـمّى پيسـون Pison، والـذي يعنـي حسـب لغتهـم المجمع؛ لأن الكثيـر مـن الأنهار الأخرى ترفد بعضهـا لتصبّ في هذا النّهـر. والبعض يطلقون عليه اسـم الغانج Ganges، بسـبب ملك كان في الهند وكانوا ينادونـه غانجير Gangeres، وهو يجري في أراضيه. وماؤه [يكون] في موضع صافٍ، وفي موضع آخر عكر، وفي موضع حارّ، وفي موضع بارد.

والنهـر الثّاني يسـمّى النّيـل Nilus أو جيسـون Gison، لأنه عكر دائماً؛ وجيسـون Gison، في لغة إثيوبيا تعني العكر، وفي لغة مصر أيضاً.

والنهر الثّالث، يسـمّى دجلة Tigris، وهو يعني تقريباً، السّـريع؛ لأنه يجري بسرعة أكبر من أي نهر آخر؛ وأيضاً يوجد حيوان سريع العدو يسمّى Tigris.

والنهر الرّابع هو نهر الفُرات Euphrates، والذي يعني الوفير well-bearing؛ لأنه ينمـو عند ذلك النّهر الكثير من المحاصيل، مثل الحبـوب والفواكه وغيرها وبكميات كبيرة.

وسـأخبركم أنه لا يوجد أي شـخص بشـري فانٍ اقترب من تلك الجنة. لأنه براً لا يمكن لأحد الذهاب لوجود الكثير من الحيوانات البرّية الكائنة في الصّحارى، وبسبب

(1) وردت هذه التسمية أعلاه في الفصل 17 على أنها اسم الهند العليا.

(2) أو كما يسمّى في العربية: جيحون.

الجبال المرتفعة والصّخور الضخمة التي لا يمكن لأحد اجتيازها، وبسبب أرض الظلام الموجودة هناك، والكثير أيضاً. ولا يمكن لأحد الذهاب عن طريق الأنهار. لأن الماء يجري بعنف وحدّة، لأنه ينحدر بشدّة من الأعالي، ويوجد الكثير من الأمواج المرتفعة، ولا يمكن لأيّة سفينة أن تبحر بعكس اتجاهه. والماء يهدر بشدة، محدثاً ضجيجاً كبيراً مثل العواصف، ولا يمكن لأحد أن يسمع أصوات مَن في السّفينة، حتى ولو صرخوا بأعلى أصواتهم.

إنّ الكثير من السّادة قد حاولوا بإمكانيات كبيرة، ولعدة مرات، اجتياز هذه الأنهار وصولاً إلى الجنة، ترافقهم مجموعات كبيرة. ولكنهم لم ينجحوا في رحلاتهم، ومعظمهم مات في مواجهة هذه الأمواج العاتية. والكثير أصيبوا بالعمى، أو الصّمم، بسبب صخب المياه. وبعضهم هلك وفُقد في الموج. لذلك لا يمكن لأيّ إنسان فانٍ أن يقترب من ذلك المكان، إلا بفضل نعمة إلهية، وهذا كل ما يمكنني قوله عن ذلك المكان ولا شيء أكثر من ذلك؛ لذلك سأتوقف هنا وأعود للحديث عن الأماكن التي رأيتُها[1].

* * *

(1) من يقرأ كلام ماندفيل هذا يجده بالفعل ملتزماً لحدود الأمانة العلميّة بالاقتصار في النقل على مختصر الكلام، وهو يصرّح مسبقاً في هذا الفصل: «لا يمكنني الحديث عن الجنّة بدقة، لأنني لم أذهب إلى هناك. لأنها بعيدة جداً. وهذا أقلقني، وأيضاً لم أكن قادراً على الرّحلة. ولكنني سمعت عنها من رجال حكماء، وسأروي لكم ما قالوه بأمانة».

الفصل الرّابع والثّلاثون

عن عادات الملوك والآخرين القاطنين في الجزر الواقعة على سواحل أراضي يوحنّا الكاهن وعن التبجيل الذي يقوم به الابن عند وفاة أبيه

ومن تلك الجزيرة التي تحدّثتُ عنها مسبقاً، الواقعة في أرض يوحنّا الكاهن، والتي تقع في القسم السّفلي للأرض بالنسبة لنا نحن في هذا النّصف، وبالنسبة للجزر الأخرى التـي أبعد منها، ومن يتتبعها سيرجع إلـى النّقطة التي انطلق منهـا، وبذلك يحيط بكل الأرض. وبسـبب الجـزر، والبحر، والأمواج العاتية، فقليل مـن النّاس يحاولون عبور هـذا الممرّ؛ بالرغم أنه مـن الممكن النّجاح في ذلك، في حـال وجود القوة لإيصالهم إلـى هنـاك، كما أخبرتكم من قبل. لذلك فإن النّاس يرجعون من تلك الجزر المذكورة أعلاه عن طريق جزر أخرى، تواجه سواحل أرض يوحنّا الكاهن.

وفي طريق العودة، يمرّ الرّجال بجزيرة تسمى كاسون Casson. ويبلغ طول هذه الجزيرة مسـير سـتين يوماً، وعرضها أكثر من خمسـين. وهذه أفضل جزيرة وأعظم مملكة في هذه الأجـزاء، عـدا عن كاثاي. وإذا قصـد التجار هذه الجزيرة كما يقصـدون كاثاي، لأصبحت أفضـل من كاثاي في فترة وجيزة. وهذه البلاد مأهولة بشـكل جيـد، وفيها الكثير من المدن والقـرى المأهولة بالسّكان، وعندما يغادر المـرء من إحدى المدن فإنـه يجد مدينة أخرى أمامـه؛ وهـذا ينطبق على كامل البلاد. وفيها الكثير من كل أنـواع المحاصيل للاقتيات بها، وكل أصنـاف التوابـل. وتوجـد غابات كبيرة من الكسـتناء. وملك تلك الجزيـرة ثري جداً

وقـوي، ومـع ذلك فإن بلاده تقع تحت إمرة الخان الأعظـم، ويخضع له. حيث أنها واحدة مـن المقاطعـات الاثنتي عشـرة التي تتبع للخـان الأعظم ما عـدا أرضه، وهـذا غير الجزر الصّغيرة الأخرى التي يملكها، فلديه الكثير منها.

ومـن تلـك المملكـة، يصـل الرّجـال فـي طريـق عودتهم إلـى جزيـرة تسـمى ريبوت Rybothe، وهـي أيضـاً تابعة للخـان الأعظم. وهي بلاد جيدة، فيهـا الكثير من المحاصيل والخمـور والثّمار وكل أنواع الرّفاهية. والنّاس فيها ليس لديهم بيوت، ولكنهم يقيمون في خيام مصنوعة من السّـرخس الأسـود، في كل البلاد. والمدينة الرّئيسية والأكثر ملكية فيها مسـورة بالكامل بحجارة سـوداء وبيضاء. وشـوارعها كلها مرصوفة بالحجارة ذاتها. وفي تلـك المدينـة من النّـادر أن تجد شـخصاً يريق دم أي إنسـان أو حيوان توقيـراً للوثن الذي يعبده. ويقطن في تلك المدينة بابا ديانتهم، الذي يسمّونه لوباسي Lobassy. ولوباسي هذا هـو الذي يقوم بمنح المراتب والألقاب وكل ما يتعلق بالوثن. وكل أولئك الذين يشـغلون منصباً في كنائسهم، دينياً أو غيره، يطيعونه كما يفعل النّاس هنا اتجاه بابا روما.

ولديهم عادة في تلك الجزيرة متّبعة في كل أنحاء البلاد، فعندما يموت والد شخص ما، يتوجب على الابن القيام بتبجيل كبير اتجاه والده، فيرسل إلى كل أصدقائه وأقاربه، ولرجال الدين والقساوسة، والموسيقيين أيضاً، إلى عدد كبير. ويحمل النّاس جثمان الميت إلى تلة عالية بفرح وإجلال. وعندما يحملونه هناك، فإنّ الأسـقف الأكبر يقطع رأسـه، ويضعه في طبـق مـن الذهب والفضـة، إذا [كان] غنيـاً. ثم يقدم الـرّأس للابن. فيقوم الابـن مع أقاربه بتـلاوة الصّلـوات orisons. ثـم يقـوم الكهنة ورجال الدين بتقطيع جسـد الميـت. ويتلون صلوات معينة. والطّيور المفترسة في كل أنحاء البلاد تعرف تلك العادة منذ زمن بعيد، [و] تأتي وتحوم في الجو؛ مثل الصّقور والرّخمdes والغربان والطّيور المفترسة الأخرى، آكلة اللحـوم. ثـم يقوم الكهنة برمي قطـع اللحم، فيقوم كل طائر بأخذ القطعـة التي يريد ويبتعد قليلاً ويأكلها؛ وهكذا حتى لا يبقى من جسد الميت شيء.

وبعد ذلك، وكما يفعل الكهنة بيننا ويغنون للميت:

Subvenite Sancti Dei, etc.

فكذلك كهنتهم ينشـدون بأصوات عالية بلغتهم؛ يشيدون بمكانة الرّجل وحسن سيرته، وأن ملائكـة اللـه تأتي في طلبـه لتأخذه إلى الجنة. ويبـدو للابن، أنه مبجّل كثيـراً، إذا أتت طيور كثيرة وغربان لتأكل والده، وكلما كان عدد الطّيور أكثر كلما كان مقامه أرفع.

ثـم يصطحب الابن معه إلـى البيت كل أقاربه وأصدقاءه والآخرين جميعهم، حيث يقيمون احتفالاً مهيباً. ويتبجّح أصدقاؤه ويتمازحون، كيف أتت الطّيور إلى هناك، فهنا خمسة، وهنا ستة، وهنا عشرة، وهناك عشرون، وهكذا؛ ويبتهجون كثيراً بهذا الحديث. وعندمـا يجلسـون إلـى الطّعـام، يحضـر الابـن رأس والده، ويقـدم لحمـه لأصدقائه المقربيـن، بدلاً من *entre messe* أو *sukkarke*. ويجعل من جمجمته (قحف رأسـه) كوبـاً، يشـرب منه هـو وأصحابه، بحبّ شـديد، لذكـرى الرّجل التقي، الـذي قد أكلته ملائكة الله. ويحتفظ الابن بذلك الكوب ليشرب منه طوال حياته، كذكرى لأبيه.

ومن تلك الجزيرة، وعلى مسـير عشـرة أيام عبر أرض الخان الأعظم، توجد جزيرة أخرى جيدة ومملكة كبيرة، وملكها غني وقوي.

وبين الأغنياء في بلاده يوجد رجل ثري جداً، فلا يوجد حاكم ولا دوق ولا إيرل، إلا ويملـك أكثـر منه أراضيَ وممتلكات، فهو غني جداً. ولديه، في كل عام، مردود الأجر السّنوي لـ 300,000 حصان يستبدلها بالحبوب المختلفة والأرز. وهو يعيش حياة نُبل وترف، حسب العادات في بلاده. فلديه، يومياً، خمسون فتاة جميلة، كلهن عذراوات، لخدمتـه على طعامه، وليسـتلقين إلـى جانبه ليلاً، وليسـتمتع بهن. وعندمـا يكون إلى مائدته، يحضرن له طعامه، خمسة وخمسة مع بعضهن؛ وبينما يحضرن الطّعام يشدون بالأغاني. ثم، يقطعن له طعامه، ويطعمنه؛ وهو لا يمسّ شـيئاً، ولا يمسـك بأي شـيء، فقـط يضع يديـه أمامه على الطّاولـة. لأن أظافره طويلة جداً، ولا يمكنه أن يأخذ شـيئاً أو يمسـكه. لأنـه من سـمات النّبالة في تلك البـلاد، الأظافر الطّويلة جـداً، التي تحيط بكامـل اليـد. وهو يدل على نبل شـديد. ومن سـمات النّبل عند المـرأة أن تكون لديها أقدام صغيرة جداً ودقيقة. لذلك فور ولادتهن، يقومون بتقييد أقدامهن بشـدة، وبذلك

لا تنمـو الأقدام بنصف المعدل الطّبيعـي للنمو[1]. وهذا يدل على نبل المرأة بامتلاكها أقداماً صغيرة جداً.

وأيضاً تلك الفتيات، اللواتي ذكرتهن آنفاً، يأخذن بالغناء طوال الوقت الذي يتناول فيـه هـذا الرّجـل الثّري طعامه. وعندمـا ينتهي من تنـاول الصّنف الأول، تقوم خمسـة وخمسـة فتيـات بإحضار الصّنـف الثّاني، وهـن يغنين مثـل سـابقاتهن. ويقمن بذلك باسـتمرار يومياً حتى ينتهي من طعامه. وبهذا الشّـكل يعيش حياته. وهذا ما فعله الذين من قبله، أسلافه. وهذا ما سيفعله الذين يأتون بعده، دون أن يقوموا بأيّة مآثر عسكريّة، بل يعيشون هكذا فقط براحة مثل خنزير يتم إطعامه في حظيرته بهدف تسمينه.

وهو يعيش في قصر جميل وباذخ، ومحيط سوره يبلغ ميلين. ويوجد فيه الكثير من الحدائق الجميلة، وقاعات وغرف جميلة؛ وممرات القاعات والغرف كلها من الذهب والفضـة. ويوجد في وسـط أحدى الحدائق جبل صغيـر، حيث يوجد مرج ناعم. وفي ذلـك المرج يوجد جوسـق أبراجه وقممـه الناتئة كلها من الذهب. وفي هذا الجوسـق الصغير يمضي معظم أوقاته، ليستنشق الهواء وليلهو. لأن القصر لم يوجد إلا لتسليته.

* * *

ومن ثم يعبر الرّجال تلك البلاد من أرض الخان الأعظم التي تحدّثتُ عنها من قبل.

وسـأخبركم أيضاً، أنه فـي كل تلك البلاد وتلك الجزر، والأقـوام المختلفين، التي تحدّثـت عنهم، والديانات المتنوعة والعقائد المختلفة التي لديهم، فجميعهم مع ذلك لديهـم بعـض الحكمة والفهم، وإن كان أقل، ولديهم جوهر إيماننا والنّقاط الجيدة في عقيدتنا، ولديهم إيمانٌ بالله، الذي خلق كل شيء وخلق العالم، ويسمّونه ربّ الطّبيعة؛ وعن ذلك قال الرّسول:

Et metuent eum omnes fines terrae.

---

(1) كلام ماندڤيل هنا دقيق للغاية، وقد عرضت قناة ناشيونال جيوغرافيك المعرّبة في أبوظبي مرّة برنامجاً وثائقياً خاصاً حول هذه العادة الغريبة التي كانت شائعة حتى القرن العشرين في الصّين.

وفي موضع آخر:

Omnes gentes servient ei.

بما معناه أن «جميع الأمم ستتبعه».

ولكن ليس بإمكانهم الكلام بشكل جيّد (لأنه لا يوجد أحد يعلّمهم)، فقط يمكنهم التعبير حسب إدراكهم الفطري. لأنه ليس لديهم علم لا بالابن، ولا بالرّوح القدس. لكنهم جميعم يمكنهم الكلام عن الإنجيل، وتحديداً عن سفر التكوين، وعن أقوال الرّسول وكتب موسى. ويقولون إن المخلوقات التي يعبدونها ليست بآلهة؛ لكنهم يعبدونها بسبب فضائلها، والتي لا يمكن أن تكون إلا بنعمة إلهية. وعن الصّور والأوثان، يقولون إنه لا يوجد قوم ليس لديهم أوثان. ويقولون عنا نحن المسيحيين إنّ لدينا صوراً، كصورة سيدتنا والقدّيسين الآخرين الذين نجلهم؛ ليست صوراً لأشجار أو حجارة، ولكن لقدّيسين، حسب أسمائهم التي سُمّوا بها.

فصحيح أن كتبهم وكتاباتهم المقدّسة تعلم رجال الدين كيف يكون الإيمان، فكذلك الصّور والرّسومات تعلّم الجاهلين أن يجلّوا القدّيسين ويقتدوا بهم، حسب القدّيس الموجود في الصّورة. ويقولون أيضاً، أن ملائكة الرّب تحدثهم عن طريق هذه الأصنام، وأنهم يقومون بمعجزات كثيرة. ويقولون إنه يوجد ملك في داخلهم. لأنه يوجد نوعان من الملائكة، خير وشر، كما يقول الأغريق كاتشو Cacho وكالو Calo. وكاتشو هذا ملك شرير، وكالو ملك الخير. ولكن ذاك ليس ملك الخير، فالملك الذي يوجد في الأصنام هو ملك الشّر ليخدعهم ويجعلهم ينغمسون في خطاياهم.

* * *

كما يوجد الكثير من البلاد المختلفة والعجائب في ما وراء ذلك، ولكني لم أرها. لذلك لا يمكنني الحديث عنها بدقة. وأيضاً في البلاد التي زرتها، يوجد الكثير من الأشياء الرّائعة أكثر من تلك التي ذكرتُها؛ ولكن وصفها لكم يطول جداً. لذا، ولكوني قد قمت بوصف بلاد محدّدة لكم، وهي التي حدّثتكم عنها، ألتمس فضلكم ونُبلكم، لتكتفوا بهذا القدر هذه المرة. لأنني إذا تحدّثت عن كل ما وراء البحار، فلربما قام رجل آخر وتكبّد العناء

وأرهق نفسه بالذهاب إلى تلك الاتجاهات لاستكشاف تلك البلدان، متأثراً بكلامي في سرد الكثير من الغرائب؛ فمن الممكن ألا يضيف شيئاً، يكون فيه تسلية للمستمعين أو متعة أو تشويق ورغبة في سماعه. لأن النّاس يقولون دائماً، إنه من المبهج سماع الأشياء والأنباء الجديدة. لذلك سأكتفي الآن، دون أيّة إضافات أخرى عن التنوعات والعجائب الموجودة هناك، بذاك الهدف وأنتهي، ليجد الشّخص الذي سيذهب إلى تلك البلدان شيئاً ليتحدث عنه، ممّا لم أكن قد تطرّقتُ إليه.

وسأخبركم، إن رغبتم في ذلك، عن بلدي الأصلي، فقد أتيتُ من روما، وعرضتُ حياتي على أبينا المقدّس البابا، وقد تبرّأت من كل ما يعتري ذاتي، من آلام مختلفة؛ لأن الإنسان بحاجة لأن يكون مع صحبة، ويعيش بين مجموعة كبيرة من النّاس من طوائف وعقائد مختلفة، كما حدث معي.

وكل الأشياء التي أوردتها في بحثي هذا، سواءٌ المعلومات التي نقلتها عن أشخاص يعرفونها لكوني لم أرها بنفسي، أو الغرائب والتقاليد التي كنت قد شهدتها بنفسي، فبنعمة الله التي منحني إياها؛ وتضرّعت إلى قداسته الأبوية، أن يدقق كتابي هذا ويصحّح بفضل حكمة وعقلانية مجلسه. وأحال قداسة أبينا، بعطفه المميّز، كتابي هذا ليتم تدقيقه والموافقة عليه من قبل مجلسه ذاك. وقد أقرّ المجلس بصحة كتابي، بمعظمه، وأروني الكتاب الذي دقق كتابي على أساسه، الذي كان شاملاً أكثر بكثير، أكثر بمئة مرة، الذي كان كتاب *Mappa Mundi* قد استند إليه. ولذلك فكتابي هذا (بالرّغم من أن الكثيرين لم يؤمنوا بما جاء فيه، فإنه بالنسبة لأولئك الذي رأوا بأنفسهم، لا يمكن أن يكون كاتب ولا شخص أصدق من هذا) قد تم الإقرار به والمصادقة عليه من قبل قداسة أبينا، في المعلومات والصّياغة كما كنت قد قلت.

وأنا، جون ماندڤيل الفارس، المذكور أعلاه (بالرغم من كوني غير جدير)، انطلقت من بلادنا وعبرتُ البحار، في السّنة المباركة ألف وثلاثمئة واثنتين وعشرين، وقد مررتُ بأراضٍ كثيرة وبالكثير من الجزر والبلدان، واستكشفتُ أماكن غريبة كثيرة، وقد كنت برفقة الكثير من الأصحاب الجديرين بالاحترام، والكثير من مواقف القتال

(مع أني لم أقم بذلك شخصياً، لكوني غير قادر على ذلك)، والآن قد عدتُ إلى بلادي مُرغماً، للراحة، بسبب داء النّقرس (إلتهاب المفاصل) الذي انتابني[1]، والذي وضع حدّاً نهائياً لمسار تجوالي؛ بخلاف ما أريد وأشتهي (والله يعلم ذلك).

وهكذا، اتخذتُ عزاءً لي في راحتي الطّويلة، بتسجيل الزّمن الذي مضى، وأنجزتُ هـذه الأفكار، ووضعتها في هذا الكتاب حسبما وردت في ذهني، في السّنة المباركة ألف وثلاثمئة وست وخمسين[2]، في السّنة الرّابعة والثّلاثين لمغادرتي لبلادنا.

لذلك، أتوسّل إلى كل قارئي الكتاب والمستمعين إليه، إذا كان مصدر سرور لهم أن يصلّوا إلى الله لأجلي؛ وسأصلّي لهم أيضاً. وإلى كل الذين يتلون لأجلي صلاة «أبانا» *Pater Noster*، وصلوات مريم العذراء *Ave Maria*، أن يغفر الله لي خطاياي، ويجعلهم شركاء لي وأمنحهم جزءاً من رحلات الحج والأفعال الحسنة التي قمتُ بها، إذا تقبّلها مني؛ وليس ذلك فحسب وإنما كل ما سأقوم به إلى آخر حياتي.

وأسأل الله القدير، الرّحمن الرّحيم، أن ينعم عليهم بعظيم رحمته ووافر فضله، لترتقي أرواحهم إلى روحانية روح القدس، ويحميهم من الأرواح الشّريرة على الأرض، ويتحقق خلاصهم الرّوحي والجسدي؛ لنعبده ونشكره، الثّالوث، الأول والآخر؛ الخير المطلق والعظيم المطلق؛ الحاضر في كل مكان، والواسع؛ لا خير يوازيه، ولا شرّ يضعفه؛ في ثالوثه يحيا ويحكم الرّب، في كل مكان وزمان!

آمين! آمين! آمين!

[وهنا ينتهي كتاب جون ماندڤيل]

(1) يعبّر ماندڤيل عن ذلك بقوله: gouts artetykes that me distrain.

(2) في هذه السنة 1356 م قام ماندڤيل بتدوين وقائع رحلاته بعدما عاد، ولكن هل معنى ذلك أنها دامت حتى ذلك الحين؟ الجواب على هذا السؤال يبقى في علم الغيب.

المحتويات

* * *

أسفار السّير جون ماندفيل ورحلاته

جون ماندفيل أشهر وأظرف رحّالي القرن الرّابع عشر، معاصر الرّحالة البندقي الشّهير ماركو بولو ورحّالتنا الكبير ابن بطوطة الطّنجي، شغلت أسفاره ورواياته اهتمام معاصريه على نطاق واسع، ففيها أوصاف لبلاد الشّرق التي زارها: سوريا ومصر والعراق وفلسطين، وباقي أقطار العالم القديم في أوروبا وأفريقيا وآسيا وصولاً إلى الصّين. وهو يذكر في كتابه أساطير عجيبة وأصنافاً غريبة من البشر يزعم أنه رآها، لكن ليس لها وجود دون شك.

يبدأ ماندفيل كتابه بذكر الطّريق من الغرب إلى القسطنطينية، ماراً بألمانيا وهنغاريا وبلغاريا، ثم ينقلنا إلى القدس بطريقين: البرّي، مخترقاً آسيا الصّغرى ماراً بنيقية. والبحري، ومراكزه رودُس وقبرص إلى صُور. ثم يتناول الطّرق المُوصلة من سوريا إلى مصر، ويحدّثنا عن المدن المصرية وعادات السّكان وأخلاقهم، وقوّة المماليك الحربية. وفي الكتاب وصفٌ ممتع لدمشق، التي زارها كما يقول أثناء حكم دولة المماليك البحرية، كما يبدو بعد أيام السّلطان النّاصر محمّد ابن قلاوون بقليل. هذا ولم يُترجم من رحلات ماندفيل إلى العربية أيّ شيء، وهذه اليوم هي الترجمة الأولى والكاملة.

السعر 55 درهماً

9 789948 170594

إصدارات
esdarat
دار الكتب الوطنية

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY